
روايات
عالمية
للفتيان
الحديقة السرية
تأليف فرنسيس هوجس بيرنت
ترجمة كاظم سعد الدين

الحديقة السرية

تأليف فرنسيس هوجس بيرنت

ترجمة كاظم سعد الدين



فريق التوثيق الألكتروني

الحديقة السرية
تأليف : فرنسيس هوجس بيرنت
ترجمة : كاظم سعد الدين
الطبعة الاولى ١٩٨٧

الناشر وزارة الثقافة والاعلام ـ دار ثقافة الاطفال
العراق بغداد ص . ب ٨٠٤١

سلسلة روايات عالمية للفتيان
صدر عن قسم البحوث والنشر في دار ثقافة الاطفال
المدير العام رئيس مجلس الادارة : فاروق سلوم
سكرتير تحرير السلسلة : فاروق يوسف

تقديم

مؤلفة «الحديقة السرية» فرنسيس هوجسن بيرنت . وهذا هو اسمها الادبي المستعار ، اما اسمها الحقيقي فهو اليزا هوجسن بيرنت . ولدت في مانجستر ، انكلترة في عام ١٨٤٩ . وهاجرت الى الولايات المتحدة في عام ١٨٦٥ ثم عادت بعد ذلك لتعيش فترة طويلة في انكلترة حتى توفيت في عام ١٩٢٤ .

الفت كتباً عديدة للاطفال والكبار . ومن رواياتها للاطفال : لورد فونتلري الصغير في ١٨٨٦ ، وسارة كرو في عام ١٨٨٨ ، والاميرة الصغيرة ، والامير المفقود ، والحديقة السرية .

وتعد الحديقة السرية من اروع الروايات التي يحبها الاحداث والشباب ، وهي ماتزال تسحرهم بفتنتها الآسرة كما كانت تسحرهم قبل اكثر من خمس وسبعين سنة عندما طبعت اول مرة عام ١٩١١ . واعيد طبعها عشرات المرات في دار واحدة منذ اوائل الخمسينات .

كانت ميري ، بطلة الرواية ، بائسة محرومة . توفي والداها بمرض الكوليرا . فتخلت اليتيمة بعد هذه الكارثة الرهيبة عن بيتها في الهند لتعيش في بيت عمتها العظيم حيث اغلب غرفه المئة مقفل . وهو منعزل وحيد في اروع المروج .

ظلت الطفلة بائسة ، شكسة حتى اكتشفت ذات يوم باباً خفياً لحديقة سرية ظل مقفلاً عشر سنوات . اطلعت ميري صديقها ديكون على الحديقة ، وبدأت حياتها تشرق بالبهجة الآتية من سبل كثيرة .

الحديقة السرية رواية مذهلة في تتابع احداثها . يظل عبق طبيعتها وارجوانها عالقاً في ذهن قارئها ، وتظل قصتها خالدة بين روائع الادب .

كاظم سعد الدين
بغداد
١٩٨٧/٥/٢٠

١ ـ لم يبق احد

عندما أرسلت ميري لينوكس الى ميزشوايت مينر لتعيش مع عمها، قال الجميع أنهم لم يروا طفلة اسوأ من طبعها . هذا أمر صحيح. وكان لها أيضاً وجه نحيف وجسم نحيل وشعر خفيف، غير كثيف، وملامح متجهمة. شعرها أصفر، ووجهها أصفر لانها ولدت في الهند، وكانت مريضة دائماً. وكان أبوها يشغل وظيفة لدى الحكومة الانكليزية، وكان دائم الانشغال، ومريضاً هو أيضاً. وكانت أمها رائعة الجمال، ولم تكن ترغب في بنت صغيرة أبداً، وعندما ولدت ميري اودعتها الى رعاية مربية هندية التي أفهمت أنها اذا ارادت رضا السيدة ومسرتها فأنها يجب أن تبعد الطفلة عن أنظارها قدر المستطاع. لذلك عندما كانت طفلة، رضيعة عليلة، نكدة، قبيحة، ابعدت عنها، وعندما أصبحت طفلة عليلة نكدة تدرج مشيها، ابعدت عنها أيضاً. ولم تتذكر أبداً رؤية شيئ بدون كلفة الا وجوه مربيتها وخدمها من أبناء

البلد، ولما كانوا دائماً يطيعونها ويلبون طلباتها لتنال ماتريد، لان السيدة تغضب اذا ماازعجها بكاؤها، فأنها عندما بلغت السادسة من عمرها، أصبحت أنانية مستبدة. وكرهتها المربية الانكليزية الشابة التي جاءت لتعليمها القراءة والكتابة كثيراً جداً فتركت عملها بعد ثلاثة شهور، وعندما أتت مربيات أخريات لسد الشاغر فأنهن كن يهربن بوقت أقصر مما فعلت الاولى.

لذلك فلولا اختيار ميري ورغبتها الحقيقية في معرفة قراءة الكتب، لما تعلمت الحروف قط.

في صباح يوم شديد الحرارة، كانت في الثامنة من عمرها. استيقظت مغتاظة، وازداد غيظها لما رأت أن الخادمة التي تقف عند سريرها لم تكن مربيتها.

فقالت للمرأة الغريبة: لماذا أتيت. لااريدك أن تبقي. أرسلي مربيتي.

بدت المرأة خائفة، وتلعثمت قائلة أن المربية لايمكن أن تأتي، وعندما ثارت ميري غاضبة وضربتها وركلتها، بدت المرأة أكثر خوفاً وكررت أن مربيتها لايمكن أن تأتي الى الآنسة.

كان في الجو شيء غامض تكتنفه الاسرار في صباح ذلك اليوم.

فلم يتم عمل شيء بطريقته المنتظمة المعهودة، وبدا أن كثيراً من الخدم المحليين قد فقدوا، ورأت ميري الاخرين ينسلون خلسة أو يتحركون مسرعين وعلى وجوههم الرعب وشحوب



الموتى. ولكن لم يخبرها أحد بشيءٍ، ولم تأت مربيتها. لقد تركت وحيدة بمرور الصباح، وأخيراً خرجت الى الحديقة وبدأت تلعب وحدها تحت شجرة قرب الشرفة. وتظاهرت أنها تقوم بعمل لوح للزهور وراحت تغرس زهور خبازي قرمزية كبيرة في أكوام صغيرة من التراب، وظلت تحتدم غضباً طوال الوقت وتتمتم لنفسها بالاشياء التي ستقولها والشتائم التي ستوجهها لمربيتها عندما تعود.

– خنزيرة ! خنزيرة! بنت خنزير!

تقول ذلك لان اطلاق كلمة خنزير على أحد المواطنين هو أسوأ اهانة توجه له.

وكانت تصر باسنانها وتكرر ذلك مراراً عندما سمعت أمها تخرج الى الشرفة مع أحد الاشخاص. كان شاباً لطيفاً. ووقفا يتحدثان معا بكلام غريب واطئ النبرة. عرفت ميري ذلك الشاب اللطيف الذي يشبه الولد. سمعت أنه كان ضابطاً شاباً وصل تواً من انكلترة. حملقت الطفلة فيه، ولكنها حملقت أكثر من ذلك في أمها. كانت تفعل ذلك دوماً كلما سنحت لها الفرصة لرؤيتها، لان السيدة– كما اعتادت ميري أن تدعوها بذلك أكثر من أي شيء آخر– كانت طويلة رشيقة، جميلة، ترتدي ملابس رائعة.

كان شعرها كالحرير المتموج ، ولها أنف صغير دقيق يبدو كأنه يزدري الاشياء تكبراً، وعينان واسعتان ضاحكتان.

ملابسها خفيفة ومهفهفة، وقالت ميري أنها مليئة بالتخريم ولكنها الآن تبدو حافلة بالتخريم أكثر من ذي قبل، غير أن عينيها لم تكونا ضاحكتين هذه المرة أبداً. كانتا واسعتين مرعوبتين، تتطلعان مذعورتين الى وجه الضابط الشاب اللطيف.

وسمعتها ميري تقول: هل الامر سيئ الى هذا الحد؟ هل هو كذلك؟

فأجاب الشاب بصوت مرتعش: رهيب، رهيب يامسزلينوكس كان ينبغي أن تذهبي الى الجبال قبل اسبوعين.

وعصرت السيدة يديها وصرخت قائلة: أعرف ذلك. ولكنني بقيت لكي أذهب مأدبة الغداء السخيفة تلك: يالي من حمقاء!

وانفجر في تلك اللحظة عويل عال في جناح الخدم فمسكت ذراع الشاب، وظلت ميري واقفة ترتعش من رأسها الى قدميها.

وزاد العويل ضراوة ووحشية.

وشهقت السيدة لينوكس قائلة: ماهذا؟ ماهذا؟

فاجاب الضابط الشاب: مات أحدهم. لم تقولي أنه تفشى بين خدمك.

فصرخت السيدة: لم أكن أدري! تعال معي! تعال معي ثم استدارت وركضت الى البيت.

بعد ذلك، وقعت أمور مرعبة، وشرحوا لميري سر تلك الأمور الغامضة. تفشت الكوليرا (الهيضة) بأبشع صورها المهلكة

وصار الناس يموتون كالذباب. وأخذت مربيتها من البيت بعد اصابتها ليلاً، وأخذ الخدم يعولون في الأكواخ لانها ماتت. وقبل حلول اليوم التالي مات ثلاثة آخرون وهرب الباقون مذعورين. وانتشر الفزع في كل مكان، وحل الموت في كل بيت.

واختبأت ميري، في أثناء حالة الاضطراب والارتباك في اليوم التالي، في جناح الاطفال ونسيها الجميع. ولم يفكر بها أحد اذ لم يكن يريدها أحد ،وحدثت أشياء غريبة لم تعرف عنها شيئاً: وبكيت ميري مراراً ثم نامت أخيراً. عرفت فقط أن الناس أصيبوا بمرض وسمعت أصواتاً مرعبة وغامضة. تسللت مرة الى غرفة الطعام ووجدتها خالية مع وجود وجبة طعام على المائدة لم تمس إلا جزئيا.. وصحون وكراسي بدت كأنها أرجعت في أثناء نهوض الآكلين فجأة بسبب من الاسباب. أكلت الطفلة شيئاً من فاكهة وبسكت وشربت قدحاً من شراب اذ كانت ضامئة وكان حلو الطعم ولم تعرف مدى قوته وسرعان ماشعرت بالنعاس الشديد فذهبت الى غرفة نومها وأغلقت الباب عليها، وهي خائفة من الصراخ الذي سمعته من الاكواخ واصوات الاقدام المسرعة، ولم تكد تستطيع فتح عينيها، فاستلقت على فراشها ولم تعرف شيئاً بعد ذلك .

حدثت أشياء كثيرة في أثناء الساعات التي أستغرقت في نومها، ولكن يزعجها العويل وصوت الاشياء التي كانت تنقل من البيت واا .

عندما استيقظت ظلت مستلقية وحدقت في الجدار. كان البيت في غاية السكون. ولم تتذكر أن تمر بمثل ذلك الصمت من قبل.

لم تسمع صوتاً ولا وقع قدم وتساءلت في نفسها إن كان الجميع قد شفي من الكوليرا وزال كل قلق. وتساءلت أيضاً من سيعنى بها بعد موت مربيتها. لعل مربية جديدة ستأتي، وقد تعرف قصصاً جديدة. لقد ضجرت ميري من الحكايات القديمة ولم تبك لآن مربيتها ماتت، اذ لم تكن طفلة عاطفية، ولم تهتم لاحد أبداً. ارعبتها الضوضاء والضجيج وسرعة الحركة في البيت والعويل بسبب الكوليرا، وجاعت لان أحداً لم يتذكر أنها كانت على قيد الحياة، فقد أصيب الجميع بالذعر فلم يفكروا بالطفلة التي لم يحبها أحد. ولما أصيب الناس بالكوليرا يبدو أنهم لم يتذكروا الا أنفسهم. ولكن اذا تحسن الجميع مرّة أخرى فلابد أن أحداً سيتذكرها ويأتي للبحث عنها.

ولكن لم يأت أحد، وعندما كانت مستلقية تنتظر، بدا البيت أشد سكوناً. وسمعت حفيفاً على البساط. وعندما نظرت الى الاسفل رأت أفعى صغيرة تنساب وتنظر اليها بعينين كأنهما جوهرتان. ولم تخف لان الافعى كانت صغيرة غير مؤذية.

وبدت أنها على عجل من أمرها للخروج من الغرفة فتسللت من تحت الباب والبنت تراقبها.

وقالت: ماأشد غرابة المكان وهدوءه يبدو كأنه لايوجد أحد

في البيت غيري وغير الحية.

وسمعت بعد دقيقة تقريباً وقع أقدام في الحوش ثم على الشرفة. كان وقع أقدام رجال ثم دخلوا البيت تحدثوا باصوات واطئة. ولم يخرج أحد لمقابلتهم أو الكلام معهم. وبدا كأنهم يفتحون الأبواب وينظرون في الغرف.

وسمعت شخصاً يقول: ماهذا الخراب! تلك المرأة، المرأة الجميلة! اظن أن الطفلة أيضاً. سمعتهم يتحدثون عن طفلة، مع أنهم لم يروا الطفلة أبداً.

كانت ميري واقفة في وسط غرفة النوم عندما فتحوا الباب بعد دقائق قليلة. كانت تبدو فتاة قبيحة شكسة، وعابسة لانها بدأت تشعر بالجوع والاهمال المهين. كان الرجل الاول الذي دخل ضابطاً ضخماً رأته ذات مرة يتحدث الى أبيها. بدا متعباً، مضطرباً ولكن عندما رآها جفل وكاد يقفز راجعاً.

وصرخ: بارني! هذه طفلة، هنا! طفلة وحيدة! في مكان مثل هذا! الله يرأف بنا، لاندري من تكون؟

وقالت الطفلة الصغيرة وهي تنتصب بصلابة وجفاء: انا مير لينوكس.

وظنت أن الرجل كان قليل الادب في دخوله بيت أبيها ودعوته «مكان مثل هذا»، وأكملت قولها: نمت عندما أصابت الكوليرا الجميع، واستيقظت قبل قليل. لماذا لم يأت أحد؟

وتعجب الرجل والتفت الى جماعته صائحاً: هذه هي الطفلة

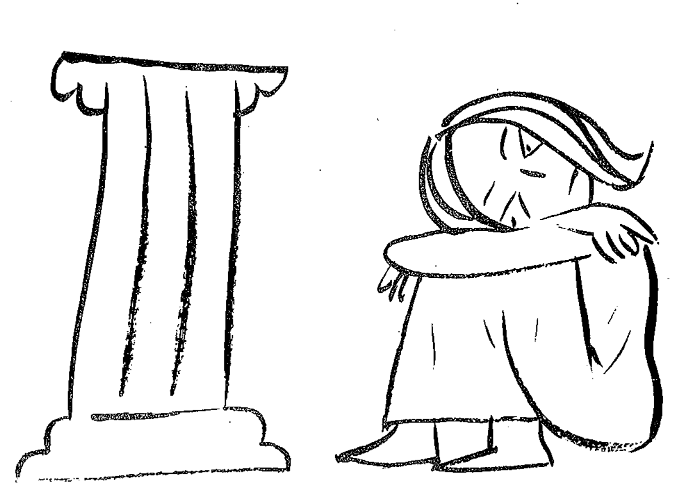
التي لم يرها أحد! لقد نسيت تماماً.

فقالت ميري وهي تضرب الارض برجلها: ولماذا نسوني؟ لماذا لم يأت أحد.

ونظر الشاب المسمى بارني اليها بحزن. وظنت ميري أنها رأته برمش عينيه كأنه يطرد الدموع.

وقال: الطفلة المسكينة! لم يبق أحد ليأتي اليها.

وجدت ميري بتلك الطريقة الغريبة المفاجئة أنها لم يبق لها أب ولا أم. أنهما ماتا ونقلا ليلاً وأن المواطنين الذين لم يموتوا تركوا البيت أيضاً باسرع ما استطاعوا، ولم يتذكر أحد الانسة الصغيرة. لهذا السبب بدا المكان هائاً جداً. ولم يكن في الحقيقة أحد في البيت غيرها وغير الحية الزاحفة.





٢ ـ الآنسة ميري

كثيراً ما احبت ميري ان تتطلع الى امها من بعيد ، وكانت تعتقد انها جميلة جداً ، ولكن بما انها صغيرة جداً فلم تكد تتوقع ان تحبها او تفتقدها كثيراً عندما رحلت عن هذه الدنيا ، بل هي لم تفتقدها مطلقاً في حقيقة الامر ، وبما انها كانت طفلة منطوية على نفسها فانها اولت نفسها كل تفكيرها ، كما كانت تفعل دائماً في السابق . لو انها كانت اكبر عمراً لاصابها القلق ، بلا ريب ، لبقائها وحيدة في هذه الدنيا ، غير انها كانت صغيرة جداً ، وبما انها اعتادت على تلقي الرعاية من غيرها فانها ظنت ان الامور ستجري على ذلك المنوال دائماً . كل ما كانت تفكر به انها ارادت ان تعرف هل ستذهب الى اناس طيبين لطيفين سيكونون مؤدبين معها يطاوعونها كما كانت تفعل مربيتها وخدمها المحليين .

عرفت انها لن تمكث في بيت القسّ الانكليزي حيث اخذوها اول مرة .ولم تكن راغبة في المكوث هناك . كان القس فقيراً وله خمسة اطفال ، في عمر واحد تقريباً ، يرتدون ملابس رثة ، وكانوا كثيري الخصام يخطف بعضهم اللعب من ايدي بعضهم الآخرين . وكرهت بيتهم غير المرتب ولم تنسجم معهم ابداً فلم يلعب معها احد بعد اليوم الاول او الثاني . واطلقوا عليها لقباً اغضبها كثيراً .

كان بيزل اول من فعل ذلك وهو ولد صغير ذو عينين زرقاوين وقحتين وانف اخنس ، كرهته ميري . وصارت تلعب وحدها تحت شجرة ، كما كانت تلعب يوم تفشي الكوليرا ، فتصنع اكواماً من التراب وممرات في حديقة . جاء بيزل ووقف قريباً منها ليتفرج عليها . وسرعان ما اندمج معها وقدم لها اقتراحاً :— لم لا تضعين كومة من احجار هناك ، لتكون ما يشبه الحديقة الصخرية . هناك في الوسط .

قال ذلك وانحنى فوقها مشيراً الى المكان . فصرخت ميري قائلة :— ابعد عني! انا لا اريد الاولاد . ابعد عني!

بدا بيزل غاضباً لحظة ثم بدأ يغيظها ، كما كان يغيظ اخواته ويضايقهن . وصار يرقص حولها ويكشر ويغني ويضحك .

الانسة ميري ، لست كالغير

كيف في حديقتك تنمو

زهيرات الاجراس الفضية والنباتات الصدفية

والآذريون ، كلها في صف واحد تغدو؟

وظل يغنيها حتى سمع الاطفال الآخرون وضحكوا ايضاً ، وكلما زاد غيظها ، غنى لها الاطفال «انسة ميري ، لست كالغير» ،وما دامت معهم ، كانو يطلقون عليها «انسة ميري ، لست كالغير» عندما يتحدثون عنها فيما بينهم ، او عندما يتكلمون معها في اغلب الاحيان .

وقال لها بيزل : سترسلين الى الوطن في نهاية الاسبوع ونحن فرحون بذلك .

فاجابت ميري : وانا فرحة بذلك ايضاً . اين الوطن؟

فقال بيزل بسخرية ولد في السابعة من عمره : انها لا تعرف اين الوطن! هو انكلترة طبعاً وفيه تعيش جدتنا ، واختنا ميبل ارسلت اليها في السنة الماضية . انت لن تذهبي الى جدتك . فليس لديك جدة . ستذهبين الى عمك ، الذي اسمه ارجيبالد كريفن .

فردت عليه بحدة : انا لااعرف شيئاً عنه .

فاجاب بيزل : انا ادري انك لا تعرفين شيئاً عنه . البنات لا يعرفن اي شيء . سمعت أبي وأمي يتحدثان عنه . يعيش في بيت قديم عظيم وكبير ومنعزل في الريف ولا يقرب احد منه . وهو يغتاظ كثيراً ولا يدعهم يقتربون واذا سمح لهم فلن يقتربوا منه . هو احدب وبشع .

فقالت ميري : انا لا اصدقك .

واستدارت وولته ظهرها ووضعت اناملها في اذنيها ، لانها لم تكن تريد ان تسمع المزيد من ذلك .

ولكنها ظلت تفكر بذلك كثيراً فيما بعد . وعندما اخبرتها السيدة كروفورد في تلك الليلة انها ستبحر الى انكلترة بعد ايام قلائل حيث خالها مستر إرجيبالد كريفن الذي يسكن في ميسيلثوايت مينر، بدا وجهها خلواً من التعبير وانها غير مهتمة اطلاقاً ، فلم يعرفوا كيف يفكرون بشأنها . وحاولوا ان يكونوا لطيفين معها ، غير انها ادارت وجهها عندما حاولت السيدة كروفورد ان تقبلها ، وانكمشت عندما ربت السيد كروفورد على كتفها . قالت السيدة كروفورد بعد ذلك مشفقة : انها طفلة قبيحة جداً . وكانت امها سيدة جميلة جداً . وعاداتها جميلة جداً ايضاً ، ولكن عادات ميري لم تكن تشبه اي طفل . فالاطفال يدعونها «الانسة ميري لست كالغير» ، وبالرغم من ان ذلك خبث ووقاحة منهم ، فأن المرء لا مفر له من تفهم ذلك . فعقب السيد كروفورد قائلاً : لو ان امها اطلت بوجهها الجميل وسلوكها الحلو اللطيف الى غرفة نوم الطفلة مرات عديدة ، فلربما تعلمت ميري شيئاً من عادات امها ايضاً . ولكن الامر يبعث على الحزن الآن ، بعد ان رحلت تلك الام الجميلة المسكينة ، حتى ان كثيراً من الناس لن يتذكروا انها كان عندها طفلة في يوم من الايام .

فتنهدت السيدة كروفورد وقالت : اعتقد انها لم تلق نظرة

الى الطفلة الا في نادر الاحيان . وعندما ماتت مربيتها لم يبق احد يهتم بالطفلة الصغيرة . تصور الخدم يهربون ويتركونها وحيدة في ذلك البيت المهجور . وقال الكولونيل ماكرو ان قلبه كاد ينخلع عندما فتح الباب ووجدها واقفة وحدها في وسط الغرفة .

قطعت ميري الرحلة البحرية الطويلة تحت رعاية زوجة احد الضباط التي كانت تصطحب اطفالها لا يداعهم في مدرسة داخلية ، وكانت منشغلة بابنها وابنتها الصغيرين ، واسعدها ان تسلم الطفلة ميري الى المرأة التي ارسلها السيد ارجيبالد كريفن لاستقبالها في لندن . كانت المرأة مدبرة شؤون منزله في ميسيلثوايت مينر واسمها السيدة ميدلوك . كانت امرأة قوية البَنية ذات خدين حمراوين وعينين سوداوين نفاذتين . تلبس ثوباً ارجوانياً ومعطفاً حريرياً اسود ، له اهداب سود فاحمة وقلنسوة سوداء ذات ورود ارجوانية مخملية ، تنتأ وترتعش كلما حركت رأسها لم تحبها ميري اطلاقاً ، ولا غرابة في ذلك ما دامت لا تحب الناس الا نادراً . وفضلا عن ذلك فان من الواضح ان السيدة ميدلوك لم تفكر بها كثيراً . وقالت :– ياالهي ! انها طفلة صغيرة قبيحة ! وقد سمعنا ان امها كانت ذات جمال بارع . ولم ترث منها شيئاً كثيراً ، اليس كذلك يا سيدتي؟

فقالت زوجة الضابط طلِقَة المحيا : لعلها ستتحسن عندما تكبر . لولا شحوبها وقتامة تعبيرات وجهها ، فأن قسماتها لطيفة . الاطفال يتغيرون كثيراً .

فاجابت السيدة ميدلوك : لابد ان تتغير كثيراً ، وليس ثمة في ميسيلثوايت ما يدعو الى احتمال تحسن الاطفال – اذا اردت معرفة الحقيقة مني!

ظنت المرأتان ان ميري لم تكن مصغية لانها كانت تقف على مبعدة منهما لدى شباك الفندق الخاص الذي ذهبن اليه . كانت تراقب الحافلات وسيارات الاجرة والناس ، ولكنها سمعتهما جيداً وثار فضولها بصدد عمها والمكان الذي يعيش منه . فما نوع ذلك المكان وما شكل عمها؟ وماذا يعني احدب؟ انها لم تر احداً كذلك . لعل احداً من ذلك الصنف لا يوجد في الهند .

وما دامت تعيش في بيوت الاخرين وليس لديها مربية ، فانها بدأت تشعر بالوحدة وتخطر ببالها افكار غريبة جديدة بالنسبة اليها . وصارت تتساءل لماذا لم تبدُ ابداً انها تنتمي الى احد من الناس حتى عندما كان ابوها وامها على قيد الحياة . ولكن يبدو الاطفال الاخرون انهم ينتمون الى ابائهم وامهاتهم ، ولكنها لم تبدُ مطلقاً انها ابنة اي انسان . كان لها خدم وطعام وثياب ولكن لم يأبه لها احد . لم تكن تدري ان سبب ذلك انها طفلة سيئة الطبع ، ولكنها طبعاً لم تكن تدري آنذاك انها سيئة الطبع ، بل كانت تظن ان الناس الآخرين كانوا كذلك ، ولكنها لم تكن تدري انها كانت كذلك .

ظنت ان السيدة ميدلوك كانت اسوأ الناس طبعاً ممن شاهدتهم ، بوجهها الملون المعتاد ، وقلنسوتها اللطيفة

الاعتيادية . في اليوم التالي ، عندما انطلقتا في رحلتهما الى بوركشير ، سارت ميري قاطعة المحطة نحو عربة القطار رافعة راسها ، محاولة ان تبتعد عنها قدر استطاعتها لانها لم تكن تود ان تبدو ان لها علاقة بها . فيغضبها كثيراً ان تظن ان الناس يتصورون انها ابنتها الصغيرة .

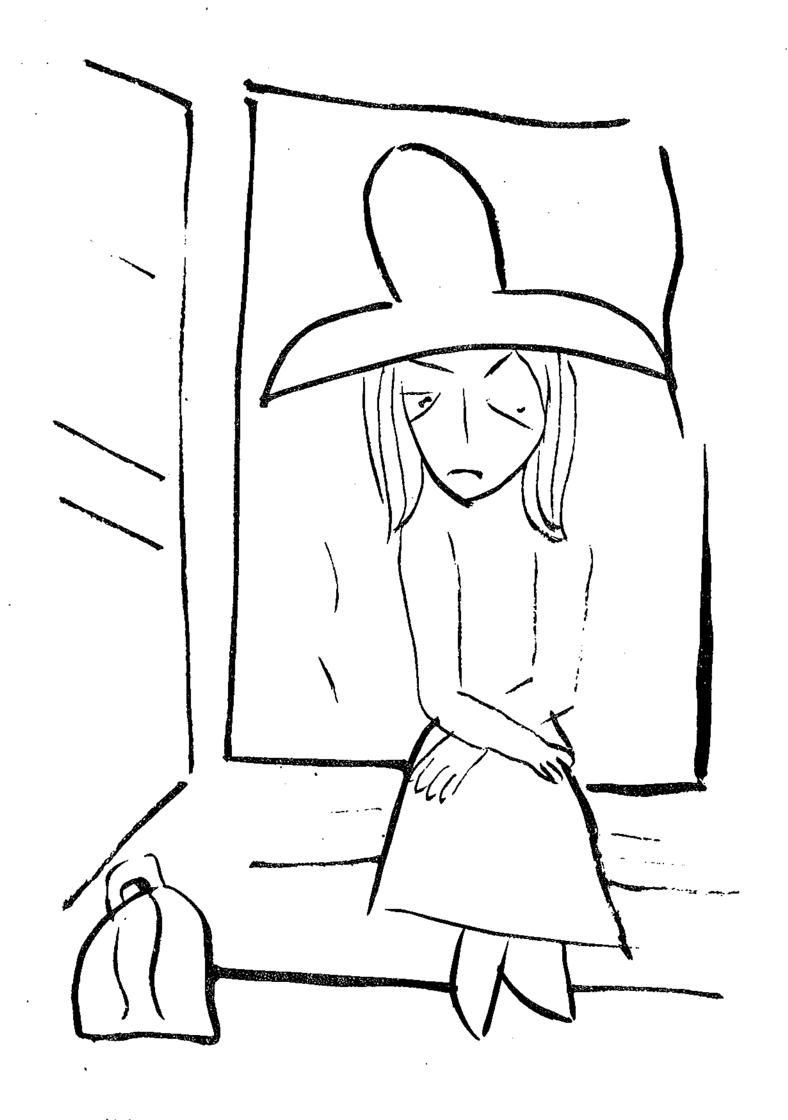
ولكن السيدة ميدلوك لم تتاثر بها وبافكارها . كانت امرأة لا تقاوم تفاهات الصغار او حماقتهم . ذلك في الاقل ما تجيب به اذا ما سئلت عن الامر. لم تكن تريد الذهاب الى لندن عندما كانت ابنة اختها ماريا ستتزوج ، ولكنها حصلت على مكان مريح جيد الاجر عند اشتغالها مدبرة منزل في ميسيلثوايت مينر ، والطريقة الوحيدة لادارته هي تلبية طلبات السيد آرجيبالد كريفن فوراً . ولم تجرؤ ابداً حتى بتوجيه سؤال .

قال لها السيد كريفن بطريقته الباردة الموجزة : مات الكابتن لينوكس وزوجته بالكوليرا . كان الكابتن لينوكس اخا زوجتي وانا الوصي على ابنتهما . يجب ان تجلب الطفلة الى هنا . عليك ان تذهبي الى لندن لجلبها بنفسك .

فرتبت حقيبتها الصغيرة ورحلت الى لندن .

جلست ميري في ركن من عربة القطار وبدت قبيحة ، مضطربة لم يكن لديها ماتقرأ او تنظر فيه ، وشبكت يديها الصغيرتين الناحلتين في قفازين اسودين على حضنها . وجعلها ثوبها الاسود اكثر شحوبا ، وانتشر شعرها الخفيف المسترسل من

تحت قبعتها الكريب السوداء بغير انتظام .
– لم ار في حياتي طفلة افسدها الدلال الى حد النكد مثلها .
قالت السيدة ميدلوك مفكرة في نفسها . لم تر طفلة تجلس ساكنة دونما عمل اي شيء . وتعبت اخيراً من مراقبتها وبدأت تتحدث بصوت سريع جاف قائلة :
– اعتقد انني ينبغي ان اخبرك شيئاً عن المكان الذي ستذهبين اليه . هل تعرفين شيئاً عن عمك ؟
فقالت ميري : لا .
– الم تسمعي اباك او امك يتحدثان عنه ؟
– لا .
قالت ميري ذلك عابسة . وقطبت لانها تذكرت ان اباها وامها لم يتحدثا اليها عن اي شيء . فلم يخبراها بشيء قط .
فغمغمت السيدة ميدلوك بشيء ينم عن شك او ازدراء وهي تحملق في وجه الطفلة الغريب الذي لاتبدو عليه اي استجابة . ولم تفه بشيء آخر دقائق معدودات ثم استأنفت القول :
– اعتقد انك لابد ان تعلمي شيئاً – لتتأهبي له . فانت ذاهبة الى مكان غريب .
ولم تقل ميري شيئاً ، فبدت السيدة ميدلوك خائبة مدحورة لعدم مبالاتها الظاهرية ، ولكنها قالت تواصل كلامها بعد ان اخذت نفساً :
– لكن لايعدو ان يكون مكاناً فخماً بشكل كئيب ، والسيد



كريفن فخور به بطريقته الخاصة – وهذا أمر كئيب ، بحد ذاته ، ايضاً . عمر البيت ست مئة سنة ، ويقع على طرف المروج ، وفيه قرابة مئة غرفة ، اغلبها مغلق بالاقفال . وفيه صور واثاث قديمة رائعة واشياء اخرى فيه منذ عهود ، وثمة متنزه واسع حوله وحدائق واشجار ذات اغصان متدلية الى الارض – بعضها طبعاً .

ثم توقفت عن الكلام قليلاً واخذت نفساً آخر ثم انهت كلامها فجأة قائلة : ولكن لايوجد شيئ آخر .

صارت ميري تستمع اليها بالرغم من ارادتها . فقد بدا الامر جميعاً مختلفاً عما في الهند ، وكل شيئ جديد يجلب انتباهها . ولكنها لم تكن تنوي ان تبدو كأنها كانت مهتمة بالامر . وتلك احدى عاداتها البغيضة المقيتة . فجلست ساكنة .

فسألتها السيدة ميدلوك : حسناً ، وما رأيك بذلك ؟

فأجابت : لاشيئ . لااعرف شيئاً عن مثل هذه الاماكن .

جعل ذلك الجواب السيدة ميدلوك تضحك ضحكة قصيرة وتقول :

– ولكنك تشبهين امرأة عجوزاً . الا تهتمين ؟

فقالت ميري : لست ابالي اذا ما كنت اهتم بشيئ او لا اهتم .

فقالت السيدة ميدلوك : انت على حق في هذا تماماً . هذا لايهم . انا لاادري لماذا ستبقين في ميسيلثوايت مينر ، الا اذا

كان ذلك ايسر امر للمسألة . وهو لن يكلف نفسه عناء التفكير بك ، وهذا شيئ اكيد ومحقق . فهو لايقلق نفسه بشأن احد .

وتوقفت كأنها تذكرت شيئاً في حينه ثم قالت :

– له ظهر احدب يجعله في شكل غير لائق . كان شاباً شكساً ، ولم يستفد من امواله ومكانه الواسع حتى تزوج .

التفتت ميري بعينيها نحو السيدة ميدلوك ، بالرغم من تصميمها ان لايبدو عليها الاهتمام . لم تفكر ابداً بان الاحدب متزوج ، فدهشت قليلاً . ورأت السيدة ميدلوك ذلك . وبما انها امرأة ثرثارة فقد واصلت باهتمام اكثر . تلك طريقة من طرق تزجية الوقت على اي حال .

– كانت امرأة جميلة ، رائعة . وبذل قصارى جهده للفوز بها ، ولم يفكر احد انها ستتزوجه ، ولكنها فعلت ذلك . وقال الناس انها تزوجته من اجل نقوده . ولكنها لم تفعل ذلك ، اجل لم تفعل ذلك . وعندما ماتت – .

ووثبت ميري وثبة صغيرة بصورة لاارادية ، وقالت :

– اوه ، هل ماتت !

استعلمت منها دون ان تقصد ذلك . وتذكرت حكاية جان فرنسية قرأتها يوماً . وهي عن احدب مسكين واميرة جميلة ، جعلتها تشعر بالاسف من اجل السيد ارجيبالد كريفن .

فاجابت السيدة ميدلوك قائلة : نعم ماتت وجعله ذلك اكثر غرابة من السابق . فلم يعد يهتم باحد . ولايريد مقابلة احد .

وكان يخرج معظم الوقت واذا ما عاد الى ميسيلثوايت فانه يحبس نفسه في الجناح الغربي ولن يدع احداً يقابله عدا بجر . وهو زميل قديم له ، ولكنه كان يهتم به عندما كان طفلاً وكان يعرف عاداته .

بدا لها ذلك كأنه حكاية في كتاب ، ولم يجعلها تشعر بالبهجة : بيت فيه مئة غرفة مغلقة بالاقفال - بيت على اطراف المروج - ومهما كانت المروج - فان ذلك يبعث على الوحشة والكآبة . ورجل احدب الظهر يحبس نفسه ايضاً ! وتطلعت خارج الشباك وشفتاها مزمومتان . وبدا امراً طبيعياً ان يهطل المطر بصورة مائلة ويرتطم بزجاج النافذة ويسيل نازلاً . لو كانت الزوجة على قيد الحياة ، فلعلها جعلت الامور اكثر بهجة بان تكون مثل امها بخروجها ودخولها وذهابها الى الحفلات كما كانت تفعل في بدلاتها ذات الدانتيل . ولكنها لم تعد موجودة .

وقالت السيدة ميدلوك : لاتتوقعي ان تقابليه ، وسيكون ذلك بنسبة عشرة الى واحد ولاتتوقعي ان تجدي اناساً يتحدثون اليك . سيترتب عليك ان تلعبي وتهتمي بنفسك . سوف تخبرين اياً من الغرف يمكنك دخولها واياً منها عليك الابتعاد عنها . هناك حدائق كافية ، ولكن اذا كنت في البيت فلا تتجولي فيه وتبحثي في اشياء لاتعنيك ، لان السيد كريفن لايوافق على ذلك .

فقالت ميري الكئيبة البغيضة : انا لااريد ان اتدخل في ما لا يعنيني .

وكما شعرت بالاسف المفاجئ نحو السيد ارجيبالد كريفن . بدأت تكف عن الشعور بالأسف نحوه وراحت تعتقد انه انسان كريه يستحق كل ماحدث له .

وادارت وجهها نحو زجاج نافذة عربة القطار الذي كان يسيل ماء المطر عليه وحدقت في الخارج الى العاصفة المطرية التي بدت كأنها ستستمر الى الابد . وظلت تراقب ذلك طويلا وبثبات حتى غدا لون المطر اكثر قتامة امام عينيها واستغرقت في نومها .





٣ - عبر المروج

نامت ميري مدة طويلة وعندما استيقظت كانت السيدة ميدلوك قد اشترت سلة عشاء في احدى المحطات وتناولتا شيئاً من لحم الدجاج ولحم البقر البارد وخبز وزبد وقليلاً من الشاي الساخن . وبدا كأن المطر ازداد هطولاً اكثر من ذي قبل ، وكان كل من في المحطة لابساً معطفاً مطرياً تبلل فصار متلالئاً . واشعل الحارس المصابيح في العربة وابتهجت السيدة ميدلوك كثيراً وهي تتناول الشاي والدجاج ولحم البقر . واكلت كثيراً ثم اغفت ولكن ميري جلست تحملق فيها ونظرت الى قلنسوتها تميل الى جهة ، حتى اغفت هي ايضاً مرة اخرى في ركن العربة وكان المطر يهدهدها ؛ بارتطامه على النافذة . كان الظلام سائداً عندما استيقظت مرة اخرى اذ توقف القطار في المحطة وراحت السيدة ميدلوك تهزها ، قائلة :

– نمتِ كثيراً وحان موعد فتح عينيك ! نحن الآن في محطة ثوايت

وامامنا مسافة طويلة .

نهضت ميري وحاولت ان تبقي عينيها مفتوحتين بينما كانت السيدةميدلوك تجمع اشياءها . ولم تتقدم الطفلة لمساعدتها ، لان الخدم في الهند هم الذين يأخذون الاشياء ويحملونها ، وبدا لها من المناسب ان يقوم الآخرون بخدمتها .

كانت المحطة صغيرة ، ولم ينزل من القطار غيرهما. وتكلم مدير المحطة الى السيدة ميرلوك بصوت خشن مهذب وهو يلفظ الكلمات بطريقة غريبة عرفت ميري فيما بعد انها لهجة يوركشير.

قال المدير: أرى انك عدت وجلبت معك فتاه صغيرة

– نعم هذه هي، وكيف حال زوجتك ؟

قالت السيدة ميدلوك ذلك وهي تتكلم بلهجة يوركشير ايضا وتهز رأسها فوق كتفها بأتجاه ميري.

– حسنا، العربة في انتظاركم الان في الخارج.

كانت عربة صغيرة مقفلة واقفة في الطريق امام الرصيف الصغير. وجدت ميري ان العربة انيقة وسائقها رشيق انيق ساعدها في دخولها. كان معطفه المطري وغطاء القبعة المطري كانا لامعين ويقطران ماء ككل شيء حتى مدير المحطة الضخم.

وعندما اغلق الباب وصعد في المقصورة مع الحوذي وسارت العربة وجدت الطفلة الصغيرة نفسها جالسة في زاوية مريحة المقعد، ولكنها لم تكن ميالة للنوم مرة اخرى. جلست وتطلعت خارج النافذة، متلهفة لرؤية شيء من الطريق الذي

تسير فيه العربة الى المكان الغريب الذي حدثتها عنه السيدة ميدلوك. لم تكن ميري طفلة جبانة. ولم تكن خائفة ولكنها لم تكن تعرف ماذا سيحدث في بيت فيه مئة غرفة يكاد يكون جميعها مغلقا بيت ماثل على حافة المرج.

سألت ميري السيدة ميدلوك : ما المرج ؟

أجابت المرأة قائلة : تطلعي خارج النافذة مدة عشر دقائق وسوف ترين. سوف يسير بنا القطار خمسة اميال عبر ميسيل قبل ان نصل الى مينر. لن تري شيئا كثيرا بسبب ظلام الليل، ولكنك مع ذلك تستطيعين ان تري شيئا.

لم توجه ميري اسئلة اخرى، ولكنها ظلت تنتظر في ركنها المظلم، وعيناها الى النافذة، وكانت مصابيح العربة تلقي اشعة من نورها الى مسافة غير بعيدة فلمحت اشياء مروا بها، وبعد ان تركوا المحطة، اخترقوا قرية صغيرة ورأت اكواخا بيضا، واضواء حانة. ثم مروا بكنيسة وبيت قس وواجهة حانوت صغيرة من احد البيوت معروض فيها لعب وحلويات واشياء اخرى للبيع. ثم صاروا على الطريق العام ورأت اسيجة من نباتات واشجار. وبعد ذلك لم تبد الأشياء مختلفة حتى مسافة طويلة، او وقت بدا لها طويلا ... وأخذت الخيل اخيراً تسير ابطأ من ذي قبل، كأنها ترقى تلاً من التلال، وبدا فجأة كأن اسيجة النباتات والأشجار قد انقطعت. ولم تر في الحقيقة شيئا سوى الظلام الكثيف على الجانبين. ومالت الى الأمام وضغطت وجهها الى

النافذة عندما ارتجت العربة رجة عنيفة. وأسرعت . وقالت السيدة ميدلوك :

– نحن الآن سائرون في المرج بلا ريب .

والقت مصابيح العربة ضوء اصفر على طريق يبدو وعراً شق خلال شجيرات ونباتات قصيرة يبدو انها انتهت في متسع عظيم من ظلام انتشر امامهم وحولهم . وهبت ريح ذات صوت غريب وحشي واطئ وسريع .

وقالت ميري وقد التفتت الى زميلتها : انه – انه ليس البحر ، أليس كذلك ؟

فأجابت السيدة ميدلوك قائلة : لا ليس بحراً ، ولاحقولاً ولا جبالاً ، بل هو اميال واميال من البراري ولاينمو فيها الا نباتات الخلنج والرتم والوزّال ، ولايعيش فيها سوى الخيول والاغنام البرية .

فقالت ميري : كأنه البحر لو ان فيه ماء . يبدو كالبحر الآن .

وقالت السيدة ميدلوك : هذا صوت الريح تهب في الاحراش . وهو مكان مقفر موحش بالنسبة اليّ بالرغم من وجود كثيرين يحبونه وخصوصاً عندما تزهر النباتات .

وواصلت العربة سيرها في الظلام ، وبالرغم من انقطاع المطر ، واصلت الريح هبوبها ، وعزيفها واصواتها الغريبة . وكان يعلو ويهبط ، واجتازت العربة ، مرات عديدة ، قناطر

صغيرة يجري الماء تحتها سريعاً هادراً . وشعرت ميري كأن الرحلة لن تنتهي ، وان المرج الواسع الكئيب هو رقعة فسيحة من بحر مظلم كانت تخترقه فوق شريط من ارض يابسة .

وقالت في نفسها : «انا لااحب ذلك ، لااحب ذلك .» ثم زمت شفتيها الرقيقتين بقوة اشد .

وارتقت الخيول طريقاً على تلال فلمحت ضوءً . ورأته السيدة ميدلوك في الوقت نفسه وتنفست الصعداء . قالت :

– انا مسرورة برؤية ذلك الضوء المتلألئ . انه نور نافذة المستجم الريفي . سوف نتناول كوباً من شاي بعد قليل ، على اي حال .

ساروا قليلاً ، كما قالت ، فقد مرت العربة خلال ابواب المتنزه وقطعت ميلين من شارع مشجر ، كادت الاشجار تلتقي في الاعلى وبدا كأنهم كانوا سائرين تحت طاق مظلم طويل .

وخرجوا من الطاق الى فسحة خالية وتوقفوا امام بيت طويل جداً ولكنه واطئ البنيان ، يبدو انه يدور حول فناء حجري . ظنت ميري باديئ ذي بدء انه لاتوجد اضواء في الشبابيك قط ، غير انها عندما نزلت من العربة رأت ان احدى الغرف في احد أركان الطابق الاعلى فيها نور خافت .

كان باب الدخول عظيم مصنوع من الواح خشبية كبيرة من البلوط مرصع بمسامير حديد ضخمة ، وقد احكم سده بمزلاج عظيم من حديد . ويفتح الى بهو كبير جداً ، معتم الانارة بحيث جعلت ميري غير راغبة في النظر الى وجوه الصور المعلقة على

الجدران والتماثيل في ملابسها الحربية . وعندما وقفت على الارض الحجرية بدت كأنها شيئ اسود ضئيل الشكل . وشعرت انها ضئيلة ضائعة غريبة الشكل كما بدت .

وقف رجل نحيل ، مسن ، انيق قرب الخادم الذي فتح الباب لهم وقال بصوت اجش : خذيها الى غرفتها ، فانه لايريد ان يراها . سيذهب الى لندن في الصباح .

فاجابت السيدة ميدلوك : حسن ... ياسيد بيجر سأقوم بذلك خير قيام كما هو متوقع مني .

فقال لها السيد بيجر : وما هو متوقع منك يا سيدة ميدلوك هو تتأكدي جيداً ان لاتقلق راحته ولايعكر صفوه وان لايرى ما لايود رؤيته .

ثم اقتيدت ميري لينوكس لتصعد سلماً عريضاً يؤدي الى ممر طويل في نهايته بضع درجات ثم ممر آخر وآخر حتى وصلتا الى باب ووجدت ميري نفسها في غرفة فيها نار وعشاء على منضدة .

ثم خاطبتها السيدة ميدلوك بلهجة جافة تعوزها الكياسة :

– ها انت ذي هنا ! حيث ستعيشين في هذه الغرفة والتي تجاورها

– ويجب ان تظلي فيهما ولاتبرحي مكانك تذكري هذا جيداً !

وصلت ميري الى ميسيلثوايت في مثل هذه الحال ، ولعلها لم تشعر طوال حياتها بالعناد .وحب المعارضة كما شعرت الآن .

٤ ـ مارثا

فتحت ميري عينيها في الصباح لان خادمة شابة جاءت الى غرفتها لتشعل النار وكانت جاثية على ركبتيها على البساط امام الموقد وهي تحرك الجمرات محدثة ضجة. بقيت ميري مستلقية وراحت تراقبها لحظات معدودات ثم اخذت تتطلع حولها في الغرفة. لم تر في حياتها غرفة مثل هذه الغرفة، واعتقدت انها محاطة بجو من الغرابة والكآبة. وكانت الجدران مغطاة بسجوف مطرز عليها منظر غابة. فيها اناس، بملابس رائعة، تحت الاشجار. وبدت على بعد ابراج قلعة. وثمة صيادون وخيول وكلاب وسيدات. وشعرت ميري كأنها في الغابة معهم.

ومن شباك عميق استطاعت ان ترى رقعة من الارض عظيمة، مرتفعة فيها اشجار ، وبدت كأنها بحر ارجواني بلا نهاية.

وقالت وهي تشير خارج الشباك: ماذلك؟

ونهضت مارثا على قدميها ونظرت واشارت ايضاً وقالت:

– ذلك الذي هناك؟

– نعم.

– هذه هي المروج.

وابتسمت ابتسامة عريضة ثم اردفت سائلة:

– هل تعجبك؟

فاجابت ميري: كلا، انا اكرهها.

فقالت مارثا وهي تعود الى الموقد: ذلك لانك لم تعتادي عليها. لعلك تظنين انها واسعة جداً وجرداء الآن. ولكنك ستحبينها.

فسألتها ميري: وهل تحبينها انت؟

اجابت مارثا فرحة وهي تنظف الحاجز المشبك امام النار قائلة: نعم احبها. احبها لانها ليست جرداء بل مغطاة باشياء نامية ذات شذا طيب، وهي جميلة جداً في الربيع والصيف عند تفتح زهور الخلنج والرتم والوزال. يفوح منها عطر العسل، ويكثر الهواء العذب – وتبدو السماء عالية جداً، وتسمع اغاريد القبرات وطنين النحل. انا لااود العيش بعيداً عن المروج لاي سبب – من الاسباب.

اصغت ميري اليها وبدت على سيمائها الحيرة والوقار. لم يكن الخدم الذين اعتادت عليهم في الهند مثل هذه الخادمة ابداً. كن هناك خانعات متذللات ولم يتجرأن على الحديث مع اسيادهن



كانداد لهن. كن يؤدين السلام ويدعنهم «حماة الفقراء» وما شابه ذلك من اسماء. كان الخدم الهنود يتلقون الاوامر للقيام بالاعمال، ولايطلب منهم ذلك. ولم يكن من المعتاد قول «رجاء» و «شكراً». وكانت ميري دائماً تصفع خادمتها الهندية في وجهها عندما تغضب. وتساءلت في نفسها ماذا ستفعل هذه الفتاة اذا ما صفعت في وجهها. كانت ممتلئة، متوردة، طلقة المحيا، وتتميز بشخصية قوية جعلت الآنسة ميري تتساءل في نفسها فيما اذا لن ترد الصفعة اذا ما كان الشخص الذي صفعها مجرد فتاة صغيرة.

وقالت لها وهي على وسادتها بلهجة متعجرفة: انت خادمة غريبة الاطوار.

وجلست مارثا وبيدها فرشاة التنظيف وضحكت دون ان يبدو عليها انها خرجت عن طورها. وقالت:

– اني اعرف ذلك. لو كان في البيت سيدة كبيرة، لما كنت حتى واحدة من الخدم الصغار. ولعلي صرت خادمة في حجرة غسل الاواني والصحون، ولن يسمح لي بالصعود الى الطابق الثاني. وهذا بيت غريب بالرغم من كونه فخماً، ويبدو انه لايوجد سيد او سيدة عدا السيد بيجر والسيدة ميدلوك. اما السيد كريفن فانه لايريد ان يزعجه احد عن اي شيئ عندما يكون هنا، ولكنه يخرج في اغلب الاحيان. السيدة ميدلوك هي التي اعطتني هذه الوظيفة من لطفها. وقالت لي انها لم تكن لتفعل ذلك لو ان ميسيلثوايت كان مثل بقية البيوت الكبيرة الاخرى.

فسألتها ميري وهي ماتزال في حالتها المتغطرسة: هل ستكونين خادمتي.

واخذت مارثا تمسح الحاجز المشبك مرة اخرى. وقالت بحدة: انا خادمة السيدة ميدلوك، وهي خادمة السيد كريفن — ولكن علي ان اقوم بالعمل هنا وألبي شيئاً من طلباتك. ولكنك لاتحتاجين كثيراً.

فسألتها ميري: ومن سيلبسني؟

جلست مارثا القرفصاء مرة اخرى وحملقت فيها وتكلمت بلهجة يوركشير في دهشة قائلة. الا تستطيعين ان تلبسي روحك؟

فقالت ميري: ماذا تقصدين؟ انا لاافهم لغتك.

وقالت مارثا: آه، نسيت. اخبرتني السيدة ميدلوك ان انتبه لذلك وإلا فلن تفهمي ما أقول. اقصد انك لاتستطيعين ارتداء ملابسك بنفسك؟

فاجابت ميري ساخطة تماماً: لم افعل ذلك طوال حياتي. مربيتي تلبسني طبعاً.

وقالت مارثا وهي غير مدركة ابداً انها كانت مجانبة للحكمة: حسناً، لقد حان الوقت لك ان تتعلمي. فلا يمكن ان تظلي صغيرة. سينفعك ذلك ان تهتمي بنفسك قليلاً. تقول امي دائماً انها لاتستطيع ان تفهم لماذا لايكف ابناء العظماء عن ان يكونوا حمقى — لهم مربيات يغسلنهم ويلبسنهم ويخرجن بهم للنزهة كأنهم جراء!

فقالت الانسة ميري مزدرية ـاذ لم تستطع ان تتحمل كلامها: الامر مختلف في الهند.

ولكن مارثا لم تخضع فتسكت بل اجابت بشيء من التعاطف قائلة: لعل ذلك لكثرة السود وقلة البيض. وعندما سمعت بانك قادمة من الهند ظننتك واحدة منهم ايضاً.

. فجلست ميري في سريرها غاضبة. وقالت:

– ماذا! ماذا! اظننت انني واحدة منهم. يابنت الخنزير!

حدقت مارثا فيها وبدت مهتاجة وقالت:

– لماذا تشتمين؟ لاحاجة الى الغضب. ليست هذه الطريقة الصحيحة بالنسبة الى شابة. انا لم اقل شيئاً ضد السود. عندما تقرأين عنهم في كراريس الدعاية تجدين انهم متدنيون دائماً. تقرئين دائماً ان الاسود انسان واخ. انا لم ار اسود ابداً، وسررت كثيراً عندما ظننت اني سأرى واحداً عن قرب. وعندما اتيت لاشعال النار في غرفتك هذا الصباح تسللت الى سريرك وسحبت الغطاء بلطف لكي انظر اليك. فوجدتك، لخيبتي، لست اكثر سواداً مني، بل شاحبة.

ولم تحاول ميري حتى كبح غضبها واهانتها فقالت:

– ظننت انني واحدة منهم! كيف تتجرئين؟ انت لاتعرفين اي شيء عنهم – انهم خدم عليهم القاء السلام عليك. انت لاتعرفين شيئاً عن الهند. انت لاتعرفين شيئاً عن اي شيء!

كانت شديدة الغضب وشعرت بالاحباط امام نظرات

البنت الساذجة، وشعرت فجأة بانها وحيدة وبعيدة عن اي شيْ تفهمه ويفهمها، فالقت وجهها على الوسادة وانخرطت في بكاء شديد وصارت تنشج بافراط عنيف فخشيت مارثا الطيبة القلب واسفت عليها. وذهبت الى السرير وانحنت فوقها. وتوسلت اليها قائلة:

– اي! يجب ان لاتبكي هكذا! اجل يجب الا تفعلي ذلك! ما كنت ادري انك ستغتاظين. انا لااعرف اي شيْ – كما قلتِ. فارجو عفوك، ايتها الآنسة. ارجو ان تكفي عن البكاء.

كان في كلامها شيْ من الراحة والود الحقيقي ولاسلوبها الذي لايعرف الاستسلام تأثير في ميري. وكفت تدريجياً عن البكاء وخلدت الى الراحة ، فبدا الارتياح على مارثا. قالت:

– لقد حان الوقت لك ان تنهضي الآن. قالت السيدة ميدلوك يجب ان احمل افطارك وشايك وغداءك الى الغرفة المجاورة الى هذه الغرفة، التي هيئت من اجل راحتك ورعايتك. وسوف اساعدك في ملابسك اذا ما خرجت من فراشك، واذا كانت ازرار ثوبك من الخلف ولاتستطيعين تزريرها بنفسك.

وعندما قررت ميري اخيراً ان تنهض، رأت الملابس التي اخرجتها مارثا من الخزانة لم تكن الملابس التي كانت تلبسها عندما جاءت في الليلة الماضية الى هذا المكان مع السيدة ميدلوك. فقالت:

– هذه ليست ملابسي. ملابسي سود.

تفحصت السترة الصوف البيضاء السميكة والثوب ايضاً واضافت قائلة بصوت هادئ ينم عن الاستحسان:

- هذه اجمل من ملابسي.

فاجابت مارثا: هذه هي الملابس التي يجب أن ترتديها. امر السيد كريفن السيدة ميدلوك ان تجلبها من لندن. فقد قال: انا لا اريد طفلة تتجول هنا في ملابس سود مثل روح تائهة. وقال ايضاً: ان ذلك يجعل المكان اشد حزناً مما هو عليه. البسيها الواناً. وقالت امي انها فهمت ما يقصد. امي تفهم دائماً ما يقصد الناس. وهي نفسها لاتحب السواد.

فقالت ميري: انا اكره الاشياء السود.

وكانت عملية اللبس قد علمتها شيئاً. فقد كانت مارثا تزرر ثياب اخواتها واخوتها ولكنها لم تر طفلة تقف ساكنة وتنتظر شخصاً آخر ليقوم بعمل الاشياء كأنها لاتمتلك يدين ولارجلين.

قالت مارثا عندما مدت ميري رجلها بهدوء: لماذا لاتلبسين حذاءك بنفسك؟

فردت عليها ميري قائلة: كانت مربيتي تلبسني حسب التقاليد.

كانت تكرر في اغلب الاحيان عبارة «حسب التقاليد». ولم يكن من التقاليد ان تقوم ميري بعمل اي شيئ بل تظل واقفة لكي تجري عملية الباسها ثيابها مثل دمية، ولكنها قبل ان تتأهب للافطار بدأت تشك ان حياتها في ميسيلثوايت مينر ستنتهي

بتعليمها عدداً من الاشياء الجديدة بالنسبة اليها - كلبس حذائها وجواربها والتقاط الاشياء التي تسقط منها. لو ان مارثا كانت خادمة حسنة التدريب لكانت اكثر احتراماً وامتثالاً وعرفت ان من واجبها تمشيط الشعر وتزرير الاحذية والتقاط الاشياء ووضعها جانباً ولكنها لم تكن مدربة، نشأت وترعرعت في كوخ من اكواخ المروج. ولها حشد من الاخوة والاخوات الذين لم يحلموا بعمل شيئ سوى الاهتمام بانفسهم ومن هم اصغر منهم من الرضع او ممن تعلموا كيف يدرجون او يمشون ويقعون على الاشياء.

لو كانت ميري طفلة تحب المرح لضحكت على استعداد مارثا للحديث، ولكن ميري كانت تصغي اليها ببرود وتتساءل في نفسها وتتعجب عن حريتها في سلوكها. لم تكن ميري في بداية الامر تهتم ابداً، ولكنها بدأت تلاحظ ماذا كانت تقول الفتاة كلما صارت تثرثر بطريقتها الطبيعية الدمثة.

قالت مارثا: اي لو رأيتهم جميعاً. نحن اثنا عشر. ولا يحصل ابي الا على ستة عشر شلناً في الاسبوع، فتلجأ امي الى طبخ عصيدة لهم جميعاً. ويذهبون الى المروج للعب طوال النهار، وتقول امي ان هواء المروج يسمنهم. وتقول نعتقد انهم يأكلون العشب مثل الخيول. اخونا ديكون، الذي عمره اثنتا عشرة سنة، عنده حصان صغير يقول انه حصانه.

فسألت ميري: اين حصل عليه.

– وجده في المروج مع امه عندما كان صغيراً وبدأ يصادقه ويعطيه قليلاً من الخبز او يقدم له العشب الطري. وصار يحبه ويتبعه ويدعه يركب على ظهره. ديكون صبي لطيف رحيم تحبه الحيوانات.

لم تجن ميري يوماً اي حيوان اليف خاص بها وكانت تفكر دائماً انها لابد ان يكون لها احد الحيوانات الذي تحبه. وبدأت تشعر بشيءٍ من الاهتمام بديكون، وبما انها لم تكن تهتم باحد سوى نفسها، فان ذلك بدء ظهور عاطفة صحية. وعندما دخلت الغرفة الاخرى المخصصة لراحتها وجدت انها تشبه الغرفة التي نامت فيها. لم تكن غرفة اطفال وانما غرفة كبار ذات صور عتيقة على الجدران وكراسٍ من البلوط الثقيل القديم، ومائدة عامرة بافطار جيد شهي وضعت في وسط الغرفة. ولكن شهيتها كانت دائماً قليلة ونظرت بشيءٍ اكثر من اللامبالاة الى الصحن الاول الذي وضعته مارثا امامها.

وقالت : انا لا اريدها .

فقالت مارثا متعجبة بشيءٍ كثير من الريبة: لاتحبين عصيدتك!

– لا.

– انت لاتعرفين كم هي طيبة. ضعي عليها قليلاً من دبس السكر او السكر نفسه.

فكررت ميري قولها: لااريدها.

فقالت مارثا: اي! انا لاأتحمل ان ارى طعاماً جيداً يلقى في القمامة لو كان اطفالنا على هذه المائدة لنظفوها في خمس دقائق.

فسألت ميري ببرود: لماذا؟

فكررت مارثا بعدها: لماذا! لانهم نادراً مايجدون معدتهم مليئة ويشبعون. انهم جائعون مثل صغار الصقور والثعالب.

فقالت ميري بشيئ من اللامبالاة التي تدل على جهلها: انا لاأعرف ما هو الجوع.

بدت مارثا ساخطة. فقالت بصراحة:

– حسناً، سينفعك ان تجربيه. ذلك امر واضح. انا لااستطيع تحمل اناس يجلسون ويحدقون بالخبز واللحم الجيدين . يا الهي! اني اتمنى لو ان ديكون وفل وجين والاخرين يحصلون على ما موجود هنا .

فاقترحت ميري عليها قائلة: لماذا لاتأخذينه لهم؟

اجابت مارثا بجرأة وقوة: انه ليس لي. واليوم ليس يوم عطلتي. يوم عطلتي مرة واحدة في الشهر مثل الآخرين. اذهب فيه الى بيتنا لانظف بدل امي واعطيها راحة ذلك اليوم.

شربت ميري شيئاً من الشاي واكلت قليلاً من الخبز المحمص وشيئاً من المربى.

وقالت مارثا: تدثري جيداً وتدفئي واخرجي لتلعبي. سينفعك ذلك ويجعل معدتك تتقبل الطعام.

ذهبت ميري الى الشباك. رأت حدائق وممرات واشجاراً

كبيرة ولكن كل شيء كان يبدو كئيباً شتائياً.

– اخرج؟ لماذا اخرج في يوم مثل هذا اليوم.

– حسناً، اذا لم تخرجي فستبقين في الداخل، وماذا ستفعلين؟

نظرت ميري حولها. لم يكن ثمة ما تقوم به. وعندما هيأت السيدة ميدلوك الغرفة الثانية لها، لم تفكر بتسليتها وتزجية فراغها. لعل من الافضل الخروج لرؤية الحدائق والتنزه فيها.

فسألتها ميري: ومن سيخرج معي؟

حدقت مارثا فيها واجابتها:

– ستخرجين وحدك. لابد ان تتعلمي ان تلعبي مثل الآخرين الذين ليس لهم اخوة واخوات. اخونا ديكون يخرج الى المروج وحده ويظل يلعب ساعات طويلة بهذه الطريقة تصادق مع الحصان. وعنده ايضاً في المروج خروف يعرفه، وتأتي الطيور لتأكل من يده. مهما كان الطعام قليلاً فانه يوفر شيئاً من الخبز ليلاطف به الحيوانات الاليفة ويسترضيها.

جعل الكلام على ديكون ميري تقرر ان تخرج مع انها لم تكن مطلعة على ذلك. هناك طيور في الخارج، بالرغم من عدم وجود الخيول او الاغنام. ستكون مختلفة عن طيور الهند ولعل النظر اليها سيسليها.

واحضرت مارثا معطفها وقبعتها وحذاء طويلاً متيناً ودلتها على الطريق الى الطابق الاسفل. وقالت لها وهي تشير الى باب في سياج من شجيرات متشابكة: – في الصيف توجد ازهار

كثيرة ولكنها غير مزهرة الآن .

وتلكأت لحظة قبل ان تضيف قولها :— احدى الحدائق مغلقة ، ولم يدخل فيها احد منذ عشر سنوات .

فسألت ميري على الرغم من ارادتها : «لماذا؟» . هذا باب آخر يضاف الى المئة في هذا البيت الغريب .— اغلقها السيد كريفن عندما توفيت زوجته فجأة . ولم يدع احداً يدخلها . كانت حديقتها . غلق الباب وحفر حفرة ودفن المفتاح . هذا جرس السيدة ميدلوك يدق — يجب ان اركض اليها .

بعد ان ذهبت مارثا سارت ميري في الممشى المؤدي الى الباب في سياج النباتات المتشابكة . ولم يكن لها مفر من التفكير بالحديقة التي لم يدخلها احد منذ عشر سنوات . تساءلت في نفسها عن شكلها وفيما اذا كانت فيها زهور ما تزال نامية . وعندما مرت من الباب في السياج النباتي وجدت نفسها في حدائق عظيمة ذات مساحات واسعة من الثيل ومماشٍ ملتوية ذات حافات مجزوزة هناك اشجار والواح من الزهور ، وشجيرات دائمة الخضرة مقصوصة في اشكال غريبة ، وبركة واسعة فيها نافورة قديمة في وسطها . ولكن الواح الزهور كانت خالية في الشتاء والنافورة غير مشتغلة . لم تكن هذه هي الحديقة المقفلة . كيف يمكن ان تغلق الحديقة؟ يمكنك دائماً ان تدخل الحديقة .

كانت تفكر بذلك عندما رأت في النهاية الممر الذي كانت

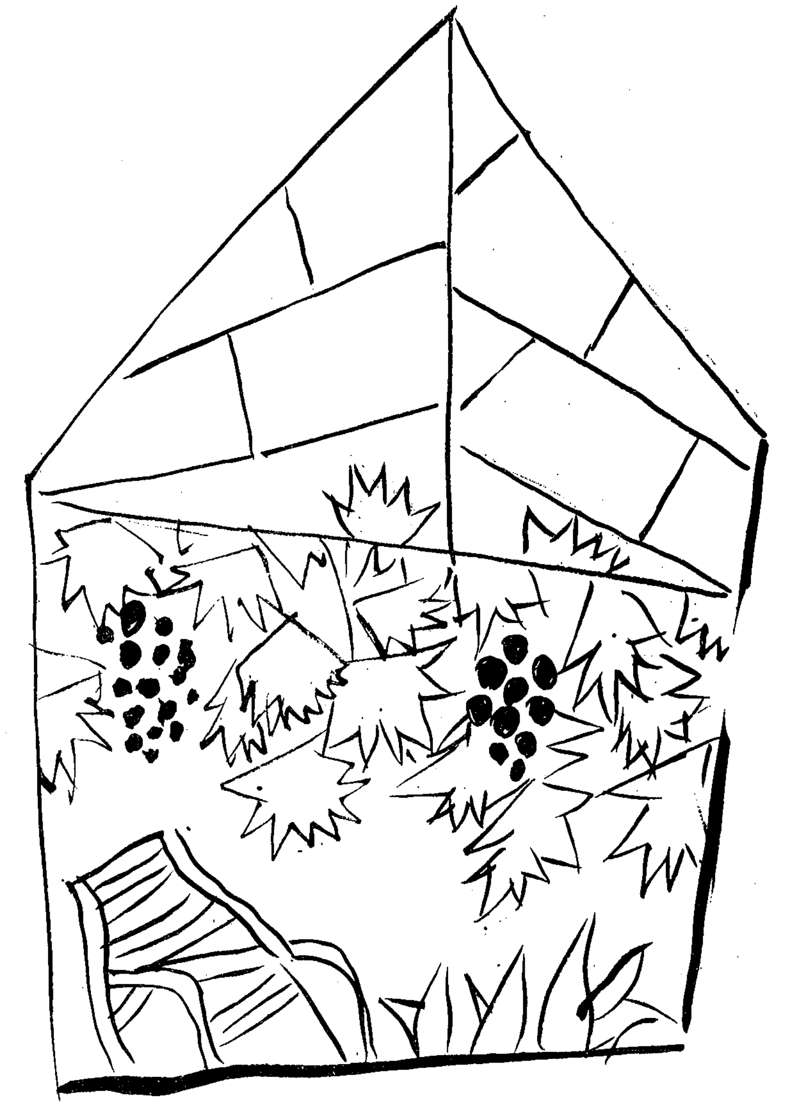
تتمشى عليه جداراً طويلاً ، تنمو عليه نباتات اللبلاب . لم تكن معتادة على الحياة في انكلترة لتعرف انها وصلت حدائق المطبخ حيث تنمو الخضراوات واشجار الفاكهة . اتجهت نحو الجدار ووجدت باباً أخضر في نباتات اللبلاب . كان الباب مفتوحاً . اذن هذه ليست الحديقة المقفلة كما هو واضح ، فدخلتها ووجدت انها حديقة ذات اسيجة تحيط بها وانها واحدة من عدة حدائق مسيجة تؤدي كل منها الى الاخرى . ورأت باباً اخضر آخر مفتوحاً ، يكشف عن شجيرات وممرات بين الواح تحتوي على خضراوات شتائية .

اما اشجار الفاكهة فكانت مصفوفة لدى الجدار وكان في بعض الالواح بيوت زجاجية . كان المكان خالياً قبيحاً ، وراحت ميري تفكر وهي واقفة تتطلع حولها . لعله سيكون اجمل في الصيف عندما تصبح الاشياء خضراء . ولكن لايوجد اي شئ جميل الآن . وفجأة خرج رجل عجوز يحمل مسحاة على كتفه من الباب المؤدي الى الحديقة الثانية . جفل الرجل عندما رأى ميري ، ثم لمس قبعته احتراماً لها . كان وجهه عجوزاً ، ولم يبدُ عليه انه كان مسروراً برؤيتها ، وكانت هي ايضاً غير مسرورة بحديقته وبدت غير مسرورةبرؤيته .

وسألته : ما هذا المكان؟

فاجابها : احدى حدائق المطبخ .

وسألته وهي تشير الى الباب الاخضر : وما ذلك؟



—واحدة اخرى قريبة . واخرى في الجهة الاخرى من السياج ، وهنالك البستان في الطرف الآخر هناك .
فسألته ميري : هل يمكن ان ادخل فيها؟
— اذا شئت ذلك ، ولكن لا يوجد فيها شيئ تتفرجين عليه .
ولم تجب ميري بل سارت في الممر ودخلت من الباب الاخضر الثاني . ووجدت هناك اسيجة اخرى وخضراوات شتائية وبيوتاً زجاجية ، ولكن كان في السياج الثاني باب اخضر اخر ولم يكن ذلك الباب مفتوحاً . لعله كان يودي الى الحديقة التي لم يرها احد منذ عشر سنوات . وبما انها لم تكن فتاة جبانة وكانت تفعل ما تريد ، فانها ذهبت الى الباب الاخضر وادارت المقبض . كانت تأمل ان لا يفتح الباب لانها ارادت ان تتاكد انها وجدت الحديقة السرية الغامضة ، ولكن الباب فتح بسهولة ودخلت ووجدت نفسها في البستان . كان البستان محاطاً باسيجة ايضاً والاشجار تصطف ازاءها ، وكانت اشجار فاكهة جرداء تنمو في عشب الشتاء البني اللون ولكنها لم ترا اي باب اخضر في اي مكان . بحثت ميري عنه ، وعندما وصلت الى الطرف الأقصى من الحديقة لاحظت ان السياج لم ينته بانتهاء البستان وانما امتد وراءه كأنه يحيط مكاناً في الجهة الاخرى . استطاعت ان ترى قمم الاشجار فوق السياج وعندما وقفت رأت طيراً صدره احمر براق جاثم على اعلى غصن من تلك الاشجار وسرعان ما شرع يغرد اغرودة شتائية كأنه لمحها وكان

يناديها ويدعوها اليه .

توقفت واصغت اليه فمنحها صوته المرح الودود الرقيق شعوراً بالحبور – وبالرغم من كونها طفلة صغيرة لا تنسجم مع احد وبالرغم من البيت الكبير المغلق والمروج الواسعة الجرداء والحدائق الكبيرة العارمة ، فأن هذا الطائر جعلها تشعر كأنه لم يبق في هذه الدنيا سواها . واذا كانت طفلة عاطفية ، معتادة على حب الناس لها ، لا تفطر قلبها ، ولكنها مع ذلك فأن «الانسة ميري ليست كالغير» التي كانت تشعر بالوحدة ، فان الطائر الصغير المشرق الصدر جلب وجهها الكئيب الصغير شيئاً يشبه الابتسامة . اصغت اليه حتى طار مبتعداً . لم يكن يشبه اي طائر هندي ، واحبته وتساءلت في نفسها هل ستراه مرة اخرى . لعله يعيش في الحديقة السرية ويعرف كل شيء عنها .

لعلها فكرت كثيراً بالحديقة المهجورة لانها لم تكن تعمل اي شيء مهما كان . فكانت مفعمة بالفضول وحب الاستطلاع على الحديقة وارادت ان ترى ما هو شكلها . لماذا دفن السيد كريفن المفتاح؟ اذا كان قد احب زوجته كثيراً فلماذا يكره حديقتها؟ تساءلت هل ستراه في يوم من الايام ، ولكنها ادركت انها اذا ما راته فانها لن تحبه ، وانه لن يحبها وانها ستقف وتحدق فيه ولا تتفوه بشيء ، بالرغم من حاجتها الى سؤاله لماذا فعل ذلك الشيء الغريب .

فكرت في نفسها : الناس لا يحبوني وانا لا احب الناس ولا

استطيع ان اتحدث مثل اطفال كروفورد . كانو يتكلمون دائماً ويضحكون ويصخبون .

فكرت بابي الحناء الطائر الصغير ، وبالطريقة التي كان يغرد بها وعندما تذكرت قمة الشجرة التي كان يجثم عليها توقفت في الممر فجأة ، وقالت : اعتقد ان الشجرة في الحديقة السرية – بل انا متأكدة .هناك سور حول ذلك المكان ولكن لم يكن ثمة باب .

وعادت الى حديقة المطبخ الاولى التي دخلتها ، ووجدت الرجل العجوز يحفر هناك . ذهبت ووقفت الى جانبه وتفرجت عليه لحظات بطريقتها الباردة . ولم ينتبه اليها فتكلمت الية في نهاية الامر .

وقالت :ذهبت الى الحدائق الاخرى .

فاجابها بغظاظة : لا يوجد ما يمنعك من ذلك .

– وذهبت الى البستان

فاجاب : لا يوجد كلب لدى الباب ليعضك .

فقالت ميري : ولم يكن ثمة باب الى الحديقة الاخرى .– اي حديقة

قال ذلك بصوت خشن وتوقف عن الحفر لحظة .

فاجابت الانسة ميري : الحديقة التي في الطرف الاخر من السور . هناك اشجار . رأيت قممها . وكان طير احمر الصدر جالس على احدها يغرد .

ودهشت البنت فقد تغيرت ملامح العجوز المكفهرة التي لوحتها برودة الشتاء . وعلت ابتسامة على وجهه ببطء وبدا ذلك الفلاح رجلاً مختلفاً . وجعلها ذلك تفكر : ما اجمل الانسان عندما يتبسم . ولم تفكر بذلك قبل هذا .

والتفت نحو البستان واخذ يصفر صفيراً رقيقاً واطئاً . ولم تستطع ان تفهم كيف يستطيع مثل هذا الرجل الغظ ان يخرج مثل هذا الصوت البديع المغري .

حدث في اللحظة التالية شيئ عجيب . سمعت حركة طيران خفيفة في الهواء – جاء ذلك الطير ذو الصدر الاحمر اليهما ، وحط على كتلة التراب الكبيرة عند قدمي الفلاح .– ها هو ذا .

وقهقه العجوز ثم تكلم الى الطير كمن يتحدث الى طفل صغير . وقال : اين كنت ايها الشحاذ الصغير الوقح . لم ارك اليوم . هل بدأت تغريدك مبكراً هذا الموسم؟ هذا قبل الاوان .

وامال الطائر راسه الصغير الى أحد الجانبين وتطلع الى الاعلى نحوه بعينه اللامعة الرقيقة التي تشبه قطرة ندى سوداء . كان يبدو اليفاً جداً ولم يكن خائفاً قط . وقفز ونقر الارض بسرعة بحثاً عن حبوب وحشرات . ومنح ميري شعوراً غريباً لانه كان جميلاً جداً وبهيجاً ويبدو كالانسان . كان جسمه صغيراً ممتلئاً ومنقاره رقيقا .. وساقاه رشيقتين .

وسألت ميري بصوت يكاد يكون همساً : هل ياتي دائما عندما تدعوه .– نعم ياتي . اعرفه منذ ان كان فرخاً .يأتي من

العش في الحديقة الاخرى . وعندما طار اول مرة فوق السور كان ضعيفاً جداً فلم يستطع ان يعود الى العش عدّة أيام، وأصبحنا اصدقاء. وعندما طار فوق السور كانت بقية الفراخ قد ذهبت فظل وحيداً وعاد اليّ .

فسألته ميري : اي نوع من الطيور هو؟ - الا تعرفين؟ انه ابو الحناء الاحمر الصدر انه اكثر الطيور محبة للصداقة وحب الاستطلاع . انه يشبه الكلاب في ودادها وصداقتها للانسان - اذا عرفت كيف تتصرفين معها . انظري اليه كيف ينقر وينظر الينا بين حين وآخر . انه يعرف اننا نتحدث عنه .

من اغرب الاشياء في هذه الدنيا ان ترى الرجل العجوز وهو ينظر الى الطائر الصغير الممتلئ الاحمر الصدر كأنه كان فخوراً ومولعاً به في الوقت نفسه .

وقهقه قائلاً : انه مغرور ، معجب بنفسه . يحب ان يسمع الناس يتحدثون عنه . ومن الغرابة انه لا يشبه احدا في فضوله وتدخله في ما لا يعنيه . فهو يأتي دائماً ليرى ماذا ازرع . وهو يعرف كل الاشياء التي لا يكلف السيد كريفن نفسه عناء معرفتها . انه رئيس الفلاحين .

وصار ابو الحناء يقفز هنا وهناك وينقر الارض بين حين وآخر، يتوقف وينظر اليها قليلاً..واعتقدت ميري أن عينه التي تشبه قطرة ندى سوداء تنظر اليها بشيءٍ كثير من الفضول وحب الاستطلاع بدا حقاً كأنه يبحث عن كل شيءٍ بخصوصها . وزاد

الشعور الغريب في قلبها .

وسألت : الى اين طارت بقية الفراخ؟- لا يعرف احد . الكبار طردتها من العش وجعلتها تطير وتفرقت قبل ان تعلمي متى . اما هذا فهو طير عارف ، ويعرف انه وحيد .

وتقدمت الانسة ميري خطوة نحو ابي الحناء ونظرت اليه بامعان .وقالت : انا وحيدة .

لم تكن تعرف قبل هذا ان هذا كان احد الاشياء التي جعلتها تشعر انها مشاكسة ، نزقة . بدت كأنها اكتشفت ذلك عندما نظر اليها الطائر ونظرت اليه .

ودفع الفلاح العجوز قبعته الى الخلف وراسه الاصلع وحدق فيها لحظة . وسألها : هل انت البنت الصغيرة من الهند . فاومأت ميري برأسها بالايجاب .

وقال : اذن لا عجب ان تكوني وحيدة وسوف تشعرين بالوحدة اكثر من ذي قبل .

واستأنف الحفر مرة اخرى وهو يغرس مسحاته عميقاً في تربة الحديقة السوداء ، بينما كان ابو الحناء يقفز هنا وهناك منشغلاً بالبحث .

واستفسرت ميري : ما اسمك؟

فوقف ليجيب عليها . وقال :- «بين وبذر ستاف» ثم اضاف قوله مصحوباً بضحكة فظة : انا وحيد ايضاً الا عندما يكون معي .

وهز ابهامه مشيراً باتجاه ابي الحناء- انه الصديق الوحيد

الذي عندي . فقالت ميري : اما انا فليس عندي اصدقاء ابداً . ولم يكن عندي. مربيتي لم تحبني ولم العب مع احد قط .

ومن عادة اهل يوركشير ان يقولوا ما يفكرون به بصراحة واضحة وكان ويذر ستاف من اهالي مروج يوركشير.

قال : انا وانت متشابهان قليلاً . نسجنا من قماش واحد . وكلانا ليس وسيما ، ونفوسنا فظة مثل مظهرنا . ومزاجنا الخشن متشابه . بكل تأكيد .

كان كلامه واضحاً جداً لم تسمع ميري لينوكس بمثل صدقه عنها في حياتها قط . الخدم الهنود يؤدون التحية ويلبون طلباتك مهما فعلت . لم تفكر بمظهرها قط ، ولكنها تساءلت في نفسها فيما اذا لم تكن جذابة مثل بين ويذر ستاف وتساءلت ايضاً فيما اذا كانت فظة كما يبدو هو قبل مجيئ ابي الحناء وبدأت تتساءل فعلاً فيما اذا كانت سيئة الطباع . وشعرت بعدم الراحة .

وسرعان ما سمعت حفيفاً قربها ، فالتفتت . كانت تقف على مقربة اقدام قليلة من شجرة تفاح صغيرة . طار ابو الحناء على احد اغصانها وانطلق ينشد اغرودة صغيرة . فضحك بين ويذر ستاف بكل كيانه .

وسألت ميري : لماذا يفعل ذلك؟

فرد عليها بين قائلاً : قرر ان يعقد صداقة معك . اشنقيني اذا لم يكن قد احبك .

– احبني؟ قالت ميري وتحركة نحو الشجرة الصغيرة بلطف

وحدقت الى الاعلى .

وقالت تخاطب ابا الحناء: «هل تصادقني؟» كأنها تكلم انساناً . «هل توافق؟» لم تقل ذلك بصوت حاد او بلهجة متعجرفة ، بل بنغمة رقيقة متلهفة مستلطفة دهش بين ويذر ستاف كما دهشت هي عندما سمعته يصفر .

وهتف قائلاً لقد قلت ذلك بلهجة لطيفة وانسانية كأنك طفلة حقيقية بدلاً من ان تكوني امرأة عجوزاً حادة الطبع . قلت ذلك كما ينطقها ديكون ويتحدث الى المخلوقات البرية في المروج .

فسألته ميري وقد التفتت اليه بسرعة : هل تعرف ديكون .– يعرفه الجميع . ديكون يتجول في كل مكان . حتى نباتات العليق والخلنج تعرفه . وانا متأكد ان الثعالب تريه اماكن جرائها ، ولا تخفي القبرات اعشاشها عنه .

واحبت ميري ان تسأل اسئلة اخرى وكانت متلهفة لتعرف اشياء اخرى عن ديكون كما كانت في الحديقة المهجورة . ولكن طائر ابي الحناء انهى اغرودته في تلك اللحظة وخفق بجناحيه ونشرهما وطار بعيداً . ادى الزيارة ، وقام بالاشياء الاخرى وتنظره امور غيرها .

وهتفت ميري وهي تراقبه : طار فوق السور . ذهب الى البستان وعبر السور الآخر الى الحديقة التي ليس لها باب !

فقال بين العجوز : انه يعيش هناك . فقس من البيضة هناك . اذا كان يغرد فانه يغازل سيدة من الطيور ابي الحناء التي

تعيش بين الورودهناك .

فقالت ميري : ورود . وهل توجد نباتات ورود هناك .
واخذ بين ويذر ستاف مسحاته مرة واستأنف الحفر .
وتمتم قائلاً : كان ذلك قبل عشر سنوات .
فقالت ميري : احب ان اراها . اين الباب الاخضر؟ لابد من وجود باب في مكان ما .

ودفع بين المسحاة عميقاً وبدا وحيداً كما راته اول مرة .
قال : كانت توجد قبل عشر سنوات ولكن لا توجد الآن .
فصاحت ميري : لا توجد باب! لا بد من وجودها .— لا يستطيع احد ان يجدها ، وليس هذا من مصلحة احد . لاتكوني طفلة تتدخل في ما لا يعنيها وتدسي انفك في مكان غير مناسب .
الان ان اواصل الآن عملي . فاذهبي انت والعبي . ليس لدي وقت كثير .

ولتوقف عن الحفر والقى مسحاته على كتفه وسار حتى دون ان ينظر اليها او يودعها .

٥ - صرخة في الرواق

كل يوم مر، في اول الامر، كان يشبه الايام الاخرى تماماً بالنسبة الى ميري لينوكس. فتستيقظ كل صباح في حجرتها ذات السدوف وتجد مارثا جاثية على ركبتيها عند الموقد تشعل النار. وتتناول كل صباح افطارها في الغرفة الاخرى التي كانت تخلو من اي شيء مسلٍ. وكانت بعد الافطار تتطلع من النافذة عبر المروج الفسيحة، التي كانت تبدو ممتدة نحو جميع الجهات وتصعد نحو السماء. وبعد ان حدقت فترة من الوقت ادركت انها لم تخرج فعليها ان تمكث في مكانها لاتعمل شيئاً - لذلك خرجت. ولم تكن تعرف ان ذلك هو افضل شيء تستطيع ان تفعله، ولم تكن تدري عندما اخذت تمشي سريعاً او تركض في الممرات وفي الشارع المشجر انها كانت تحرك دماءها البطيئة وتجعل نفسها اقوى. بمجابهتها الريح التي تجتاح المكان آتية من المروج. ركضت لكي تدفأ، وتضايقت من الريح التي هبت في وجهها وزمجرت

عليها واعاقتها كأنها عملاق لم تستطع رؤيته. ولكن عبير الزهور الذي حمل الهواء منه نفحات قوية ملأ رئتيها بشيءٍ نافع لجسمها الضئيل واضرم شيئاً من حمرة في خديها وانار عينيها الكابيتين بالاشراق، وهي لاتعرف شيئاً عن ذلك.

ولكن بعد ايام قلائل قضتها في الخارج، استيقظت ذات صباح وهي تعرف ماذا يعني الجوع، وعندما جلست الى افطارها لم تنظر بازدراء الى الشوربة وتدفعها بعيداً عنها بل تناولت ملعقتها واخذت تأكل واستمرت في الاكل حتى فرغ الاناء.

وقالت مارثا: اكلت اليوم جيداً، اليس كذلك؟

فقالت ميري وهي متعجبة من نفسها قليلاً: طعمها طيب هذا اليوم.

فاجابت مارثا: انه هواء المروج الذي اعطاك شهية للطعام. وهذا من حسن حظك ان تجدي طعاماً وشهية، لان في بيتنا اثني عشر طفلاً عندهم شهية ولايجدون شيئاً يملأون بطونهم. استمري على اللعب في الخارج كل يوم، وسوف يزداد لحمك على عظامك ولن تكوني شاحبة.

فقالت ميري: انا لاالعب. ليس لدي ما العب به.

فدهشت مارثا وقالت: لاشيء تلعبين به! اطفالنا يلعبون بالعيدان والحجر. ويركضون ويصيحون ويتفرجون على الاشياء.

ميري لم تصح ولم تتفرج على الاشياء. ولم يكن ثمة شيء آخر تقوم به. كانت تتمشى في الحدائق وتتجول في ممرات المتنزه.



وكانت احياناً تبحث عن بين ويذر ستاف ؛ وبالرغم من انها رأته مرات عديدة اثناء عمله فقد كان مشغولاً جداً فلم يكن لديه الوقت حتى للنظر اليها او انه كان شديد الفظاظة. توجهت ذات مرة اليه ولكنه اخذ مسحاته وابتعد عنها، كأنه فعل ذلك عامداً.

كانت تذهب الى مكان معين اكثر من غيره ؛ انه الممشى الطويل خارج الحدائق المسورة بالجدران. كان ثمة الواح من زهور على كلا الجانبين وكان اللبلاب ينمو كثيفاً على الجدران. وكان جزء من اجزاء الجدار تنمو عليه النباتات المتسلقة الغامقة الخضرة بصورة اكثر كثافة من الاماكن الاخرى. وبدا كأن ذلك المكان اهمل فترة طويلة. وكانت الاجزاء الاخرى مشذبة وبدت مرتبة، ولكن في هذا الجزء من الممشى لم تكن النباتات مقصوصة قط.

بعد ايام من حديثها من بين ويذر ستاف توقفت لتلقي نظرة الى ذلك وتساءلت في نفسها لماذا كان هذا الجزء بهذا الشكل. وقفت وتطلعت الى الاعلى نحو غصن طويل يتأرجح في النسيم، ابصرت ومضة حمراء وسمعت سقسقة بديعة، وشاهدت في اعلى الجدار أبا الحناء بصدره الاحمر يميل الى الامام لينظر اليها ورأسه الصغير الى جانب.

وهتفت: اوه! اهذا انت؟

ولم يبد لها الامر غريباً انها تكلمت اليه كأنها متأكدة انه

سيفهمها ويرد عليها.

واجابها فعلاً. فقد غرد وسقسق وقفز على الجدار كأنه يحدثها عن كل الاشياء. وبدا لميري كأنها تفهمه ايضاً مع انه لم يكن يتحدث بكلمات كأنه كان يقول:

– صباح الخير! أليس النسيم لطيفاً؟ أليست الشمس جميلة؟ اليس كل شيئ بديعاً؟ لنغرد كلانا ونقفز ونسقسق. هيا! هيا!

واخذت ميري تضحك وقفزت ووثبت راكضة مع الجدار وهي تتبعه. وبدت ميري المسكينة الناحلة، الشاحبة، القبيحة، جميلة حقاً لحظات قليلة.

وصاحت «احبك! احبك!» وهي تتمتم بذلك في الممشى، وسقسقت وحاولت ان تصفر، وهي لاتعرف كيف تفعل ذلك ابداً. ولكن ابا الحناء ظهر كأنه مقتنع بذلك وغرد وصفر لها. ثم نشر جناحيه وانطلق الى اعلى شجرة حيث جثم وراح يغرد عالياً.

ذكرها ذلك باول مرة رأته. كان يتأرجح على قمة شجرة عندما كانت واقفة في البستان. ولكنها الآن في الطرف الآخر من البستان، واقفة في الممر خارج السور وكانت الشجرة نفسها داخل السور.

قالت ميري في نفسها: انها في الحديقة التي لايمكن لاحد دخولها. انها في الحديقة التي لاباب لها. وابو الحناء يعيش هناك. كم اتمنى ان ارى كيف تكون!

وركضت في الممشى نحو الباب الاخضر الذي دخلت منه في

الصباح الاول. ثم صارت تجري في الممر ودخلت الباب الآخر وصارت في البستان، وعندما وقفت وتطلعت الى الاعلى كان ابو الحناء قد انهى اغرودته واخذ يسوي ريشه بمنقاره.

وقالت: انها الحديقة. انا متأكدة من ذلك.

وسارت حولها وصارت تنظر بامعان الى ذلك الجانب من سور البستان. ولكنها لم تجد غير ما وجدته سابقاً – لم يكن ثمة باب فيه. ثم جرت في حدائق المطبخ مرة اخرى وخرجت الى الممشى خارج السور المغطى باللبلاب، وسارت حتى نهايته ونظرت اليه، ولكنها لم تجد باباً، ثم سارت الى النهاية الاخرى، وهي تنظر وتبحث، ولكن ليس هناك باب.

وقالت: شيء غريب حقاً. قال بين ويذر ستاف انه لايوجد باب، ولايوجد باب فعلاً، ولكن لابد كان هناك باب قبل عشر سنوات، لان السيد كريفن دفن المفتاح.

جعلها ذلك تفكر كثيراً بذلك الذي اثار اهتمامها وصارت تشعر أنها لم تأسف في مجيئها الى ميسيلثوايت مينر. وقد جعلها نسيم المروج العذب نشيطة الذهن وابعد الخمول عنها قليلاً.

كانت تبقى في الخارج طوال النهار تقريباً، وعندما كانت تجلس الى عشائها مساء كانت تشعر بالجوع والنعاس والراحة. ولم تشعر بالضيق عندما كانت مارثا تثرثر، بل شعرت كأنها تحب سماع كلامها. وفكرت اخيراً انها تريد ان تسألها سؤالاً. وسألتها بعد ان انتهت من عشائها وجلست على البساط، قرب الموقد،

امام النار.

وقالت: لماذا يكره السيد كريفن الحديقة.

وجعلت مارثا تبقى معها ولم تعارض مارثا قط. كانت صغيرة العمر ومعتادة على بيت مليئ بالاخوة والاخوات، ووجدت الامر مملاً في بهو الخدم العظيم في الطابق الاسفل. وكان الخادم والخادمات الكبيرات يسخرون من لهجة اهالي يوركشير التي تتحدث بها، ويعدونها شخصاً صغيراً، وكانوا يجلسون ويتهامسون فيما بينهم. ولكن مارثا كانت تحب التحدث، وكانت الطفلة الغريبة التي عاشت في الهند شيئاً جديداً بالنسبة اليها ويجلب انتباهها. فجلست هي ايضاً على البساط دونما انتظار ان يطلب اليها ذلك.

وقالت: اما زلت تفكرين بتلك الحديقة؟ عرفت انك ستفكرين. حدث الامر نفسه معي عندما سمعت بذلك اول مرة.

اصرت ميري على تكرار سوالها: لماذا يكره الحديقة.

ووضعت مارثا قدميها تحتها وجعلت نفسها تجلس مرتاحة تماماً.

وقالت: استمعي الى الريح وهي تعول حول البيت. لايمكن ان تقفي في المروج وتقاوميها اذا خرجت ليلاً.

لم تعرف ميري ماذا تعني كلمة «تعول» حتى اصغت ففهمت. لابد انها تعني نوعاً من الزئير المرعد المكتوم الذي يندفع

حول البيت، كأن العملاق الذي لايمكن ان يراه احد كان يضرب بجمع يده على الجدران والشبابيك محاولاً ان يحطمها. ولكن المرء يعرف انه لايستطيع الدخول فيشعر بذلك بالاطمئنان والدفء في داخل غرفة تضطرم فيها نار حمراء.

– ولكن لماذا يكرهها كثيراً.

سألت ميري بعد ان اصغت. وقد قررت ان تعرف فيما اذا كانت مارثا تعرف.

ثم افضت مارثا بما لديها من معلومات. فقالت:

– قالت السيدة ميدلوك لاتتحدثي عن هذا الامر. هناك اشياء كثيرة في هذا المكان يجب ان لايتحدث عنها احد. وهذه هي اوامر السيد كريفن لانه يقول ان مشكلاته لاتهم الخدم وليست مما يعنيهم، اما بالنسبة للحديقة فالامر ليس كما يود. فقد كانت هي حديقة السيدة كريفن التي انشأتها عندما تزوجا واحبتها كثيراً واعتاد الاثنان رعاية زهورها. ولم يسمح لاي من الفلاحين دخولها قط. اعتاد هو وهي ان يدخلاها ويغلقا الباب ويمكثا فيها ساعات وساعات يقرآن ويتحدثان. لم تكن الا فتاة صغيرة. وكان ثمة شجرة عتيقة ذات غصن منحن كالمقعد فجعلت الاوراد تنمو عليه واعتادت ان تجلس هناك. ولكنها عندما كانت جالسة ذات يوم هناك انكسر الغصن وسقطت على الارض واصيبت اصابة بالغة ماتت على اثرها في اليوم التالي. وظن الاطباء انه سيجن ويموت ايضاً. هذا هو سبب كرهه الحديقة.

فلم يدخلها احد منذ ذلك الحين، ولن يدع احداً يتحدث عنها.

ولم تسأل ميري اسئلة اخرى. نظرت الى النار واصغت الى الريح وهي «تعول». وبدت كأنها «تزمجر» اعلى من ذي قبل.

حدث في تلك اللحظة شيئ جيد جداً بالنسبة اليها. في الحقيقة، حدثت لها اربعة اشياء جيدة منذ ان جاءت ميسيلثوايت مينر. شعرت كأنها فهمت ابي الحناء، وانه فهمها، وركضت في الريح حتى اصبح دمها دافئاً.

واصبحت تشعر بالجوع عن صحة وعافية لاول مرة في حياتها. واكتشفت معنى الاسف على انسان. اذن فهي قد تحسنت.

ولكنها عندما كانت تصغي الى الريح اخذت تصغي الى شيئ آخر. ولم تعرف ماهو، لانها لم تكد تميزه عن الريح نفسها. كان صوتاً غريباً – كأنه صوت طفل يبكي، ولكن ميري تأكدت ان الصوت داخل البيت وليس خارجه ؛ بعيد ولكنه في الداخل. التفت وقالت لمارثا:

– اتسمعين احداً يبكي؟

بدا الارتباك على مارثا فجأة.

واجابت: لا. انها الريح. تبدو احياناً كأن انساناً ضائع في المروج ويعول. المروج فيها كل انواع الاصوات.

فقالت ميري: ولكن استمعي. أنه في البيت – في احد الاروقة الطويلة.

وفتح الباب في تلك اللحظة بالذات في مكان ما في الطابق الاسفل. فقد هبّ تيار شديد في الممر وفتح باب الغرفة التي كانتا تجلسان فيها بقوة وقفزت الاثنتان واقفتين وانطفأ النور واجتاح صوت البكاء ذلك الممر البعيد فسمع هذه المرة بوضوح اكثر.

وقالت ميري: هذا هو! قلت لك ذلك! شخص يبكي — وهو ليس شخصاً ناضجاً.

وركضت مارثا وسدت الباب وادارت المفتاح، وقبل ان تفعل ذلك سمعت الاثنتان صوت باب في ممر بعيد يصطفك ثم هدأ كل شيء، لان الريح نفسها كفت عن «الزمجرة» بعد لحظات قلائل.

وقالت مارثا بعناد: انها الريح، وان لم تكن كذلك فانها بيتي بتروث الخادمة الصغيرة المسؤولة عن غسل الصحون، التي تعاني من الم الاسنان طوال اليوم.

ولكن شيئاً من القلق والارتباك في مارثا جعل ميري تحدق فيها ملياً. لم تصدق انها كانت تقول الحقيقة.

٦ ـ هناك من يبكي ـ هناك ؟

في اليوم التالي، هطلت الامطار سيولاً مرة اخرى، وعندما تطلعت ميري من الشباك، كانت المروج تختفي وراء سحب وضباب رمادي، ولا يمكن الخروج هذا اليوم.

وسألت مارثا: ماذا تفعلين في كوخكم عندما تهطل مثل هذه الامطار.

اجابتها مارثا: احاول الابتعاد عن ارجل الاخرين في الغالب. نحن كثيرون. وامي لطيفة الطبع، ولكنها تتضايق في تلك الحال. فيخرج الكبار الى جظيرة الابقار ويلعبون هناك. اما ديكون فلا يهمه المطر. يخرج كما يخرج عندما تكون الشمس مشرقة. يقول انه يرى اشياء في الايام الماطرة التي لا يمكن ان يراها في ايام الصحو والجو اللطيف. وجد ذات مرة جرو ثعلب صغير كاد ان يغرق في وجاره فجلبه الى البيت في عبّه قريباً الى صدره ليدفئه. امه ماتت قريباً منه وفاضت المغارة وماتت

الصغار الاخرى. وهو عنده الآن في بيتنا. ووجد في يوم آخر غراباً كاد ان يغرق ايضاً وجلبه الى البيت ورباه فاصبح أليفاً. اسمه «اسحم» لانه شديد السواد، ويقفز ويطير معه اينما ذهب.

وصارت ميري لاتمتعض من كلام مارثا المألوف الاعتيادي، بل وجدته ممتعاً، وتأسف اذا ما توقفت عن الكلام او ذهبت عنها. كانت قصص مربيتها الهندية تختلف عن قصص مارثا تماماً عن كوخ المروج الذي يضم اربعة عشر نفراً ينامون في اربع غرف صغيرة وليس لديهم مايكفيهم من طعام. ويبدو ان الصغار كانوا يدرجون هنا وهناك مثل جراء كلاب الرعاة. اعجبت ميري كثيراً بالام وبديكون. وعندما كانت مارثا تحكي لها عما تقول امها او تفعل، فانها تجدها قصصاً ممتعة مريحة دائماً.

وقالت ميري: لو كان عندي غراب او جرو ثعلب للعبت معه. ولكن لااملك شيئاً.

فظهرت الحيرة على مارثا وسألتها:

– هل تستطيعين ان تحوكي؟

فاجابت ميري: لا.

– هل تستطيعين ان تخيطي؟

– لا.

– هل تستطيعين ان تقرئي؟

– نعم.

– اذن لماذا لاتقرئين شيئاً او تتعلمين قليلاً من التهجي؟ فانت



كبيرة وتستطيعين دراسة كتابك جيداً.

فقالت ميري: لااملك اي كتاب. فقد تركت كتبي في الهند.

وقالت مارثا: مع الاسف. لو تدعك السيدة ميدلوك تدخلين المكتبة لوجدت آلاف الكتب فيها.

ولم تسأل ميري عن مكان المكتبة لانها خطرت ببالها فكرة جديدة في الحال. قررت ان تذهب وتجدها بنفسها. ولم يهمها امر السيدة ميدلوك، اذ هي تبدو دائماً في غرفة تدبير المنزل المريحة الخاصة بها في الطابق الاسفل. في مثل هذا المكان الغريب، قلما يرى المرء الآخرين. ولم يكن في الحقيقة غير الخدم ممن يراهم الانسان، وعندما يكون سيدهم خارج المنزل فانهم يحيون حياة مرفهة، حيث المطبخ الواسع المعلقة على جدرانه اوان نحاسية وقصديرية لامعة، وهناك ايضاً بهو الخدم الواسع حيث تقدم اربع او خمس وجبات طعام غنية كل يوم. ويسود الصخب والمرح عندما تكون السيدة ميدلوك بعيدة عنهم.

كانت وجبات طعام ميري تقدم بانتظام، وكانت مارثا تقف على رعايتها، ولكن لم يكن احد غيرها ليهتم بامها قط. وكانت السيدة ميدلوك تأتي لرؤيتها كل يوم او يومين. ولكن لم يسألها احد ماذا كانت تفعل او يطلب اليها ان تفعل شيئاً. واعتقدت ان هذه هي الطريقة او العادة الانكليزية في معاملة الاطفال. اما في الهند فقد كانت مربيتها تتبعها في كل مكان وتلبي طلباتها، فضجرت من صحبتها في اغلب الاحيان. اما الان فانها لايتبعها

احد وتعلمت ان ترتدي ملابسها بنفسها لان مارثا كانت تعتقد انها سخيفة او غبية عندما كانت تريد ان تناولها شيئاً لتلبسه.

- أليس لديك عقل؟

قالت لها مارثا ذات مرة عندما وقفت تنتظر ان تلبسها مارثا قفازيها. واضافت قائلة:

- اختنا سوزان آن اذكى منك مرتين وعمرها لايزيد عن اربع سنوات. تبدين احياناً ضعيفة العقل.

وظلت ميري مقطبة عابسة ساعة من الزمان بعد ذلك، وجعلها ذلك تفكر باشياء جديدة تماماً.

وقفت لدى النافذة عشر دقائق هذا الصباح بعد ان كنست مارثا البساط امام الموقد للمرة الاخيرة ونزلت الى الطابق الاسفل. كانت تقلب الفكرة الجديدة التي خطرت ببالها عندما سمعت بالمكتبة. ولم تهتم كثيراً بالمكتبة نفسها لانها كانت قد قرأت كتباً قليلة، ولكن سماع ذلك عنها اعاد الى ذاكرتها مسألة الغرف المئة ذات الابواب المغلقة. وتساءلت في نفسها هل كانت حقاً جميعها مغلقة وماذا يمكن ان تجد فيها اذا دخلت اياً منها. هل كانت حقاً مئة؟ لماذا لاتذهب وترى كم غرفة يمكن ان تعد؟ يمكن ان يكون ذلك شيئاً تفعله هذا الصباح اذا لم تستطع الخروج من البيت. لم تتعلم قط ان تطلب اذناً لعمل شيءٍ من الاشياء ولم تعرف شيئاً عن السلطة، ولم تفكر بضرورة الطلب الى السيدة ميدلوك بالتجول في البيت حتى ولو رأتها. وفتحت

باب الغرفة وسارت في الرواق، ثم بدأت تجوالها. كان الرواق طويلاً ويتفرع الى اروقة اخرى ثم ادى بها الى سلم واطئ يرقى الى اخريات. رأت ابواباً وابواباً، وصوراً على الجدران. بعضها صور مناظر طبيعية غريبة الشكل معتمة، ولكن اغلبها كان صوراً لرجال ونساء في ملابس فاخرة من الحرير والمخمل. ثم وجدت نفسها في بهو جدرانه مغطاة بالصور. ولم تفكر انه يمكن ان يوجد مثل هذا العدد في اي بيت. وسارت متمهلة في هذا المكان وحدقت في الوجوه التي بدت كأنها تحدق فيها ايضاً. شعرت كأن اصحاب الوجوه كانوا يتساءلون ماذا تفعل فتاة صغيرة آتية من الهند الى بيتهم. كانت بعض الصور لاطفال – بنات صغيرات في اردية سميكة من حرير تبلغ الاقدام وتدور بعيداً عنها بقليل، واولاد باكمام منتفخة وياخات محزمة وشعر طويل وطوق مكشكش حول الرقبة. كانت تتوقف دائماً للنظر الى الاطفال وتتساءل في نفسها عن اسمائهم واين ذهبوا ولماذا يلبسون مثل هذه الثياب الغريبة. وكانت هناك فتاة صغيرة قبيحة تشبهها، لابسة ثوباً اخضر مطرزاً وتحمل ببغاء اخضر على كفها، نظرتها حادة، غريبة.

سألتها ميري بصوت مسموع: اين تعيشين الآن؟ اتمنى لو كنت هنا. لاريب ان اي فتاة اخرى صغيرة لم تمض مثل هذا الصباح الغريب الذي امضته ميري. ويبدو انه لاتوجد اية فتاة سواها في هذا البيت الفخم المتداخل بعضه في البعض الآخر

تتجول صاعدة الى الطابق الاعلى ونازلة الى الطابق الاسفل، سائرة في ممرات ضيقة. واخرى عريضة حيث بدا لها ان احداً غيرها لم يسر فيها. ومادام في البيت غرف كثيرة فلابد ان يعيش فيها أناس، ولكنها جميعاً تبدو خالية جداً بحيث صارت لاتصدق ذلك.

وصعدت الى الطابق الثاني وفكرت بادارة قبضة باب من الابواب. كانت الابواب جميعاً مسدودة، كما قالت السيدة ميدلوك، غير انها وضعت يدها على مقبض احداها وادارته. خشيت اول الامر لحظة واحدة عندما دار المقبض دونما صعوبة وعندما دفعت الباب نفسه انفتح ببطء وثقل. كان باباً ضخماً فتح الى غرفة نوم كبيرة. وكانت على الجدران سجوف مطرزة، واثاث مطعمة، كالتي رأتها في الهند، موضوعة في الغرفة. وكان شباك عريض ذو زجاج يطل على المروج، وعلى رف المدفأة صورة للفتاة الصغيرة القبيحة بدت كأنها تحدق فيها باستغراب اكثر من ذي قبل.

وقالت ميري: لعلها كانت تنام هنا ذات يوم. تحدق فيّ بحيث تجعلني اشعر بالاستغراب.

ثم فتحت ابواباً اخرى واخرى. ورأت غرفاً كثيرة حتى اصابها التعب وراحت تفكر انه لابد ان عددها مئة بالرغم من انها لم تعدها. كانت فيها صور قديمة او سجف عتيقة ذات مناظر غريبة، وكان في اغلبها قطع غريبة من الاثاث وزخارف عجيبة.

في احدى الغرف، التي تبدو كأنها غرفة جلوس سيدة، كانت السجوف جميعاً من مخمل مطرز، وكانت في الخزانة قرابة مئة فيل مصنوعة من العاج، باحجام مختلفة، وعلى بعضها محفات او رجال يسوقونها. بعضها اكبر من الاخريات وبعضها صغير جداً كأنها ابناؤها. كانت ميري قد رأت عاجاً منحوتاً في الهند وهي تعرف كل شيء عن الفيلة. فتحت باب الخزانة ووقفت على كرسي وصارت تلعب بهذه التماثيل مدة طويلة من الزمن. وعندما تعبت اعادت الفيلة في اماكنها وسدت باب الخزانة.

لم تر اثناء تجوالها في الممرات الطويلة والغرف الخالية شيئاً حياً، ولكنها رأت في هذه الغرفة شيئاً. بعد ان سدت باب الخزانة مباشرة سمعت حفيفاً ناعماً جعلها تقفز والتفتت الى الاريكة التي بجانب المدفأة حيث بدا كأن الصوت يأتي من هنالك. كان في ركن الاريكة وسادة وفي المخمل الذي يغطيها فتحة، ومن الفتحة ظهر رأس صغير يختلس النظر بعينين خائفتين.

وتقدمت ميري عبر الغرفة بخطى وئيدة لتلقي نظرة. كانت العينان عيني فأرة رمادية صغيرة، اكلت الفأرة الوسادة وصنعت فجوة فيها وعشاً مريحاً لصغارها الستة المتحاضنين نياماً قربها.

وقالت ميري: لو انهن لايخفن لاخذتهن معي. .

وتجولت مدة طويلة حتى شعرت بالتعب فلم تستطع مواصلة التجوال، فعادت. وضلت طريقها مرتين او ثلاث مرات في

سيرها في ممر غير صحيح واضطرت ان تصعد وتنزل حتى وجدت الممر الصحيح. واخيراً وصلت طابقها مرة اخرى، بالرغم من انها كانت على مسافة من غرفتها الخاصة ولم تعرف بالضبط اين هي الآن.

– اظن اني انعطفت الى الاتجاه المغلوط مرة اخرى.

قالت ذلك وهي تقف ساكنة في مكان يبدو انه نهاية ممر قصير على جدار منه سجف. ثم اضافت قولها:

– لادري في أي اتجاه اسير. ماشد سكون الاشياء! عندما كانت واقفة هناك وبعد ان قالت ذلك الكلام بدد الصمت صوت، كان صوت بكاء آخر، ولكن لايشبه ذلك البكاء الذي سمعته في الليلة الماضية. بكاء قصير متقطع، نحيب طفل كتمه اختراق الجدران.

وقالت ميري وقلبها يخفق اسرع: هذا الصوت اقرب من ذلك. وهو بكاء.

ووضعت يدها مصادفة على السجف القريب منها ثم وثبت الى الخلف جافلة. كانت السجفة تغطي باباً انفتح وكشف وجود جزء آخر من رواق وراءة. كانت السيدة ميدلوك قادمة في ذلك الممر وبيدها حزمة مفاتيح وتبدو مغتاظة.

– ماذا تفعلين هنا؟

قالت ذلك واخذت ميري من ذراعها وسحبتها معها.

– ماذا قلت لك؟

فاوضحت ميري قائلة : انعطفت في الاتجاه المغلوط. لاادري اي اتجاه اتخذ. وسمعت شخصاً يبكي.

كرهت السيدة ميدلوك في تلك اللحظة، ولكن كرهها ازداد في اللحظة التالية.

قالت مديرة المنزل: لم تسمعِ اي شيءٍ من ذلك. تعالي الى غرفتك الخاصة وإلا لكمت اذنيك.

واقتادتها من ذراعها وهي تدفعها وتسحبها ايضاً في ممر ثم آخر حتى دفعتها في باب غرفتها الخاصة.

وقالت لها: والآن، تبقين حيث اخبرتك ان تمكثي والا وجدت نفسك محبوسة. الافضل ان يجد السيد لك مربية، كما قال. انت واحدة بحاجة الى من يراقبك مراقبة دقيقة. انا لدي اعمال كثيرة اقوم بها.

وخرجت من الحجرة وصفقت الباب خلفها. وذهبت ميري وجلست على البساط امام الموقد، شاحبة من الغضب. ولم تبك ولكن راحت تصرف باسنانها.

وقالت في نفسها: كان هناك من يبكي، هناك، كان هناك!

سمعت ذلك مرتين هذه المرة، وسوف تكتشف الامر ذات مرة. لقد اكتشفت هذا الصباح اموراً كثيرة. وشعرت كأنها كانت في رحلة طويلة. وكان لها على اي حال شيءٌ يسليها طوال الوقت، فقد لعبت بالفيلة العاجية ورأت الفأرة الرمادية وصغارها في عشهم في الوسادة المخملية.

٧ ـ مفتاح الحديقة

مر يومان على ذلك، استيقظت ميري وفتحت عينيها وجلست منتصبة في الفراش في الحال ونادت مارثا:

– انظري الى المروج! انظري الى المروج!

توقفت العاصفة المطرية وانجلى الضباب والسحب في الليل عندما جرفتها الرياح بعيداً. وتوقفت الريح نفسها وظهرت سماء مشرقة عميقة الزرقة في شكل قبة عالية فوق المروج. لم تحلم ميري قط بسماء في مثل تلك الزرقة. في الهند السماء حارة متوهجة، اما هنا فانها ذات زرقة عميقة باردة تكاد تتلألأ كمياه بحيرة جميلة لا قعر لها، وهنا وهناك، تعوم عالياً في القبة الزرقاء المقوسة غيوم صغيرة كأنها جزة صوق في بياض الثلج. وتبدو دنيا المروج نفسها باهتة الزرقة بدلا من اللون الارجواني الغامق المعتم او الرمادي الكئيب.

فقالت مارثا بلهجة مرحة: اي، توقفت العاصفة قليلاً.

يحدث ذلك في مثل هذا الوقت من كل عام. تتوقف ليلاً كأنها لم تهب هنا ولا تنوي تعود مرة اخرى، ذلك لان الربيع سائر في طريقه الينا، ومع ان المسافة ماتزال طويلة، فانه سوف يأتي.

فقالت ميري: ظننت انها تمطر دائماً او تبدو مظلمة في انكلترة.

– لا، لا يحدث شيئ من ذلك!

قالت مارثا وهي تجلس على قدميها امام الموقد وحولها المكانس.

– وكيف.

فقالت مارثا وهي تنطق الكلمات بهدوء وبطء: يوركشير أكثر الاماكن على الارض شمساً عندما تكون مشرقة.. قلت لك انك ستحبين المروج بعد مدة قصيرة انتظري حتى تري زهور الرتم الذهبية اللون وزهو الوزال وزهور الخلنج المتفتحة في شكل اجراس ارجوانية ومئات الفراشات تتطاير والنحل يطن والقبرات تحلق عالياً وتغرد. ستودين الخروج اليها في النهار المشمس وتبقين هناك طوال الوقت كما يفعل ديكون.

– هل استطيع الوصول الى هنا؟

سألت ميري مارثا بشيئ من التون والحزن وهي تتطلع من نافذتها الى الزرقة البعيدة. كان لونا جديداً فسيحاً رائعاً سماوياً.

فأجابت مارثا: لا ادري. يبدو لي انك لم تستعملي رجليك منذ ان ولدت. لا تستطيعين ان تسيري خمسة اميال، لان



المسافة خمسة اميال من بيتنا.

— احب ان ارى بيتكم.

حدقت ميري فيها لحظة وهي مستغربة قبل ان تتناول فرشاة التلميع وتبدأ بتنظيف مشبك الموقد. وفكرت في نفسها ان الوجه الصغير القبيح لم يبد قبيحاً متجهماً الان كما بدا في صباح اليوم الاول الذي رأته فيه. بدا مثل وجه اختها سوزان آن عندما كانت تلح في طلب شيئ كثيراً.

وقالت لها: سوف اسأل امي عن ذلك. انها من الناس الذين يجدون دائماً الوسيلة لعمل الاشياء. اليوم يوم اجازتي وسأذهب الى بيتنا. اي! اني مسرورة. السيدة ميدلوك تفكر كثيرا بامي لعلها يمكن ان تتحدث اليها.

فقالت ميري: انا احب امك.

فوافقتها ميري وهي تقوم بالتلميع: اظن انك تحبينها.

وقالت ميري: انا لم ارها قط.

فردت عليها مارثا: لا لم تريها.

وعادت تجلس على قدميها وتمسح طرف انفها بقفا كفها، كأنها حائرة لحظة، ثم قالت مجيبة:

— انها امرأة عاقلة، مجدة في عملها، دمثة الطباع ونظيفة جداً لا يتمالك الانسان نفسه من حبها، سواء أرآها ام لم يرها وعندما اذهب اليها في بيتنا عند يوم اجازتي فاني اقفز فرحاً وانا اسير قاطعة الطريق في المروج.

واضافت ميري قولها: انا احب ديكون وانني لم اره قط

فقالت مارثا مؤكدة: حسناً، قلت لك حتى الطيور تحبه وكذلك الارانب والاغنام والخيول البرية وحتى الثعالب نفسها واني اتساءل في نفسي ما هو رأي ديكون فيك؟

وحدقت مارثا في وجه ميري وهي تتأملها.

فقالت ميري بطريقتها الجافة الباردة: لن يحبني. لا احد يحبني.

وبدت مارثا مرة اخرى تتأمل. وسألتها كانها تود الاطلاع والمعرفة: كيف تحبين نفسك؟

ترددت ميري لحظة وفكرت في الامر.

واجابت: ابدا - في الحقيقة. انا لم افكر بذلك قبل هذا

وابتسمت مارثا ابتسامة صغيرة كأنها تتذكر مسألة بيتية.

فقالت: قالت لي امي ذلك يوماً وهي امام طشت الغسيل وكنت في حالة سيئة من المزاج واتحدث بما لا يطيب ولا يليق عن الناس، فالتفتت اليّ قائلة: «ايتها الثعلبة الصغيرة! تقفين وتقولين انك لا تحبين هذا ولا تحبين ذلك، فكيف تحبين نفسك؟» وجعلني ذلك اضحك واعادني الى عقلي فوراً.

وخرجت جذلى بعد ان قدمت الافطار الى ميري. ستسير خمسة اميال عبر المروج الى كوخهم وستساعد امها بالغسيل وتعد الخبز لاسبوع وتمتع نفسها كثيراً.

شعرت ميري بالوحشة اكثر من ذي قبل عندما عرفت ان

مارثا ليست في البيت. فخرجت الى الحدائق باسرع ما يمكن، واول شيء قامت به هو ركضها حول زهور النافورة عشر مرات. كانت تحسب الدورات باهتمام وعندما انتهت من ذلك شعرت ان نشاطها افضل. وكانت الشمس قد جعلت المكان يبدو مختلفاً. وامتدت السماء العالية العميقة بزرقتها فوق ميسيلثوابث بشكل مقوس، وكذلك فوق المروج، وظلت البنت تتطلع الى الأعلى نحو السماء محاولة ان تتخيل كيف يستلقي الانسان على احدى الغيوم الصغيرة البيض ويروح يعوم في الجو. ودخلت في حديقة المطبخ الاولى ووجدت بين ويذرستاف من يشتغل هناك ومعه فلاحان اخران. ويبدو ان تغير الجو قد افاده كثيراً فتكلم اليها طوعاً، من غير اكراه.

وقال: جاء الربيع، الا تستطيعين ان تشمي رائحته؟ فاستنشقت ميري وظنت انها تستطيع ذلك.

وقالت: اشم شيئاً لطيفاً وعذباً ورطباً.

فاجابها قائلاً: هذه هي الارض الطيبة الغنية انها تتأهب لنمو الاشياء. يكون الانسان سعيداً عندما يقترب وقت الزراعة في الشتاء يسدد الخمول عندما لا تجد ما تفعله. في حديقة الزهور هناك تحور الاشياء في باطن الارض المظلمة. والشمس تدفئها يمكن ان تري سيقان خضر نابعة من الارض السوداء بعد فترة وجيزة.

فسألت ميري: وماذا سيخرج؟

– الزعفران والنرجس وازهار الندى الثلجية. الم تري تلك الزهور.

فقالت ميري: لا. كل شيءٌ حار ورطب واخضر بعد هطول الامطار في الهند. واظن ان الاشياء تنمو في ليلة واحدة.

فقالت ويدرستاف: هذه الزهور لا تنمو في ليلة واحدة عليك ان تنتظريها فهي تخرج اعلى هنا ويكون لها فروع اكثر، وتنبع ورقة اليوم وورقة اخرى في اليوم الاخر راقبيها.

فاجابت ميري: سأفعل ذلك.

وسرعان ما سمعت حفيف اجنحة تطير وعرفت في الحال ان ابا الحناء قد جاء. وكان جم النشاط والحيوية، واخذ يقفز هنا وهناك قريبا من قدميها، وادار رأسه جانباً وتطلع اليها خجلاً فسألت بين ويدرستاف سؤالاً:

– هل تعتقد انه يتذكرني؟

فقال ويدرستاف ساخطاً: يتذكرك! انه يعرف حتى نباتات اللهانة في الحديقة، ناهيك عن الناس. وهو لم ير فتاة صغيرة هنا قبل هذا، وهو ميال لمعرفة كل شيءٌ عنك. فلا تحاولي ان تخفي عنه شيئاً.

فسألت ميري: وهو تحور الاشياء بالحركة في ظلام الارض هناك، في تلك الحديقة حيث يعيش؟

فدمدم ويدرستاف قائلا وقد عاد العبوس الى محياه: اي حديقة.

– تلك حيث الورود القديمة.

ولم تتمالك نفسها من توجيه سؤال آخر اليه لانها ارادت ان تعرف كل شيئ:

– هل ماتت جميع الزهور ام بعضها يعود في الصيف؟ هل توجد اي ورود فيها؟

فرد عليها بين ويذرستاف وهو يحدب كتفيه نحو الطائر قائلاً:

– اسأليه. هو الوحيد الذي يعرف. لم ير احد ما في داخلها غيره، منذ عشر سنوات.

عشر سنوات مدة طويلة، فكرت ميري. وصارت تحب الحديقة كما صارت تحب ابا الحناء وديكون وام مارثا. وصارت تحب مارثا ايضاً. ذلك عدد كبير من الناس الذين تحبهم في الوقت الذي لم تكن تحب احداً. واعتقدت ان ابا الحناء واحداً من الناس. ثم سارت في الممشى خارج السور الطويل المغطى باللبلاب حيث يمكنها ان ترى قمم الاشجار. وحدث لها في المرة الثانية التي خرجت فيها اكثر الاشياء اثارة ومتعة، وكان كل ذلك بسبب طائر ابي الحناء.

وسمعت سقسقة وتغريداً وعندما نظرت الى لوح الزهور الاجرد الى جهتها اليسرى كان ابو الحناء يقفز ويتظاهر بنقر اشياء والتقاطها من الارض ليقنعها انه لم يكن يتتبع خطاها. ولكنها كانت تعرف انه كان يفعل ذلك، فملأتها الدهشة بالفرح وارتعشت لذلك قليلاً.

وصاحت: انت تذكرني! تذكرني! انتِ اجمل شيءٌ في هذه الدنيا! وسقسقت وتحدثت اليه ولاطفته، وصار يقفز ويحرك ذيله بسرعة خاطفة ويغرد، كأنه كان يتكلم. كان صدره الاحمر كالحرير ونفخ نفسه وزاد حسناً وبهاء وفخامة كأنه كان يريها كيف يمكن لابي الحناء ان يكون كالانسان. ونسيت ميري انها كانت تختلف عن الناس الآخرين عندما اقتربت منه وانحنت وتحدثت وحاولت ان تخرج اصواتاً كاصوات ابي الحناء.

ما اشد بهجتها عندما فكرت انه سمح لها ان تقترب منه فعلاً الى هذا الحد! هو لا يعرف شيئاً في هذه الدنيا يجعلها تمد يدها نحوه وتجعله يجفل. هو يعرف ذلك لانه كان شخصاً حقيقياً – بل اجمل من اي شخص في الدنيا. كانت سعيدة جداً فكادت لا تجرؤ على التنفس.

وجدت لوح الزهور لم يكن اجرد تماماً. لم تكن فيه ازهار لان النباتات المعمرة شذبت من اجل راحتها الشتوية. ولكن كانت هناك نبتات طويلة واخرى قصيرة قد نمت في مؤخرة اللوح، وعندما كان ابو الحناء يقفز تحتها رأته يقفز فوق كومة صغيرة من تراب قلب حديثاً لان احد الكلاب كان يحاول ان يصل الى حيوان خلد داخل الارض فحفر حفرة عميقة فيها.

نظرت ميري فيها وهي لا تدري سبب وجود الحفرة في حقيقة الامر، ولما نظرت رأت شيئاً يكاد يكون مدفوناً في التراب المقلوب حديثاً كان شيئاً يشبه الحلقة من حديد او نحاس صدئ

وعندما طار ابو الحناء الى شجرة قريبة، مدت يدها والتقطت الحلقة ولكنها كانت اكثر من حلقة، كانت مفتاحا قديما كأنه دفن فترة طويلة.

وقفت ميري ونظرت اليه وشيءٌ من الرعب على وجهها وهو معلق في اصبعها.

وقالت هامسة: لعله كان مدفوناً عشر سنوات. لعله مفتاح الحديقة



٨ ـ ابو الحناء الذي كشف الطريق

ظلت ميري تنظر الى المفتاح طويلاً وقلبته في يديها مراراً وفكرت بشأنه. وبما انها طفلة متعلمة على طلب الاذن من الآخرين او استشارة الكبار في بعض الأمور، فانها اعتقدت ان المفتاح هو مفتاح الحديقة المقفلة وانها تستطيع ان تجد مكان الباب ولعلها تستطيع فتحها ورؤية ما وراء الاسوار، وماذا حل بالورود ونباتاتها. ارادت ان ترى ذلك لان الحديقة اغلقت منذ فترة طويلة. ولابد انها مختلفة عن الاماكن الاخرى وان شيئاً غريباً قد حدث فيها اثناء السنوات العشر. وفضلاً عن ذلك فانها اذا أعجبتها فان تستطيع الذهاب اليها كل يوم وتغلق الباب وراءها. وتبتكر لنفسها لعبة تلعب وحدها، لانها لن يعرف احد بوجودها وتظن ان الباب مقفل والمفتاح مدفون في الأرض. وفرحت بتلك الفكرة كثيراً.

عيشها وحيدة في بيت من مئة غرفة سرية مغلقة، وعدم امتلاكها شيئاً مهما كان لتبسليتها، جعل فكرها الخامل يشتغل

ودفع خيالها الى اليقظة. ولاريب ان للهواء القوي، العذب، النقي من المروج تاثيراً عظيماً في ذلك، وكما انه اعطاها شهية للطعام وحرك دمها، فانه حرك فكرها ايضاً. فصارت تهتم بعمل اشياء جديدة ولاتدري ماسبب هذا التحول.

وضعت المفتاح في جيبها وسارت في الممشى. ويبدو انه لم يصل الى هناك احد غيرها، فصارت تتمهل في مشيتها وتنظر الى السور او بالآحرى الى اللبلاب النامي عليه، فقد كان عائقاً. ومهما امعنت النظر لم تستطع ان ترى شيئاً سوى الأوراق الخضر الغامقة النامية بشكل كثيف وخاب رجاؤها. وعاد اليها شيء من تمردها وهي تمر بجانب السور ونظرت الى اعلاه نحو قمم الأشجار التي وراءه. ليس المعقول ان تكون قريبة منها ولاتستطيع دخولها. واخذت المفتاح معها في جيبها وعادت الى البيت وقررت ان تحمله معها دائماً عندما تخرج ليكون حاضراً معها اذا ما وجدت الباب الخفي.

سمحت السيدة ميدلوك لمارثا ان تبيت الليل في كوخ اهلها ولكنها عادت الى عملها في الصباح وخدها اكثر حمرة من السابق ونشاطها اكثر حيوية.

وقالت: نهضت في الساعة الرابعة. كان الجو لطيفاً في المروج والطيور تستيقظ والارانب تعدو هنا وهناك والشمس تشرق، انا لم امش كل الطريق. فقد اخذني رجل معه في عربته واقول لك لقد استمتعت كثيراً.



كان لديها كثير من القصص عن مسرات يومها الذي قضته في الخارج. وفرحت امها برؤيتها، وقامتا بالخبز والغسيل وعملت لكل طفل كعكة عليها قليل من السكر المحمر.

كان الكعك ساخناً عندما عادوا من اللعب في المروج. وكان الكوخ يفوح بالرائحة الطيبة للطبخ الطيب، النظيف، الحار. وكانت هناك جيرة وهتفوا من الفرح. اما ديكون فقد قال ان بيتنا كان يصلح أن يعيش فيه ملك.

وفي المساء جلس الجميع حول النار وكانت مارثا وامها ترقعان الملابس الممزقة وترقعان الجوارب، واخبرتهم مارثا عن البنت الصغيرة التي جاءت من الهند حيث كان الخدم يقومون برعايتها حتى لم تعد تعرف كيف تلبس جواربها.

قالت مارثا: احبوا كثيراً ان يسمعوا عنك. وارادوا ان يعرفوا كل شيءٌ عن الهند وعن السفينة التي جئت فيها. لم استطع ان اخبرهم كل شيءٌ.

وفكرت ميري قليلاً. وقالت: ساخبرك باشياء كثيرة قبل اجازتك القادمة لكي تتحدثي لهم عن اشياء اخرى. واظن انهم سيحبون ان يسمعوا عن ركوب الافيال والجمال، وعن الضباط الذين يخرجون لصيد النمور.

فهتفت ميري فرحة: ياإلهي! سيطير صوابهم، هل ستفعلين ذلك حقاً ياآنسة. سيكون الامر مثل عرض الحيوانات البرية الذي سمعنا عن اقامته في يورك ذات مرة.

وقالت ميري بهدوء فقد ظنت ان الامر انتهى : الهند تختلف تماماً عن يوركشير. لم افكر بذلك مطلقاً. هل يحب ديكون وامك ان يسمعاك تتحدثين عني؟

فاجابت مارثا : ظل ديكون يحملق فيّ واتسعت عيناه بهذا القدر. اما امي فقد انزعجت لكونك وحيدة وقالت : الم يجلب لها السيد كريفن مربية او معلمة؟ فقلت لها: لا، لم يفعل، بالرغم من ان السيدة ميدلوك تقول انه سيفعل ذلك عندما تفكر بذلك، ولكنها تقول انه لن يفعل ذلك قبل مرور سنتين او ثلاث سنوات.

فقالت ميري محتدة: انا لااريد معلمة.

ولكن امي تقول يجب ان تتعلمي كتابك في هذا العمر وينبغي ان تكون لديك امرأة تهتم بك وتقول: فكري يا مارثا كيف تشعرين انت نفسك في بيت كبير مثل ذلك وتتجولين وحدك وليس لك ام. حاولي جهدك ان تسليها، فقلت لها سافعل ذلك.

ونظرت اليها ميري نظرة طويلة ثابتة.

وقالت: انك فعلاً تسليني. ويعجبني ان اسمعك تتحدثين.

وخرجت مارثا في الحال من الغرفة وعادت تحمل شيئاً بيديها تحت مئزرها.

وقالت فرحة: ماذا تعتقدين؟ جلبت لك هدية.

— هدية!

تعجبت ميري كيف يمكن لمن يسكن في كوخ مليئ بأربعة عشر شخصاً، جائعين ان يقدم هدية!

فاوضحت مارثا قائلة: كان رجل يسوق عبر المروج واوقف عربته لدى بابنا. كان عنده قدور واوان واشياء اخرى، ولكن امي لم يكن لديها المال لتشتري شيئاً. وما كان يذهب حتى صاحت اختنا اليزابث ايلين: اماه، عنده حبل للقفز ذو مقبضين بلون احمر وازرق. فصاحت امي فجأة: ياهذا، قف، ياسيد! كم سعرها؟ فقال: بنسان – عشرة فلوس – وبدأت امي تبحث في جيبها وقالت لي.: مارثا، انت جلبت ليّ أجرتك مثل كل فتاة طيبة، ولدي اربعة اماكن اصرف فيها كل فلس، ولكن سوف اقتطع منها ثمن حبل القفز لأشتريه لتلك الطفلة، واشترته لك. وهاهوذا واخرجته من تحت مئزرها وعرضته لها بكل فخر. كان حبلاً قوياً لطيفاً مقبض احمر وازرق في كل طرف، ولكن ميري لم تر في حياتها حبلاً. فنظرت اليه بشيئ من الحيرة.

وسألتها: لاي شيئ هو؟

فصاحت مارثا: لاي شيئ! هل تقصدين أنهم في الهند لايملكون حبلاً للقفز، وليس لديهم الا الافيال والنمور والجمال؟ هو لهذا الشيئ. انظري الي.

وركضت الى وسط الغرفة وأخذت في كل يد مقبضاً وبدأت تقفز وتقفز وتقفز، والتفت ميري في كرسيها لتنظر اليها، وبدت الوجوه الغريبة في الصور القديمة تحدق فيها أيضاً،

وتتساءل عن وقاحة هذه القروية تحت أنظارهم. ولكن مارثا لم ترهم، وافرحها وجه ميري الذي كان يعلوه الاهتمام والاستغراب، وظلت تقفز وتعد وهي تقفز حتى بلغت المئة.

وقالت عندما توقفت: أستطيع اقفز اكثر من ذلك. وعندما كنت في الثانية عشرة من عمري كنت اقفز خمس مئة، ولكنني لم سمينة كما انا اليوم وكنت مستمرة على الممارسة.

نهضت ميري من كرسيها وبدأت تشعر بالانفعال والحماسة.

وقالت: هل تعتقدين انني يمكنني ان اقفز مثلك؟

فقالت مارثا وهي تناولها الحبل: جربي فقط. لاتستطيعين ان تبلغي مئة اول الامر! ولكن اذا مارست ذلك فانك ستزدادين.

وهذا هو ماقالت امي. وهي تقول: لاشيئ ينفعها اكثر من حبل القفز، انه افضل لعبة للطفل. لتلعب في الهواء الطلق وتقفز لان ذلك يمط ذراعيها وساقيها ويعطيهما شيئاً من القوة.

من الواضح ان ميري لم تكن تمتلك قوة كبيرة في ذراعيها وساقيها عندما بدأت تقفز اول مرة. ولم تكن بارعة جداً في ذلك ولكنها احبت القفز كثيراً بحيث لم تكن تريد ان تتوقف.

وقالت مارثا: البسي أشياءك واخرجي واقفزي خارج البيت. امي تقول اخبريها ان تبقى في الخارج اكثر ماتستطيع حتى عندما تمطر قليلاً، لذلك البسي جيداً، لتدفئي.

ارتدت ميري معطفها وقبعتها واخذت الحبل على ذراعها وفتحت الباب لكي تخرج ثم فكرت بشيئ فجأة وعادت ببطء.

وقالت: مارثا، انه من اجرتك، انه من مالك حقاً. شكراً لك.

قالت ذلك بشيءٌ من الجفاف لانه لم تتعود على شكر الناس او ملاحظة انهم كانوا يقومون بالاشياء من أجلها. قالت شكراً ومدت يدها لانها لاتعرف ان تفعل غير ذلك.

وصافحتها مارثا بطريقة غير بارعة، كأنها لم تكن معتادة على هذا النوع من الاشياء. ثم ضحكت.

وقالت: اي! انك شخص غريب الاطوار مثل أمرأة عجوز، لو ان اختي اليزابيث أيلين بمكانك لقبلتني.

وبدت ميري اكثر جفافاً من ذي قبل.

– هل تريدنني ان اقبلك؟

وضحكت ميري مرة اخرى.

واجابتها: لا، لااريد. اركضي والعبي في الخارج بالحبل.

وشعرت ميري بشيءٌ من الارتباك وهي تخرج من الغرفة لان اهالي يوركشير يبدون اناساً غريبين، وكانت مارثا دائماً لغزاً بالنسبة اليها. كانت تكرهها في بداية الامر ولكنها الان لاتفعل ذلك.

كان حبل القفز شيئاً رائعاً. صارت تقفز وتعد وتقفز وتعد حتى احمر خداها تماماً، وكانت فرحة مهتمة بلعبتها اكثر من اي وقت منذ ولادتها. كانت الشمس مشرقة والنسيم متحركاً – ليس كالريح العاتية – يحمل معه عطر أرض محروثة كلما هبت

نفحاته. وقفزت أخيراً في حديقة المطبخ ورأت بين ويذرستاف يحضر ويتحدث الى ابي الحناء الذي كان يقفز حوله. وصارت تقفز وتتقدم نحوه فرفع رأسه ونظر اليها مستغرباً. وتساءلت في نفسها هل سيلاحظها.

فقد كانت في الحقيقة تود ان يراها وهي تقفز.

فتعجب قائلاً: ممتاز! ولله لقد تحسنت، ولعل دماء الطفولة صارت تجري في عروقك بدلاً من الحليب. لقد وثبت الحمرة الى خديك. ماكنت اصدق انك تستطيعين ان تفعلي ذلك.

فقالت ميري: لم اقفز قبل هذا. بدأت تواً. واستطيع ان اصل الى عشرين.

فقالت بين: استمري على ذلك وسوف يحسن الى شكلك عندما تصبحين شابة. انظري الى ابي الحناء يتفرج عليك. لقد تبعك أمس وسوف يتبعك اليوم ايضاً ليعرف ماهو حبل القفز فلم ير واحداً مثله، ثم قال موجهاً كلامه الى ابي الحناء، ان فضولك سيجلب لك حتفك يوماً اذا لم تكن حذراً.

وراحت ميري تقفز في جميع الحدائق وفي البستان وترتاح دقائق قليلة، ثم اتجهت نحو الممشى الخاص وقررت ان تقطع المسافة كلها قفزاً. ولكن قبل ان تصل الى منتصف المسافة في الممر شعرت بالحرارة وانقطع تنفسها فتوقفت، ولم تهتم كثيراً لانها وصلت الى الثلاثين. توقفت واطلقت ضحكة صغيره من الفرح والسرور، ونظرت وشاهدت ابي الحناء يتأرجح على غصن

طويل من اغصان اللبلاب. تبعها وحياها باغرودة من اغاريده. وعندما قفزت ميري نحوه، شعرت بشيءٍ ثقيل في جيبها يضرب كلما قفزت، ولما رأت ابي الحناء ضحكت مرة اخرى.

وقالت: انت اريتني المفتاح امس، وينبغي لك ان تدلني على الباب اليوم. ولكن اظن انك لاتعرف مكانه .

وطار ابو الحناء من غصن اللبلاب المتأرجح الى اعلى السور وفتح منقاره وغرد اجمل اغنية بصوت عالٍ متباهياً ولااجمل في الدنيا من ابي حناء يتباهى – وهي دائماً تفعل ذلك.

سمعت ميري كثيراً عن السحر في حكايات مربيتها الهندية وقالت الآن ان مايحدث هو السحر بعينه.

وانحدرت نفحة صغيرة عذبة من النسيم الى الممشى وكانت أقوى من غيرها فحركت غصون الشجر ولكنها لم تقو، على تحريك عساليج اللبلاب غير المشذبة المتدلية من السور.

واقتربت ميري من ابي الحناء، وحركت نسمة قوية بعض الاغصان المتدلية ونحتها جانباً فوثبت ميري نحوها في الحال ومسكتها بيدها لانها رأت تحتها شيئاً – رأت مقبضاً كروياً غطته الاوراق المتدلية. كان مقبض الباب.

ومدت يدها تحت الاوراق وبدأت تدفعها جانباً. كانت تشبه ستارة كثيفة من اللبلاب المتدلي، وتسلق بعضه على الخشب والحديد. وبدأ قلبها يخفق ويداها ترتعشان قليلاً فرحاً وانفعالاً. وواصل ابو الحناء تغريده وسقسقته ويمل برأسه جانباً

كأنه كان منفعلاً مثلها. ماهذا الذي تحت يديها الذي كان مربع الشكل مصنوع من الحديد ووجدت اصابعها فيه ثقباً؟

انه قفل الباب الذي ظل مقفلاً عشر سنوات، ودست يدها في جيبها واخرجت المفتاح ووضعته في الفتحة، وادارته واستعملت يديها الاثنتين، فاستدار.

وسحبت نفسها طويلاً ونظرت وراءها في الممشى الطويل لترى ان كان ثمة احد آتياً. لم يأت احد. يبدو أنه لايأتي احد الى هذه الناحية واخذت نفساً طويلاً اخر فلم تتمالك الا ان تفعل ذلك، وسحبت ستارة الباب المتأرجح ودفعت الباب الذي انفتح بطيئاً – بطيئاً.

ثم تسللت خلال الباب، واغلقته وراءها. ووقفت وظهرها اليه، تتطلع حولها وتتنفس بسرعة من الانفعال.، والدهشة والبهجة.

كانت واقفة داخل الحديقة السرية.



٩ ـ اغرب بيت يعيش فيه انسان

كان ابدع الاماكن واكثرها سرية يمكن أن يتخيله آلمرء. كانت الجدران التي تحيط به تغطيها سيقان ورود متسلقة جرداء من الاوراق وكانت كثيفة جداً متشابكة. عرفت ميري أنها ورود لانها سبق أن رأت كثيراً من الورود في الهند. كانت الارض مغطاة بالاعشاب الشتوية البهية اللون، وقد نما من بينها كتل من شجيرات الورد التي تفرعت غصونها كثيراً فبدت كأنها أشجار صغيرة. وثمة أشجار أخرى في الحديقة ومن الاشياء التي جعلت الحديقة تبدو غريبة وجميلة هي الورود المتسلقة على الاشجار التي تدلت منها حوالق طويلة صنعت ستائر خفيفة متدلية، وتشابكت ببعضها البعض هنا وهناك أو فوق غصن عال، او تسلقت من شجرة الى اخرى وكونت قناطر جميلة.

ولم تكن في هذا الوقت فيها اوراق او ورود، ولم تكن ميري تدري فيما اذا كانت ميتة او حية، غير ان أغصانها وعساليجها

الرقيقة الرمادية او البنية بدت كأنها حجاب شبه شفاف ينتشر فوق كل شيءٌ من جدران واشجار وحتى العشب الرمادي حيث هوت من حواملها وزحفت على الارض. هذا التشابك الممتد من شجرة الى أخرى جعلها تبدو غامضة، سرية. واعتقدت ميري أنها تختلف عن الحدائق الاخرى التي تركت طويلاً تنمو وحدها، وهي فعلاً تختلف عن اي مكان آخر رأته في حياتها.

فهمست قائلة: ماأشد هدوءها! ماأشده!

ثم انتظرت لحظة واصغت في ذلك السكون. وكان طائر ابي الحناء، الذي طار الى قمة شجرته وظل ساكناً مثل كل شيءٌ. لم يرفرف بجناحيه بل بقي بلا حركة ينظر الى ميري.

ثم همست مرة أخرى: لاعجب اذا كان كل شيءٌ ساكناً فاني اول انسان يتكلم هنا منذ عشر سنوات.

وابتعدتعن الباب بخطى هادئة كأنها تخشى أن توقظ أحداً.

وفرحت أن يكون تحت قدميها عشب فلم يخرج صوت لدى مشيها. وسارت تحت أحد الاطواق بين الاشجار كأنه من عالم الجن ونظرت الى الاعلى نحو العساليج والحوالق التي صنعت ذلك الطاق.

وقالت: عجبا، أكلّ شيءٌ هنا ميت؟ وهل الحديقة كلها ميتة ؟ عسى أن تكون كذلك !

لو أنها كانت الفلاح بين ويذرستاف لعرفت فيما اذا كانت الشجرة حية أم ميتة بمجرد النظر اليها، ولكنها لاتستطيع أن ترى

الا اغصاناً رمادية أو بنية، ولم يبد على اي منها حتى برعم صغير.

غيرأنها كانت في داخل الحديقة العجيبة وتستطيع أن تدخلها من الباب تحت نباتات اللبلاب وشعرت كأنها وجدت عالماً جديداً خاص بها.

كانت الشمس مشرقة داخل الاسوار الاربعة. وبدا هذا الجزء من القبة السماوية أكثر تألقاً ورقة مما هو فوق المروج. ونزل ابو الحناء من غصنه العالي وصار يقفز حولها وطار وراءها من شجيرة الى أخرى. وسقسق كثيراً كأنه مهتم أن يريها أشياء.

كان كل شيئ غريباً صامتاً، وبدت كأنها على بعد مئات من الاميال من الناس ولكنها، مع ذلك، لم تشعر بالوحشة قط. وكان كل مايثير قلقها أن تعرف فيما اذا كانت اشجار الورود ميتة ام ان بعضها سيورق وسيزهر عندما يدفأ الجو. واذا كانت الحديقة حية، فانها ستكون شيئاً رائعاً وستنمو الآف الورود في كل مكان.

كان حبل القفز معلقاً على ذراعها عندما دخلت الحديقة، وفكرت بعد أن تجولت قليلاً ان تقفز حول الحديقة كلها وتتوقف عندما تود النظر الى شيئ. ويبدو أنه كانت ممرات من العشب هنا وهناك، وكان في ركن اوركنين من الحديقة مختلى مظلل كالقبة من النباتات الدائمة الخضرة فيها مقاعد حجرية او جرار زهور كستها الطحالب.

وتوقفت عن القفز عندما وصلت قرب المختلى الثاني، كان

فيه لوح يزرع سابقاً بالزهور وظنت انها رأت شيئاً ناتئاً من التربة السوداء - شيئاً صغيراً مدبباً لونه أخضر فاقع. وتذكرت ماقال لها بين ويذرستاف فبحثت لتنظر الى تلك الاشياء.

وهمست: اجل، انها اشياء صغيرة نامية، ولعلها زعفران او نرجس او زهور اللبن الثلجية.

وانحنت عليها واستنشقت عطر الارض الرطبة العذب، واعجبها كثيراً وقالت: لعل نباتات اخرى نابعة في اماكن اخرى. سأتجول في جميع ارجاء الحديقة لالقي نظرة.

ولم تقفز بل سارت وئيداً وعيناها على الارض. ونظرت الى الواح الزهور القديمة وبين الاعشاب، وبعد ان دارت في الحديقة محاولة ان لايفوتها شيء، وجدت نباتات خضر شاحبة نابعة من التربة وفرحت كثيراً.

وهتفت لنفسها بصوت واطئ: انها ليست حديقة ميتة. وحتى اذا كانت الورود ميتة فان هناك أشياء أخرى حية.

لم تكن تعرف شيئاً عن البستنة ولكن العشب كان يبدو كثيفاً في بعض الاماكن. حيث كانت النبتات الخضر تشق طريقها بينه، ففكرت في نفسها انه لم يكن مجال كاف لكي تنمو. وبحثت حولها فوجدت قطعة حادة من خشب حاد وجثت على ركبتها وحفرت الارض وقلعت الادغال والاعشاب حتى جعلت المكان نظيفاً حولها.

وقالت بعد أن انتهت من هذه النبتات: تبدو الآن كأنها

تستطيع التنفس. سافعل كل ماستطيع. واذا لم يكن لدي وقت اليوم فاستطيع ذلك غدا.

وذهبت من مكان الى آخر وحفرت وازالت الاعشاب والادغال واستمتعت بذلك كثيراً فصارت تتحول من لوح زهور الى آخر ثم الى العشب تحت الاشجار. وجعلها العمل تشعر بالدفئ فخلعت معطفها اولاً ثم قبعتها وصارت تبتسم دون علمها للاعشاب والنبتات الخضر الشاحبة طوال الوقت.

وكان ابو الحناء منشغلاً جداً، ومسروراً برؤية اعمال البستنة تجري في ضيعته. وتساءل في نفسه عن بين ويذرستاف الذي اينما كان يعمل، فان جميع أنواع النباتات التي تؤكل تظهر من التربة. والآن جاءت هذه الفتاة اللطيفة التي لم تكن تساوي نصف حجم بين ولكنها دخلت حديقته وبدأت العمل في الحال.

اشتغلت الانسة ميري في حديقتها حتى حان وقت ذهابها الى طعام الغداء. تأخرت في الحقيقة في تذكر ذلك، وعندما ارتدت معطفها وقبعتها والتقطت حبل القفز، لم تصدق أنها اشتغلت ساعتين أو ثلاث ساعات. كانت فرحة، سعيدة طوال الوقت. واصبح من الممكن رؤية عشرات وعشرات من النبتات الخضر الفاقعة في اماكن نظيفة بدت اروع مما كانت تخنقها الاعشاب والادغال وتكتم أنفاسها.

— ساعود عصراً.

وتلفتت حول مملكتها الجديدة، وتكلمت الى الاشجار ونباتات الورود كأنها تسمع حديثها.

ثم اخذت تجري فوق العشب وفتحت الباب القديم، وتسللت تحت اللبلاب، وقد احمر خداها وأشرقت عيناها وتناولت غداءها بشهية مما اسر مارثا.

وقالت مارثا: قطعتان من اللحم ولقمتان من حلوى الرز! ستفرح امي كثيراً عندما أخبرها عما فعل لك حبل القفز.

اثناء الحفر بالعود المدبب وجدت ميري نوعاً من الجذور البيض التي تشبه البصل. اعادتها الى اماكنها ورتبت التربة فوقها باهتمام وتساءلت في نفسها، الآن، هل يمكن أن تخبرها مارثا ماهي تلك الجذور.

فسألتها: مارثا، ماهي الجذور البيض التي تشبه البصل؟

اجابت مارثا: هي ابصال تنمو منها كثير من زهور الربيع. الصغيرة جداً هي زهور اللبن الثلجي والزعفران، والكبيرة هي النرجس بانواعه، النرجس الاعتيادي والاصفر والاسلي، واكبرها الزنبق والسوسن الارجواني. انها لطيفة. زرع ديكون كثيراً منها في حديقتنا الصغيرة.

فسألتها ميري وقد خطرت ببالها فكرة جديدة: هل يعرف ديكون كل شيء عنها.

– يستطيع ديكون أن يجعل الزهرة تنمو حتى في جدار صخري. امي تقول انه يهمس للاشياء فتخرج من الارض.

– هل تعيش الابصال مدة طويلة ؟ هل تعيش سنوات وسنوات اذا لم يساعدها أحد.

فاجابت مارثا على سؤال المتلهف: انها اشياء تساعد نفسها بنفسها. ولهذا يستطيع الفقراء زراعتها. واذا لم يضرها احد فان اغلبها يظل عمراً تحت الارض وتنتشر ويكون لها صغار. يوجد في غابة المتنزه مكان تكثر فيه ازهار اللبن الثلجية بالالاف. انها اجمل منظر في بوركشير عندما يحل الربيع.

ولايعرف أحد متى زرعت اول مرة.

فقالت ميري: أتمنى لو يجئ الربيع الى هنا. اود ان ارى كل الاشياء التي تنمو في انكلترة.

انتهت من غدائها وذهبت الى مقعدها المفضل على بساط الموقد.

وقالت: أتمنى – أتمنى لو ان لدي مسحاة صغيرة.

فسألتها مارثا ضاحكة: لماذا تريدين المسحاة ؟ هل ستعملين في الفلاحة: يجب ان أخبر والدتي بذلك ايضاً.

نظرت ميري الى النار وفكرت قليلاً يجب أن تكون حذرة نابهة اذا ارادت الاحتفاظ بمملكتها السرية. فهي لم تضر أحداً، ولكن السيد كريفن سيغضب غضباً شديداً ويصنع مفتاحاً جديداً ويقفلها الى الابد، اذا ماكتشف امر الباب المفتوح.

وقالت بتؤدة كأنها تقلب الامور في فكرها: هذا مكان كبير وموحش ومنعزل. البيت موحش والمتنزه موحش والحدائق

موحشة. كثير من الاماكن مقفل. لم أقم باعمال كثيرة في الهند ولكن فيها أناساً أكثر يتفرج عليهم الانسان – مواطنون وجنود، وأحياناً أسواق تعزف وتمثل، ومربيتي تقص علي حكايات. اما هنا فلايوجد أحد يتحدث اليه الانسان غيرك وغير بين ويذرستاف. وأنت مشغولة بعملك، وبين لايريد الحديث معي في احيان كثيرة. فكرت لو أن عندي مسحاة صغيرة لامكنني أن أحفر وأحرث في اي مكان كما يفعل بين وان اصنع حديقة صغيرة اذا ما اعطاني بعض البذور.

واشرق وجه مارثا.

وهتفت: اسمعي! هذا شيئ لم تقله امي. يوجد مجال واسع في ذلك المكان الكبير، لماذا لايعطونها قطعة منه، ان لم تزرع فيها شيئاً، فيمكنها أن تزرع البقدونس والفجل. يمكنها أن تفلح وتجمع الاوراق وتقلب التربة وسيسعدها ذلك كثيراً. هذه هي كلمات أمي بحذافيرها.

فقالت ميري: اصحيح؟تعرف أشياء كثيرة، اليس كذلك؟

فقالت مارثا: اي! فهي كما تقول: المرأة التي تنجب اثني عشر طفلاً تتعلم وتربيهم تتعلم شيئاً بالاضافة الى معلوماتها الاولية في الحروف والحساب تمكنها معرفة الامور وحلها.

سألت ميري: كم تكلف المسحاة – مسحاة صغيرة؟

فاجابت مارثا مفكرة: حسناً، يوجد في قرية ثوابت دكان أو اكثر رأيت فيه ادوات بستنة صغيرة معها مسحاة ومدمة

(خرماشة) ومذراة مربوطة معاً بشلتين. وهي قوية جداً صالحة للعمل.

فقالت ميري: عندي أكثر من ذلك المبلغ في محفظتي. أعطتني السيدة مورسن خمسة شلنات، والسيدة ميدلوك أعطتني بعض المال من السيد كريفن.

فهتفت مارثا قائلة: هل تذكرك بهذا القدر ؟

– قالت السيدة ميدلوك أنني ساحصل على شلن واحد في الاسبوع لمصرفي. تعطيني اياه كل يوم سبت. ولا ادري على اي شيء أصرفه.

فقالت مارثا: ياإلهي ! هذه ثروة. يمكن أن تشتري اي شيء تريدينه في هذه الدنيا. ايجار بيتنا شلن واحد وثلاثة بنسات فقط وهو مبلغ صعب علينا اداءه، فهوكمن يقلع اسنانه. ولكن لدي فكرة عن شيء.

ووضعت يديها على خاصرتيها.

فسألت ميري متلهفة: ماهو ؟

– في دكان قرية ثوايت يبيعون علباً من بذور الزهور، كل واحد ببنس ويعرف أخي ديكون ايها اجملها وكيف يمكن زراعتها. وهو يذهب في كثير من الايام الى هناك للهو واللعب. اتعرفين كيف تطبعين رسالة ؟

فاجابت ميري: أعرف كيف أكتب.

فهزت مارثا رأسها.

– ديكون يستطيع قراءة المطبوع فقط. لو تستطيعين ان تطبعي لكتبنا رسالة نطلب منه أن يذهب لشراء ادوات الحديقة والبذور في الوقت نفسه.

فصاحت ميري: اوه ! أنت فتاة طيبة ! أنت حقاً كذلك ! لم أكن أعرف أنك لطيفة بهذا القدر. أنا أعرف طبع الرسائل اذا ماحاولت.

دعينا نطلب من السيدة ميدلوك قلماً وحبراً وورقاً.

فقالت مارثا: أنا عندي هذه الشياء. اشتريتها لكي أطبع رسالة صغيرة لامي يوم الاحد سأذهب لأجلبها.

وخرجت راكضة من الغرفة ووقفت ميري بجانب النار وهي تفرك يديها من فرط السرور.

ثم همست: اذا حصلت على مسحاة، فاني أستطيع أن أجعل الارض الطف وانعم واقتلع الادغال. واذا كان لدي بذور واستطيع زرع الزهور فان الحديقة لن تموت ابداً – ستعيش.

ولم نخرج عصر ذلك اليوم لان مارثا تأخرت عندما ذهبت لجلب القلم والحبر والورق، فقد اضطرت لتنظيف المائدة وحمل الصحون والاواني الى الطابق الاسفل وعندما دخلت المطبخ كانت السيدة ميدلوك هناك وكلفتها ببعض الاعمال. فانتظرت ميري مدة بدت لها طويلة قبل أن ترجع مارثا ثم أن كتابة رسالة الى ديكون كانت مسألة مهمة. كان تعليم ميري بسيطاً لان معلمتها كانت لاتحبها فلم تجلس معها طويلاً لتعليمها. ولم تكن

تعرف التهجي جيداً. ولكنها استطاعت أن تطبع الرسائل عندما حاولت القيام بذلك. وهذه هي الرسالة التي أمليت عليها:

عزيزي ديكون،

عسى أن تصلك رسالتي وأنت باحسن حال كما أنا في هذا الوقت. لدى الآنسة ميري كثير من المال فهل يمكنك أن تذهب الى ثوايت وتشتري لها بعض بذور الزهور ومجموعة من أدوات البستنة لكي تزرع لوحاً من زهور.

انتق أجمل الزهور وأسهلها زراعة لانها لم تجرب ذلك قط قبل هذا فقد كانت تعيش في الهند التي تختلف عن هذا المكان. بلغ محبتي الى أمي وكل واحد منكم. ستحدثني الآنسة ميري عن أشياء كثيرة تستطيعون سماعها مني في اجازتي القادمة عن الافيال والجمال والرجال الذين يصيدون الأسود والنمور.

أختك المحبة

مارثا فويب ساور باي

وقالت مارثا: ساضع النقود في الظرف واعطيه الى غلام القصاب ليأخذه في عربته. هو صديق ديكون الحميم.

فسألتها ميري: وكيف أحصل على الاشياء عندما يشتريها ديكون

— سوف يجلبها لك بنفسه، فهو يحب التنزه في هذا الاتجاه.

وهتفت ميري: اوه! اذن سوف أراه! ماكنت اظن أني سأرى ديكون.

وسألتها مارثا فجأة فقد بدت بذلك مسرورة للغاية: وهل تودين أن تريه ؟

– أجل، اود ذلك، فاني لم ار ولداً تحبه الثعالب والغربان. اود كثيراً أن اراه.

وجفلت مارثا قليلاً كأنها تذكرت شيئاً فجأة.

وقالت: الآن تذكرت، تذكرت مانسيت ذلك، وظننت أنني سأخبرك به أول شيء هذا الصباح سألت أمي وقالت أنها ستطلب الى السيدة ميدلوك بنفسها.

فقالت ميري: هل تقصدين

– ماقلت لك يوم الثلاثاء. تطلب منها أن تأتي أنت في العربة الى بيتنا يوماً وتتناولي شيئاً من الكيك الذي تصنعه أمي، والزبد وقدحاً من الحليب.

وبدا لها كأن جميع الاشياء الممتعة قد حدثت في يوم واحد: أن تخرج في نزهة في المروج في ضوء النهار عندما تكون السماء زرقاء! وان تذهب الى البيت الذي يضم اثني عشر طفلاً!

وسألت في لهفة شديدة: وهل تظن أن السيدة ميدلوك ستسمح لي بالذهاب ؟

– اي، نعم، تظن ذلك. فهي تعرف أن امي أمرأة مرتبة وبيتها نظيف.

– اذا ذهبت سأرى أمك وأخاك ديكون أيضاً. يبدو أنها ليست كالامهات في الهند.

وفكرت بذلك كثيراً واعجبتها الفكرة.

وانتهى عملها في الحديقة وانتعالها فرحاً في عصر ذلك اليوم بان جعلها هادئة متأملة. وبقيت مارثا معها حتى حان موعد الشاي. ولكن قبل أن تنزل مارثا لتأخذ صينية الشاي سألتها ميري سؤالاً:

فقالت: أما زالت خادمة غسل الصحون تعاني من ألم الاسنان اليوم أيضا؟

جفلت ميري قليلاً.

وقالت: ماالذي جعلك تسألين هذا السؤال ؟

– عندما انتظرت عودتك طويلاً، فتحت الباب ومشيت في الممر لارى مجيئك، فسمعت ذلك البكاء البعيد مرة أخرى، كما سمعناه في تلك الليلة.

ولم تكن، اليوم، الريح موجودة، فهي اذن لايمكن أن تكون الريح.

فقالت مارثا، غير مرتاحة: اي ! يجب أن لاتخرجي وتسيري في الممرات وتتسمعي، لان كريفن سيغضب كثيراً، ولاندري ماذا سيفعل عند ذاك.

فقالت ميري: لم أكن أتسمع. كنت أنتظرك فقط – فسمعت ذلك

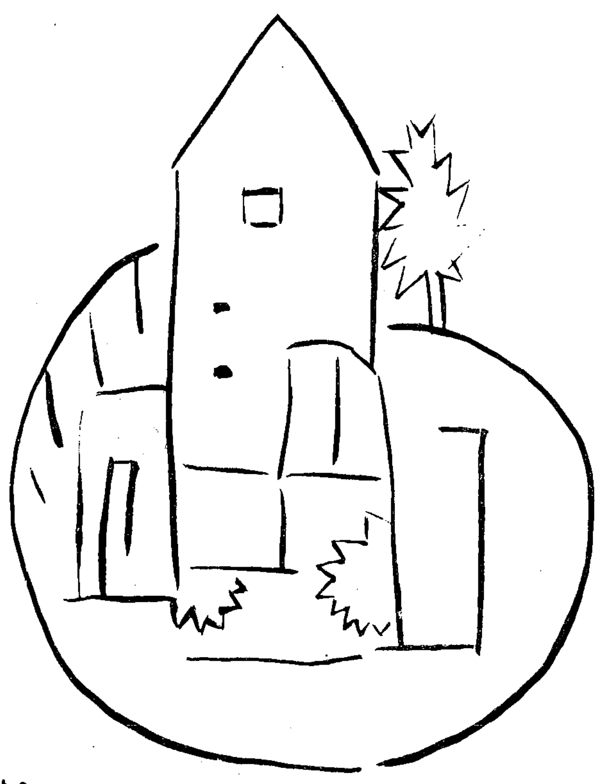
هذه هي المرة الثالثة.

– ياالهي هذا هو جرس السيدة ميدلوك.

وخرجت مارثا راكضة من الغرفة.

- انه اغرب بيت يسكنه إنسان.

قالت ميري ذلك وهي تشعر بالنعاس. ووضعت رأسها على وسادة المقعد ذي المسندين قربها وجعلها الهواء العذب وحفر الارض والقفز بالحبل تشعر بتعب مريح فاستغرقت في نومها.





١٠ - ديكون

ظلت الشمس مشرقة قرابة اسبوع على الحديقة السرية تلك التي أطلقت عليها ميري هذا الاسم عندما كانت تفكر بها. واعجبها الاسم واعجبها اكثر من ذلك شعورها عندما تكون في داخلها وتحيط بها اسوارها العتيقة ولا يعرف بها احد. كانت تبدو منعزلة عن العالم في مكان خاص بالجن. كانت الكتب القليلة التي قرأتها واعجبتها بها كتب حكايات جان. ينام الناس فيها احياناً مئة عام، وتعتقد ميري انها فكرة بلهاء غير معقولة، ولم يكن في نيتها ان تنام فيها، بل بالعكس من ذلك كانت اكثر يقظة كلما مرت عليها الايام في هذه المنطقة. بدأ يعجبها الخروج من البيت الكبير. ولم تعد تكره الريح بل تستمتع بها. وصارت تستطيع ان تركض اسرع واطول، وتقفز مئة قفزة بالحبل. ولعل الابصال في الحديقة السرية اكثر دهشة. فقد جعلت الاماكن حولها نظيفة فصار المكان متسعاً لها كافياً لتنفسها كما تشاء، ولم تكن الانسة ميري تدري ان الابصال بدأت تفرح تحت الارض

المظلمة وتنمو بصورة سريعة مذهلة، لان الشمس تستطيع الوصول اليها وتدفئها، وعند نزول المطر فانه يستطيع الوصول اليها في الحال، لذلك بدأت تشعر بالحيوية.

كانت ميري فتاة صغيرة ولكن لها ارادة عجيبة، وتركزت ارادتها هذه المرة في شيء ممتع، انهمكت فيه كثيراً. فكانت تعمل وتحفر وتقتلع الادغال بمثابرة، وزاد ذلك من سرورها بعملها كل ساعة بدلا من ان تشعر بالتعب منه. وبدأ مثل نوع أسر من اللعب. ووجدت نبتات خضر شاحبة كثيرة اخرجت شطئها فوق التربة. كانت كثيرة جدا فتذكرت ما قالت مارثا عن زهور اللبن الثلجية، بالآلاف وعن الابصال التي تنتشر لتخرج زهوراً جديدة اخرى. اما هذه فقد تركت وحدها عشر سنين ولعلها انتشرت ابصالها ايضاً مثل زهور اللبن الثلجية، بالآلاف وتساءلت في نفسها عن المدة التي تستغرقها لكي تظهر زهورها. وكانت احياناً تتوقف وتكف عن الحفر لتلقي نظرة الى الارض وتحاول ان تتصور كيف سيكون شكلها عندما تغطيها الاف الزهور الجميلة.

اصبحت ميري، في اثناء ذلك الاسبوع المشمس، اقرب صلة ببين ويذرستاف. فقد فاجأته عدة مرات بظهورها المفاجئ الى جانبه كأنها تبزغ من الارض، كانت في الحقيقة تخشى ان يلتقط ادواته ويذهب عنها اذا ما رآها قادمة، فكانت تسير باتجاهه بهدوء تام قدر استطاعتها غير انه في الحقيقة صار لا

يعارضها بشدة كما كان يفعل اول مرة ولعله كان في دخيلته يشعر بالسرور لرغبتها الجلية في صحبته، ثم انها اصبحت اكثر تحضراً من ذي قبل. ولم يكن يدري انها تكلمت اليه كما تتكلم الى شخص اجنبي عندما رأته اول مرة، ولم تعرف ان في ذلك اغاظة لهذا الكهل الذي لم يعتد على تأدية التحية لاسياده وتلقي الاوامر لاداء الواجبات.

قال لها ذات صباح عندما رفع رأسه ورآها واقفة بجانبه انت مثل ابي الحناء لا ادري ابداً متى اراك او من اي جهة تأتين.

فقالت ميري: انه صديقي الآن!

فعقب بين ويدرستاف على قولها: هذا شأنه فهو يتباهى امام النساء لابداء زهوه وخفته. ولا يبقي شيئا لا يفعله لاظهار خيلائه ويحرك ريش ذنبه حركة سريعة، من فرط غروره.

نادراً ما كان يتكلم كثيراً واحياناً لم يجب على اسئلة ميري الا بهمهمة، ولكنه، صباح هذا اليوم، تكلم اكثر من المعتاد. ووقف وضع حذاءه على مسحاته وهو ينظر اليها.

وسألها: كم مضى عليك هنا؟

فاجابته: اعتقد شهر تقريبا

ثم قال: هذه بداية فضل منطقة ميسيلثوابت عليك. فانت قد امتلأت اكثر مما كنت ولم تعودي شاحبة اللون. كنت مثل غراب صغير منتوف الريش عندما جئت الى الحديقة اول مرة. قلت في نفسي اني لم اشاهد فتاة اقبح منك واكثر تجهماً.

لم تكن ميري مزهوة بنفسها، ولم تفكر قبل هذا بمظهرها فلم تضطرب ولم يغظها كلامه.

فقالت: اعرف انني الان اسمن، فقد اصبحت جواربي أضيق. كانت قبلا تتغضن. ها هو ذا ابو الحناء يا بين ويدرستاف.

جاء ابو الحناء وتخيلت انه بدا اجمل من ذي قبل. كان صدره الاحمر لامعاً كالحرير، وكان يرفرف بجناحه ويحرك ذيله ويقفز هنا وهناك بكل صنوف الحركة الرشيقة. كان يبدو عازما ان ينال اعجاب بين ويدرستاف ولكن بين سخر منه.

فقال له: ها انت ذا! تستطيع احيانا ان تتحملني قليلاً عندما لا تجد من هو افضل مني. لقد زاد احمرار صدرك ولمعان ريشك هذين الاسبوعين. انا ادري ماذا يشغلك. ارى انك تتودد الى سيدة شابة في مكان ما وتحكي لها اكاذيبك بانك اجمل ديك في المنطقة وانك على استعداد ان تقاتل ايا منهم.

فدهشت ميري قائلة: اوه! انظر اليه!

كان ابو الحناء في حالة من عروض الشجاعة المذهلة. وصار يقفز اقرب فاقرب ونظر ملياً الى بين ويدرستاف. وطار الى شجرة الكشمش وامال رأسه وغرد اغنية صغيرة له.

– اتظن انك تتغلب عليّ بعملك هذا.

وغضن بين ويدرستاف وجهه بطريقة جعلت ميري تشعر انه كان يحاول ان يبدو غير مسرور. واضاف قائلا:



– تظن انه لا يستطيع احد ان يقف بوجهك – هذا ما تفكر فيه ونشر ابو الحناء جناحيه – ولم تكد ميري تصدق عينيها. طار وحط على مقبض مسحاة بين ويذرستاف. فتحول تغضن وجه الرجل العجوز ببطء الى نوع من تعبير جديد. ووقف ساكناً كأنه يخش ان يتنفس ولا يريد ان يعكر صفو هذه الدنيا، لئلا يجفل ابو الحناء ويطير مبتعداً وتكلم هامساً. وقال بصوت خافت كأنه يعني شيئاً مختلفاً تماماً.

– حسناً انا مغلوب. انت تعرف كيف تتغلب على المرء – تعرف فعلا! انت كائن غريب، خارق للطبيعة، تعرف كل شيء.

ووقف دونما حراك – يكاد لا يتنفس – حتى رفرف ابو الحناء بجناحيه مرة اخرى وطار – وظل يحدق في مقبض المسحاة كأن فيها سحراً، ثم راح يحفر الارض مرة اخرى وبقي صامتاً دقائق عديدة.

وكان يتمتم باستمرار بين حين واخر، فلم تخش ميري ان تتحدث اليه وسألته: هل عندك حديقة خاصة بك؟

– لا، انا عازب واسكن مع مارتن عند الباب الكبير

فقالت ميري: لو كانت عندك حديقة فماذا تزرعها؟

– لهانة وبصل

فاصرت على سؤالها الاول: ولكنك اذا اردت ان تزرع حديقة ورد فماذا تزرع؟

– ابصال واشياء اخرى ذات عطر طيب.

واشرق وجه ميري.

وسألته: هل تحب الورود؟

واقتلع بين ويدرستاف دغلاً والقاه جانبا قبل ان يجيب:

– نعم احبها علمتني ذلك سيدة شابة كنت بستانياً لديها. وكان عندها كثير منها في حديقتها وكانت مغرمة بها وتحبها كأنها اطفال او طيور ابي الحناء كنت اراها تنحني عليها وتقبلها – ثم اقتلع دغلاً اخر وقطب – كان ذلك قبل عشر سنوات.

فسألت ميري وهي شديدة الاهتمام بذلك: واين هي الآن؟

واجابها قائلا: في الجنة كما يقول القس.

وغرز مسحاته عميقا في التربة.

وسألته ميري مرة اخرى وهي اشد اهتماما من ذي قبل: وماذا حلّ بالورود؟

– تركت وحدها.

وانفعلت ميري كثيراً. فغامره بسؤاله

هل ماتت كلها؟ هل تموت الورود عندما تترك وحدها؟

واعترف بين ويدرستاف مكرها فقال: كنت احب الورود واود السيدة وهي تودني. وكنت اذهب في السنة مرة واحدة او مرتين واعمل في الحديقة واشذب الورود واقلب التربة حول جذورها، وصارت تنمو كالنباتات البرية غير انها في تربة خصبة لذلك عاش بعضها.

فاستفسرت منه ميري: اذا لم يكن فيها اوراق وتبدو رمادية

وبنية وجافة، فكيف تعرف فيما اذا كانت ميتة او حية؟

– انتظري حتى يجيء الربيع اليها – انتظري حتى تشرق الشمس على المطر، ويسقط المطر على ضوء الشمس. عند ذلك ستعرفين.

فصاحت ميري وقد نسيت حذرها: كيف – كيف؟

– انظري بين الغصون والفروع، واذا رأيت كتلة صغيرة جدا بنية اللون منتفخة هنا وهناك، وراقبيها بعد المطر الدافيء. سترين ماذا يحدث ثم توقف فجأة ونظر مستغربا الى وجهها المتلهف وسألها:

– لماذا صرت تهتمين كثيرا بالورود على نحو مفاجيء؟

وشعرت ميري ان وجهها اصبح احمر وخشيت ان تجيب فتلعثمت قائلة: اود ان اتظاهر انني – انني املك حديقة خاصة بي. انا ليس لدي ما اقوم به. ليس لدي شيء – ولا احد.

فقال بين ويذرستاف ببطء وهو يراقبها: حسناً، هذا صحيح. ليس عندك شيء.

قال ذلك بطريقة غريبة جدا فتساءلت ميري في نفسها هل كان حقا متألما بشأنها: هي لم تشعر بالالم والاسف على نفسها. بل شعرت بالتعب والغيظ لانها كانت تكره الناس والاشياء كثيرا. ولكن العالم يبدو الان قد اخذ بالتغير والتحسن. واذا لم يكتشف احد امر الحديقة السرية فانها ستمتع نفسها كثيراً.

بقيت معه عشر دقائق او خمس عشرة دقيقة اخرى وسألته

اسئلة كثيرة اخرى بقدر ماواتتها جرأتها على ذلك. واجاب على كل واحد منها بطريقته الغريبة في الكلام وهو يغمغم، ولم يبد انه كان مغتاظا متضايقا ولم يلتقط مسحاته ويتركها. قال شيئا عن الورود وهي تغادره وذكرها ذلك بالورود التي قال انه كان مغرما بها.

فسألته: هل تذهب وترى تلك الزهور الآن؟

— لم اذهب هذه السنة. فقد تصلبت مفاصلي من الروماتزم.

قال ذلك بصوت متذمر، ثم بدا، فجأة، غاضباً عليها ولم تعرف موجبا لذلك.

فقال محتداً: انظري الي! لا تسألي اسئلة كثيرة، انت اسوأ فتاة في توجيه الاسئلة صادفتها في حياتي. اذهبي والعبي. انتهى الكلام معي اليوم.

قالها مغتاظاً فعرفت انه لا فائدة ترجى من البقاء دقيقة اخرى فذهبت تقفز على حبلها في الممشى الخارجي، وهي تفكر به وتردد في نفسها، بالرغم من غرابة ذلك، انه شخص آخر يعجبها بالرغم من انزعاجه وغيظه. اعجبها بين ويذرستاف العجوز. اجل اعجبها وكانت دائماً تود ان تحاول جعله يتحدث اليها. وبدأت تعتقد ايضا انه يعرف كل شيئ في الدنيا عن الزهور.

ثمة ممشى ذو سياج من شجيرات الغار يدور حول الحديقة السرية وينتهي عند باب تفتح الى غابة في المنتزه. فكرت ان

تقفز حول الممشى وتخرج الى الغابة وترى ان كان فيها ارانب تجري قافزة. تمتعت بالقفز كثيرا وعندما وصلت الى الباب الصغير فتحته ودخلت لانها سمعت صفيراً واطئا غريبا وارادت ان تعرف ما ذلك الصوت.

كان شيئاً غريباً فعلاً. وحبست انفاسها وهي تقف وتتطلع اليه. ولد جالس تحت شجرة، متكيٌ عليها، يعزف على مزمار خشبي. كان صبياً غريب الشكل في الثانية عشرة من عمره. كان نظيفاً جداً، انفه متجه الى الاعلى وخداه احمران كشقائق النعمان، ولم تر ميري مثل استدارة عينيه وزرقتهما في وجه اي صبي اخر. وكان على جذع الشجرة التي يتكيٌ عليها سنجاب بني ينظر اليه، ومن خلف شجيرة قريبة ديك دراج يمد عنقه يختلس نظرة، وقريب اليه ارنبان جالسان يتنشقان بانفين مرتعشين — وبدا كان الجميع صاروا يقتربون للتفرج عليه والاصغاء الى النغم اللطيف الغريب الواطيٌ الذي يخرجه مزماره.

وعندما رأته ميري مد يده وتكلم اليها بصوت خافت مثل انغام مزماره.

وقال: لا تتحركي، والا سيهربن.

وظلت ميري واقفة بلا حركة. وتوقف هو عن العزف واخذ ينهض من الارض ببطء كأنه لم يكن يتحرك قط، ثم وقف على قدميه اخيراً، ففر السنجاب متسلقاً اغصان الشجرة، واخفى ديك الدراج رأسه، وصارت الارانب تعدو قافزة، ولكنها

جميعاً لم تكن خائفة اطلاقاً.

وقال الصبي: انا ديكون. انا اعرف انك الانسة ميري.

وادركت ميري منذ اول الامر انها عرفت انه ديكون. من غيره يستطيع ان يسحر الارانب والدراج كما يسحر الهنود الافاعي؟ كان فمه احمر واسعا، وابتسامته تغطي جميع وجهه.

وشرح لها الامر: نهضت بطيئا لانك اذا قمت بحركة سريعة فانها تجعل على المرء ان يتحرك بلطف ويتكلم بصوت خافت عندما تحيط به المخلوقات البرية.

لم يتكلم اليها كأنهما لم يلتقيا ابدا ولكن كأنه كان يعرفها جيدا ولم تكن ميري تعرف شيئاً عن الاولاد، وتحدثت اليه بشيء من الجفاف لانها كانت تشعر بشيء من الخجل.

وسألته: هل تسلمت رسالة مارثا.

واومأ برأسه البني الشعر ذي الخصلات المجعدة

— وبهذا اتيت.

وانحنى ليلتقط شيئا ملقى على الارض بجانبه عندما كان يعزف.

— جلبت ادوات البستنة فيها مسحاة صغيرة و «خرماشة» ومذراة ومعزقة. وهي ادوات جيدة. ومعها مالج لرفع النباتات الصغيرة. ووضعت صاحبة الحانون مع البزور التي اشتريتها علبة بذور شقائق بيض وعلبة اخرى من بذور العائق الازرق.

فقالت ميري: هل ترني البذور؟

وتمنت لو تستطيع الحديث مثله. كان كلامه سريعاً وسهلاً. ويبدو كأنه كان معجبا بها ولا يخشى ابدا ان لا تعجب به بالرغم من كونه من ابناء المروج، في ملابس مرقعة وله وجه غريب وشعر خشن بلون الصدأ. ولما اقتربت منه شمت عطور زهر الخلنج والعشب والاوراق الطرية، كأنه صنع منها. واعجبها فيه ذلك، وعندما تطلعت في وجهه ذي الخدين الاحمرين والعينين الزرقاوين المدورتين نسيت شعورها بالخجل.

وقالت: دعنا نجلس على هذه الخشبة ونتفرج عليها.

وجلسا على الخشبة واخرج من جيب معطفه كيساً ورقياً بني اللون. وفك الخيط الذي يشده وكان في داخله اكياس كثيرة وصغيرة وعلى كل واحد منها صورة زهرة. هذه كثير من زهور البليحاء العطرية وشقائق النعمان. البليخاء اطيب الزهور رائحة وتنمو اينما تلقيها مثل شقائق النعمان وهي تكبر وتزهر اذا ما صفرت لها هي اجمل الزهور.

ثم توقف وادار رأسه سريعاً، واشرق وجهه المورد الخدين بلون شقائق النعمان.

وقال: اين ابو الحناء هذا الذي كأنه يدعونا.

تناهت اليهما سقسقته من شجيرة كثيفة تتآلف بثمر العليق الاحمر، وعرفت ميري صوت هذا الطائر.

فسألته: هل هو حقا ينادينا؟

فقال ديكون بلهجة طبيعية جدا: اي، نعم، انه يدعو

شخصا صديقاً حميماً اليه، كأنه يقول: ها انذا. انظري اليّ. اود الحديث اليك قليلاً.

– ها هو ذا في الشجيرة. لمن هو؟

اجابت: هو لبين ويذرستاف، ولكني اظن انه يعرفني قليلا:

فقال ديكون بصوته الخافت مرة اخرى: نعم هو يعرفك. وهو معجب بك سوف يخبرني كل شيء عنك حالا.

وسار وئيدا الى قرب الشجيرة كما فعل سابقا، واخرج صوتاً شبيهاً بتغريد ابي الحناء. اصغى الطائر لحظات قليلة، ثم اجاب كأنه يرد على سؤال.

وقهقهه ديكون قائلا: نعم انه صديقك.

فصاحت ميري متلهفة تود ان تعرف: اتظن انه يحبني حقا؟

فاجاب ديكون: انه لا يقترب منك اذا كان لا يحبك. الطيور دقيقة في الاختيار. وابو الحناء يمكن ان يسخر، اكثر من الانسان. انظري انه يغازلك ويقول: الا تستطيعين ان ترى صديقك؟

ويبدو كأنه حقاً كان يعاتبها. فصار يمشي جانبا كالحيي وغرد وتحدث وهو يقفز على الشجيرة.

فقالت ميري: هل تفهم كل شيء تقوله الطيور؟

فانتشرت ابتسامته على جميع وجهه الذي احمر وفرك شعره.

وقال: اظن انني افهم كل شيء وهي تعرف انني افهمها لقد عشت معها في المروج طويلا. راقبتها منذ ان فقست من البيضة ونبت ريشها وتعلمت الطيران وبدأت تغني حتى ظننت انني واحد منها. اظن احيانا انني طائر او ثعلب او ارنب او سنجاب او حتى خنفساء.

وضحك وعاد الى الخشبة وبدأ يتحدث عن الزهور وبذورها مرة اخرى واخبرها كيف سيكون شكلها عندما تصبح زهوراً. واخبرها ايضا كيف تزرعها. وتراقبها وتغذيها وتسقيها.

واستدار فجأة لينظر اليها وقال: انظري، سوف ازرعها لك بنفسي اين الحديقة؟

وقبضت يد ميري يدها الاخرى بقوة وهما في حجرها، ولم تدر ما تقول، فظلت ساكنة دقيقة كاملة: فهي لم تفكر بذلك. وشعرت بالحرج. وشعرت كأنها احمرت ثم اصفرت.

فسألها ديكون: عندك حديقة صغيرة، اليس كذلك؟

احمر وجهها حقا ثم اصفر. رآها ديكون في هذه الحالة. ولما لم تجبه بشيء، تحير في الامر.

وسألها: الا يعطونك قطعة صغيرة. اليس لديك قطعة صغيرة لحد الان؟

وشدت قبضتها وادارت عينيها نحوه وقالت ببطء:

– انا لا اعرف شيئا عن الاولاد هل تحتفظ بالسر، اذا اخبرتك بشيء. انه سر عظيم ولا ادري ماذا افعل اذا ما علم احد بذلك

واعتقد اني ساموت.

نطقت الجملة الاخيرة بحدة. وزادت حيرة ديكون وصار يفرك شعره الخشن بيده ولكنه اجابها بدماثة.

فقال: اني احفظ الاسرار طوال الوقت. اذا كنت لا استطيع ان احفظ الاسرار عن الصبيان الاخرين، اسرار بصدد صغار الثعالب واعشاش الطيور حجور الحيوانات البرية، فلن يكون امن وسلام في المروج نعم، اني استطيع الاحتفاظ بالاسرار.

لم ترد ميري ان تمد يدها وتمسك ردنه، ولكنها قالت بسرعة شديدة: سرقت حديقة وهي ليست لي. هي لشخص اخر. ولكن لا يريدها احد ولا يهتم بها احد، ولابد فلها احد. ولعل كل شيئ فيها ميت الان. لست ادري.

وبدأت تشعر بالحرارة وانها ليست كالاخرين كما كانت تشعر في السابق.

– انا لا يهمني ذلك، لا يهمني ! ليس لاحد حق ان يأخذها مني اذا ما اعتنيت بها ولا يعتني بها احد غيري. انهم اهملوها فماتت وهي مغلقة.

ثم وضعت يديها على وجهها وانفجرت باكية – مسكينة ميري.

واصبحت عينا ديكون الزرقاوان اكثر استدارة من اللهفة والفضول وقال لها «اي ي ي !» متعجبا وحانيا عليها في الوقت

نفسه.

فقالت ميري: ليس لدي ما اعمله. وليس لدي شيءُ املكه. انا وجدتها بنفسي ودخلت فيها وحدي. كنت مثل ابي الحناء تماما وهم لا يستطيعون اخذها من أبي الحناء.

فسأل ديكون بصوت خفيض: واين هي؟

ونهضت ميري عن الخشبة في الحال وعرفت انها اصبحت عنيدة مرة اخرى. ولم تبالي مطلقا وشعرت بالحرارة والحزن.

وقالت: تعال معي. سوف اريك اياها.

وقادته حول ممر شجيرات الغار والى الممشى حيث ينمو اللبلاب بشكل كثيف وتبعها ديكون وعلى وجهه نظرة غريبة مشفقة شعر كأنه ذاهب الى القاء نظرة على عش طير غريب وعليه ان يمشي ببطء. وعندما تقدمت الى السور ورفعت اللبلاب المتدلي، جفل ديكون. كان هناك باب دفعته ميري ببطء وانفتح ودخلا معا، ثم وقفت ميري ولوحت بيدها غير هيابة.

وقالت: ها هي ذي.. الحديقة السرية. وانني الوحيدة في هذه الدنيا التي تريدها ان تكون حية.

وتلفت ديكون يتطلع حوله، مرارا وتكرارا.

وهمس قائلا: اي ! انه مكان غريب، جميل. كأنه الانسان في حلم.

١١ ـ عش الشحرور

ظل ديكون واقفاً دقيقتين او ثلاث دقائق يتطلع حوله بينما كانت ميري تراقبه ثم بدأ يمشي بخفة اخف من ميري نفسها يوم مشت اول مرة عندما دخلت الحديقة وبدت عيناه تستوعبان كل شيء – الاشجار الرمادية وعليها المتسلقات الرمادية المتدلية من الاغصان ، والمتشابكة على الجدران وبين الاعشاب ، والمختليات الدائمة الخضرة ذات المقاعد الحجرية واواني الزهور الفخارية الطويلة المنتصبة فيها .

وهمس اخيراً قائلاً : لم افكر قط اني سأرى هذا المكان .

فسألته ميري : هل كنت تعرف عنه؟

تكلمت بصوت عالٍ فاشار اليها قائلاً : يجب ان نتحدث بصوت واطئ والا سيسمعنا احدهم ويتساءل عن وجودنا هنا .

فشعرت ميري بالخوف ووضعت يدها على فمها بسرعة وقالت : اوه! نسيت! هل تعرف عن الحديقة؟

سألته مرة اخرى عندما استعادت هدوءها .

فأوما ديكون برأسه قائلاً : اخبرتني مارثا عن وجود حديقة لم يدخلها احد . وكنا نتساءل كيف كان شكلها؟

وتوقف وتطلع حوله الى النباتات المتشابكة حوله ، وبدت عيناه المستديرتان تملؤهما السعادة .

وقال : الاعشاش تكثر هنا عند مجيء الربيع . انه اسلم مكان في الدنيا . لن ياتي احد الى هنا قرب الاشجار والنباتات المتشابكة والاوراد لذلك فهي افضل مكان للاعشاش . واتعجب لماذا لا تبني طيور المروج اعشاشها هنا .

ووضعت ميري يدها على ذراعه مرة اخرى دون شعورها .

وهمست : هل تعيش الورود؟ اتعرف ذلك؟ اظن انها جميعاً ميتة .

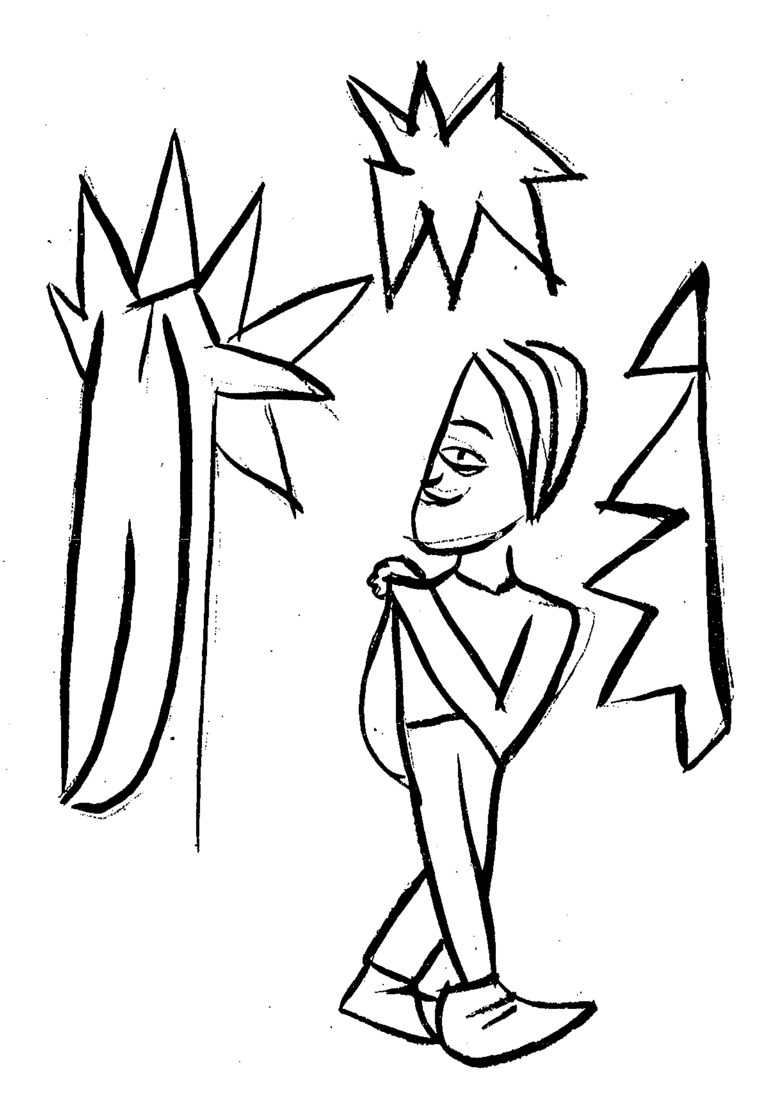
فاجاب عليها : لا ، لا ، ليس جميعها! انظري هنا!

وتقدم الى اقرب شجرة عتيقة تكسو الاشنات الرمادية لحاءها . وترفع منها اغصان وفروع متشابكة كأنها ستارة واخرج سكينا من جيبه وفتح احدى انصالها

وقال : هناك كثير من الاشجار الميتة التي يجب ان تقطع . وتوجد اشجار عتيقة كثيرة ولكنها اخرجت اغصاناً في السنة الماضية هذا فرع جديد .

ولمس فرعاً يبدو اخضر بنياً بدلاً من اللون الرمادي الجاف .

ولمسته ميري في لهفة وتبجيل وقالت : هذا؟ اهو حي تماما — حي؟



وابتسم ديكون ابتسامة عريضة .

وقال : انه مثلي ومثلك حي .

وهتفت ولكن هامسة : اني مسرورة انه حي . اريدها جميعاً ان تكون حية . لنذهب ونتجول في الحديقة ونعد الاحياء منها .

واخذت تلهث من اللهفة ، وكان ديكون شديد اللهفة مثلها . وانتقلا من شجرة الى اخرى ومن شجيرة الى شجيرة . وديكون يحمل سكينة في يده ويرها الاشياء التي كان يعتقد انها رائعة .

وقال : انها تعيش بصورة طبيعية ولكن اقواها ظلت نامية . اما الضعيفة فقد ماتت . الحية نمت ونمت وانتشرت وانتشرت حتى اصبحت عجيبة . انظري الى هذا – وسحب غصناً رمادياً سميكاً يبدو جافاً – يظن المرء انها شجرة ميتة ، ولكني لا اظن ذلك – حتى اسفلها . ساقطعها وارى .

وجثا وقطع الغصن ، الذي يبدو عديم الحياة ، قريباً من الارض

وقال مبتهجاً : انظري! قلت لك هذا . توجد خضرة في الشجرة لحد الآن . انظري اليها .

وجثت ميري على ركبتيها قبل ان يتحدث وحدقت بكل قوتها .

وشرح لها قائلاً : عندما تبدو خضراء قليلاً وفيها عصير مثل

هذا فانها حية . واذا كان الداخل يابساً وينكسر بسهولة ، مثل هذه التي كسرتها ، فانها ميتة . يوجد جذر كبير هنا تخرج منه كل هذه الشجرة الحية ، واذا قطعت كل هذه الشجرة وحفر حولها واعتني بها فسوف يكون – ثم توقف ورفع وجهه نحو الاغصان المتسلقة والمتدلية حوله – فسوف تكون الورود هنا في هذا الصيف كالنافورة .

وانتقلا من شجيرة الى اخرى ومن شجرة الى شجرة . كان ديكون قوياً وذكياً باستعمال سكينه ويعرف كيف يقطع الاغصان الميتة والجافة . ويعرف الاغصان والفروع التي ماتزال فيها حياة خضراء . وبعد نصف ساعة تصورت ميري انها تستطيع ان تعرف ذلك ايضاً وعندما فتح غصناً يبدو عديم الحياة صاحت فرحة عندما رأت اثراً من رطوبة خضراء فيه . كانت المسحاة والمغرفة والمذراة نافعة جداً . وعلمها كيفية استعمال المذراة في اثناء الحفر حول الجذور بالمسحاة وتحريك الارض وجعل الهواء يدخل فيها .

كانا يعملان بمشقة حول احدى أشجار الورد فرأى شيئاً جعله يندهش ويصيح قائلا : ما هذا؟ وهو يشير الى العشب على بعد اقدام قليلة عنه . من فعل ذلك؟

كانت احدى البقع التي نظفتها ميري حول النباتات الشاحبة الخضر .

قالت ميري : انا فعلت ذلك .

فصاح متعجباً : ظننت انك لا تعرفين شيئاً عن البستنة

اجابته قائلة : انا لا اعرف .. ولكنها اشياء صغيرة والعشب كثيف حولها وقوي ، وكانت يبدو كانها لا مجال لها للتنفس . ففسحت في المجال لها واني لا اعرف حتى ما هي .

تقدم ديكون وجثا بجانبها وهو يبتسم ابتسامته العريضة .

وقال : هذا صحيح . الفلاح لا يعرف اكثر من هذا . ستنمو جيداً . هذه زعفران وزهور اللبن الثلجية وتلك نرجس — ثم تحول الى بقعة اخرى — وهذه نرجس أصفر . سيكون منظرها رائعاً وصار يجري من رقعة منظفة الى اخرى . وقال وهو ينظر الى ميري .— لقد قمت بعمل كثير بالنسبة الى فتاة صغيرة مثلك .

فقالت ميري : انني اصبحت اسمن وصرت اقوى . كنت قبلا اشعر بالتعب . اما الآن فلا اتعب ابداً عندما احفر . احب ان اشم رائحة عندما تقلب .

فقال وهو يومئ براسه بشكل حكيم : هذا شيء جيد جداً لك . لا شيء اطيب من رائحة الارض الطيبة النظيفة عدا رائحة الاشياء النامية حديثا عندما يسقط المطر عليها . انا اخرج كثيراً عندما تمطر واستلقي تحت شجيرة واصغي الى حفيف قطرات المطر على الزهور واظل استنشق واستنشق . تقول أمي ان طرف انفي يرتعش مثل انف ارنبة .

فسألته ميري : الا تصاب بالبرد؟

ونظرت اليه متعجبة فهي لم تر مثل هذا الولد العجيب او

اللطيف قبلاً .

وقال مغمغما : انا لا اصاب بالبرد ابدا . ولم اصب به قط منذ ولادتي . لم انشأ خاملاً بل اجري دائماً في المروج في جميع حالات الطقس كما تفعل الارانب . تقول امي انني استنشقت كثيرا من الهواء مدة اثني عشر سنة فلا يصيبني البرد ابدا . انا قوي مثل الشوك البري .

وكان يعمل وهو يتحدث وميري تتابعه وتساعده بالمذراة او المالج .

وقال وهو يتلفت حوله جذلاً : عمل كثير يتطلب انجازه هنا !

فطلبت ميري اليه قائلة : هل لك ان تاتي ثانية لاكماله؟ اني متاكد اني استطيع مساعدتك ايضاً . استطيع ان احفر واقتلع الادغال واعمل ما تخبرني به . ارجو ان تاتي يا ديكون!

فاجاب موكداً : ساجيءُ كل يوم اذا اردتني ، في الصحو والمطر . انه اجمل لهو في حياتي ، منعزل في هذه الحديقة التي اعمل على ايقاظها . .

فقالت ميري : اذا جئت واذا ساعدتني في احيائها — لا ادري ماذا افعل؟

وقالت في نفسها : ماذا يمكن ان تفعل لولد مثله؟

وقال ديكون بنبرة سعيدة : ساقول لك ماذا تفعلين ستسمنين وستجوعين جوع الثعالب الصغيرة وستتعلمين كيف

تتحدثين مع ابي الحناء فما استطيع انا . اي! سيكون امامك لهو كثير .

وبدأ يتجول ويتطلع الى الاشجار والجدران والشجيرات وقد بدت عليه معالم التامل .

وقال انا لا اريد ان اجعلها تبدو مثل حديقة فلاح مشذبة شدت بخيوط وعلقت بمسامير والقيت على اطواق ، هل يعجبك ذلك؟ الاجمل ان تنمو هذه الاشياء حسب طبيعتها البرية وهي متشابكة متعلقة واحدة بالاخرى وتتارجح في الهواء .

فقالت ميري بلهفة : لا نريدها شديدة الترتيب فلن تبدو آنذاك مثل حديقة سرية اذا كانت مرتبة .

ووقف ديكون يفرك شعره الاحمر بلون الصدأ وعلى وجهة نظرة حائرة .

وقال : انها لا ريب حديقة سرية ولكن يبدو ان احداً آخر غير ابي الحناء قد دخل اليها بعد ان اغلقت قبل عشر سنوات .

فقالت ميري : ولكن الباب مقفل والمفتاح مدفون . لا يمكن لاحد ان يدخل .

فاجابها قائلاً : هذا صحيح . هذا مكان غريب . ويبدو لي ان شيئاً من التقليم قد تم هنا وهناك ، بعد ان اغلقت .

فقالت ميري : ولكن كيف يمكن ان يتم ذلك؟

وكان يفحص غصن شجرة ورد ذات ساق طويل مستقيم وهز راسه .

وتمتم قائلاً : اي نعم! كيف يمكن ذلك؟ الباب مقفل والمفتاح مدفون .

وظلت ميري تشعر دائما انها مهما مرت سنين كثيرة فانها لن تنسى صباح ذلك اليوم عندما بدأت حديقتها تنمو . بدأت تنمو ، طبعا ، بالنسبة اليها في صباح ذلك اليوم . وتذكرت ، عندما كان ديكون ينظف الاماكن لزرع البذور ، اغنية بسيل عنها عندما اراد اغاظتها .

فسألته : هل توجد زهور تشبه الاجراس؟

واجابها وهو يحفر بالشفرة : نعم زنابق الوادي تشبه الاجراس ، وهناك ايضاً «اجراس الكنيسة» والجريسيات .

فقالت ميري : لنزرع بعضها .

– رأيت هنا بعض زنابق الوادي تنمو هنا متلاصقة جداً ويجب ان نباعدها ، وهي كثيرة . الازهار الاخرى تحتاج سنتين لكي تزهر بعد زرعها . ولكن استطيع ان اجلب لك بعض الشتلات من حديقة بيتنا . لماذا تريدينها؟

ثم اخبرته عن بسيل واخوته واخوانه في الهند ولماذا تكرههم ، وقد اطلقوا عليها ، الانسة ميري ليست كالغير ، لانها عنيدة .

– كانوا يرقصون ويغنون عني هذه الاغنية :

..الانسة ميري ليست كالغير

كيف في حديقتك تنمو

الحناء وبين ويذر ستاف .

وضحك ديكون واضطر لكتم ضحكته بوضع ذراعه على فمه .

وقال : اعرفُ انك تظنين انني صبي غريب ، ولكنك اغرب فتاة صغيرة رأيتها .

ثم قامت ميري بشيءٍ غريب . انحنت الى الامام وسألته سؤالاً لم تحلم بتوجيهه الى احد من قبل . وحاولت ان تسأل ذلك السؤال في لهجة اهل يوركشير لانها لهجته لان الهنود كانوا يفرحون دائماً اذا كنت تعرف كلامهم .

فقالت : هل تحبني!

فاجاب فرحاً من صميم قلبه : اي . اني احبك ، احبك كثيراً وكذلك ابو الحناء ، كما اعتقد!

فقالت ميري : هذان اثنان ، اذن ، اثنان معي .

ثم بدأ الصغيران بالعمل بجد وبهجة اكثر من ذي قبل . وجفلت ميري عندما سمعت الساعة الكبيرة تدق الرابعة معلنة وقت طعام غذائها .

وقالت حزينة : يجب ان اذهب ، وانت ايضاً يجب ان تذهب ، اليس كذلك؟

فقال ديكون مغمغماً : غدائي سهل حمله . امي تسمح لي دائماً ان اضع شيئاً في جيبي .

والتقط معطفه من على العشب واخرج من جيبه حزمة

زهيرات الاجراس الفضية والنباتات الصدفية ،
والآذريون في صف واحد تغدو؟

تذكرتها تواً وجعلتني اتساءل هل توجد حقاً ازهار مثل الاجراس الفضية .

وقطبت قليلاً وغرزت شفرتها بشيءٌ من الحقد في الارض .

— لم اكن عنيدة مثلهم .

ولكن ديكون ضحك .

وصار يقلب التربة السوداء الخصبة ورأته يشم عطرها وقال : اي! لا حاجة للانسان ان يكون عنيداً مشاكسا اذا كثرت الزهور الجميلة والمخلوقات البرية اللطيفة التي تجري وتعمل بيوتاً لانفسها او اعشاشاً وتغرد وتغني ، اليس كذلك؟

وجثت ميري قربة حاملة البذور ونظرت اليه وكفت عن التقطيب .

وقالت : ديكون انت لطيف كما قالت . انت تعجبني وانت الخامس . لم افكر إني ساعجب بخمسة اشخاص .

جلس ديكون على قدميه كما تفعل مارثا عندما تنظف مشبك الموقد . كان شكله لطيفاً ومفرحاً ، بعينيه الزرقاوين المدورتين وخديه الاحمرين وانفه المتجه للاعلى الذي يبدو سعيداً .

وقال : خمسة اشخاص يعجبونك؟ من هم الاربعة الاخرون؟

وصارت ميري تحسب على اصابعها : امك ومارثا وأبو

صغيرة مربوطة في منديل نظيف ازرق . فيها قطعتان سميكتان من الخبز مع شريحة من شيء ما بينهما .

وقال : انه شيء بسيط لا يعدو ان يكون خبزاً في اغلب الاحيان ولكنني اليوم وضعت فيه شريحة لحم .

اعتقدت ميري انه غداء غريب ولكن ديكون يبدو انه سيتمتع به .

وقال : اركضي وتناولي طعامك . سوف انهي طعامي اولاً . ثم اعود لاكمل عملاً آخر قبل ان اعود الى البيت .

وجلس على الارض وظهره الى جذع شجرة .

وقال : سأنادي ابا الحناء واعطيه قليلاً من اللحم ليلتقطه . ان الطيور تحب شيئاً من السمن كثيراً .

ولم تتحمل ميري مسألة مغادرته . وبدا لها مثل جني الغابة الذي يرحل عندما تدخل الحديقة . انه ممتاز الى درجة لا تصدق ثم اتجهت نحو الباب ببطء ووصلت منتصف المسافة ثم توقفت رجعت .

وقالت : مهما يحدث فلا تقل – لا تقل لاحد؟

وانتفخ خداه الورديان بفعل اللقمة الاولى الكبيرة من الخبز واللحم ولكنه استطاع ان يبتسم ويؤكد لها .

وقال : لو كنت شحروراً واريتني مكان عشك ، فهل تظنني اني اخبر احداً؟ ابداً ، انا لا افعل ذلك . سرك امين مثل سر الشحرور .

واطمأنت الى كلامه .

١٢ ـ هل يمكن ان احصل على قطعة ارض ؟

ركضت ميري سريعاً جداً فانقطعت انفاسها تقريباً عندما وصلت غرفتها . وكان شعرها اشعث ، وبعضه على جبينها ، وتورد خداها . مشرقين . وكان طعامها بانتظارها على المائدة وكانت مارثا بانتظارها ، قربه ، ايضاً .

وقالت : تأخرت قليلاً ، اين كنت؟

فقالت ميري : رأيت ديكون! رأيت ديكون!

وقالت مارثا جذلة : عرفت انه سيأتي . كيف تجدينه؟

فقالت ميري بصوت واثق : ارى ، ارى انه جميل!

وفوجئت مارثا ولكنها بدت مسرورة .

وقالت : انه احسن اولادنا ، ولكن لم نفكر انه كان وسيماً . انفه متجه الى الاعلى كثيراً

فقالت ميري : احب ان يكون الانف مرفوعاً .

وقالت مارثا.وهي تشعر بشيْ من الريبة : وعيناه مدورتان ولونهما جميل .

فقالت ميري : احبهما مدورتين وهما بلون السماء فوق المروج تماماً . واشرق وجه مارثا بالرضا .

وقالت : تقول امي انه جعلها بذلك اللون من كثرة التحديق في الاعلى نحو الطيور والغيوم . ولكن فمه كبير ، اليس كذلك؟ فما رايك .

فقالت معاندة : احب فمه الكبير . في مثله تماماً .

وقهقهت مارثا مسرورة .

وقالت : هو لطيف ويناسب وجهك . وكيف وجدت البذور وادوات الحديقة؟

فسألتها ميري : كيف عرفت انه اشتراها لي؟

–انا لم افكر باهماله وعدم شرائها وجلبها . وانا متأكدة انه سيجلبها اذا كانت موجودة في المدينة . هو ولد موثوق .

وخشيت ميري ان تسأل اسئلة صعبة ولكنها لم تفعل . كانت مهتمة كثيراً بالبذور وادوات الحديقة . وانتابت ميري لحظة من الخوف عندما بدأت تسأل عن مكان زرع الزهور .

فاستعلمت منها : مَن سألت عنها؟

فقالت ميري مترددة : لم اسأل احداً الى الآن .

وعقبت مارثا قائلة : انا لا اريد سؤال كبير البستانيين ، مستر روج ، لانه مغرور .

فقالت ميري : انا لم اره قط . رأيت بستانيين صغار و بين ويذ ستاف .

ونصحتها مارثا قائلة : لو كنت في مكانك لسألت بين ويذ ستاف . انه طيب اكثر مما يبدو عليه سوء الطبع وصعوبة الارضاء . السيد كريفن يسمح له ان يفعل ما يشاء لانه يعمل هنا منذ ان كانت السيدة كريفن على قيد الحياة ، وكان يسليها ويجعلها تضحك وكانت معجبة به . لعله يستطيع ان يجد لك ارضاً في زاوية منعزلة بعيدة .

فقالت ميري متلهفة : اذا كانت الارض منعزلة بعيدة ولا يراها احد ،فلن يهتم احد باخذي اياها ، اليس كذلك؟

اجابت مارثا : يجب ان لا يكون ذلك بلا مبرر ، وان لا تقومي باي ضرر فيها .

تناولت ميري غذاءها باسرع ما تستطيع وعندما نهضت من المائدة لتذهب راكضة الى غرفتها لتلبس قبعتها مرة اخرى ، اوقفتها مارثا .

وقالت لها : لدي شيئ اقوله لك . فكرت اولاً ان تأكلي غذاءك اولاً . عاد السيد كريفن اليوم صباحاً . واظن انه يريد ان يراك .

وشحب وجه ميري .

وقالت : اوه! لماذا! لماذا! لم يكن يريد ان يراني عندما جئت . سمعت بيجر تقول انه لا يريد ان يراني .

فاوضحت مارثا قائلة : تقول السيدة ميدلوك ان ذلك يتعلق بوالدتي . كانت ذاهبة الى قرية ثوابت وصادفته في

طريقها . لم تكلمه قبل هذا ولكن السيدة كريفن كانت قد زارت بيتنا مرتين او ثلاث مرات ، ونسي ولكن امي لم تنس . تجرأت فاوقفته ولا ادري ماذا قالت له عنك ، ولكنها قالت له شيئاً يحتم عليه رؤيتك قبل مغادرته غداً .

فصاحت ميري قائلة : اوه! هل سيغادر غداً؟ اني مسرور جداً .– سيبقى بعيداً مدة طويلة . ولعله لن يعود حتى الخريف او الشتاء . سيسافر الى بلدان اجنبية . كما يفعل ذلك دائماً .

فشكرتها ميري قائلة : اوه! اني مسرورة – مسرورة جداً . اذا لم يعد حتى الشتاء او حتى الخريف ، فسيكون لدينا وقت لرعاية الحديقة ورؤيتها تعود الى الحياة . وحتى اذا اكتشف عند ذاك واستولى عليها منها ، فيكفيها ما فعلت .

– متى تظنين انه يريد رؤيتي –

ولم تكمل جملتها ، لان الباب فتح ودخلت السيدة ميدلوك . كانت لابسة احسن ثيابها ، الاسود ، وقبعتها وثبتت ياختها بدبوس زينة كبير فيه صورة وجه رجل هي صورة ملونة للسيد ميدلوك الذي توفي قبل سنوات ، وهي تضعها دائماً عندما تلبس لمناسبة خاصة . كان تبدو منفعلة وعصبية .

وقالت بسرعة : شعرك غير مرتب . اذهبي ومشطيه . ساعديها يا مارثا في ارتداء احسن ثيابها . ارسلني السيد كريفن لاخذها اليه في غرفة المكتبة والدراسة .

وغيض اللون الوردي من خدي ميري . واخذ قلبها يخفق

بشدة وشعرت انها تحولت الى طفلة جافة ، قبيحة صامتة مرة اخرى . ولم تجب على السيدة ميدلوك بل استدارت ودخلت غرفة نومها ، تتبعها مارثا . ولم تقل شيئاً وهي تبدل ثيابها ، وتمشط شعرها ، وبعد ان اتخذت احسن حال تبعت السيدة ميدلوك في الممرات ، صامتة . ماذا سيقول لها ، ماذا ستجيب؟ كانت مضطرة الى الذهاب لرؤية السيد كريفن الذي لن يحبها ولن تحبه ، فهي تعرف ماذا سيظن بها .

واخذت الى قسم من البيت لم تصل اليه قليلاً . وطرقت السيدة ميدلوك اخيراً احد الابواب . وعندما جاء صوت احدهم قائلاً «ادخل» دخلنا الغرفة معاً . كان رجل جالساً في كرسي ذي مسندين امام النار وتكلمت اليه السيدة ميدلوك .

وقالت : سيدي ، هذه هي الآنسة ميري .

فقال السيد كريفن : يمكنك ان تذهبي وتتركيها هنا . سأدق الجرس لك عندما اريدك ان تاخذيها .

وعندما خرجت واغلقت الباب ، وقفت ميري منتظرة في حالة بائسة ، تعصر يديها النحيلتين . واستطاعت ان ترى ان الرجل الجالس لم يكن احدب كثيراً بل له كتفان عاليتان مقوستان ، وله شعر اسود وخطه البياض . التفت فوق كتفيه العاليتين وقال لها : — تعالي هنا .

وذهبت ميري اليه .

لم يكن قبيحاً . وجهه وسيم لو لا مسحة من الكآبة . وبدا

كأن منظرها اقلقه وأغاضه ، وكأنه لم يكن يدري ماذا يفعل لها .

فسألها : هل انت بخير؟

فاجابت ميري : نعم .

– وهل يحسنون الاعتناء بك .

– نعم

وفرك جبينه قلقاً وهو يتطلع اليها .

وقال : انت نحيلة جداً .

فاجابته بطريقة جافة جداً : انني بدأت أسمن .

ما اشد الحزن على وجهه! بدت عيناه السوداوان كأنهما لم ترياها ، بل تريان شيئاً آخر ، ولم يكد يركز افكاره عليها .

وقال : نسيتك . كيف استطيع ان اتذكرك؟ كنت انوي ان ارسل لك معلمة او مربية او ما شابه ذلك ، ولكنني نسيت .

فقالت ميري : ارجوك ... ارجوك

واختنقت العبارة في حنجرتها .

فاستفسر منها قائلاً : ماذا تريدين ان تقولي؟

فقالت ميري : انني اكبر من ان ترسل لي مربية ، وارجوك

– ارجوك لا اريد معلمة الآن .

وعاد يفرك جبينه ويتطلع اليها .

وتمتم قائلاً : هذا ما قالته المرأة القروية .

ثم استجمعت ميري شيئاً من الشجاعة .

وتلعثمت قائلة : هل هي – هل هي ام مارثا؟

فرد عليها قائلاً : نعم ، اظن ذلك .

فقالت مارثا : انها تعرف عن الاطفال . لديها اثنا عشر طفلاً . هي تعرف .

وبدا انه كان يريد الانتباه اليها .

– ماذا تريدين ان تفعلي؟

فقالت ميري وهي تأمل ان لا يرتعش صوتها : اريد ان العب خارج البيت . فذلك يجعلني اشتهي الطعام وبدأت اسمن .

وراح يراقبها .

وقال : قالت السيدة ساورباي ان ذلك ينفعك . لعل ذلك صحيح وهي تعتقد انك لابد أن تتقوي قبل مجيئ المعلمة .

فقالت ميري : اللعب يجعلني اشعر بالقوة في الهواء الطلق في المروج .

فسألها : واين تلعبين .

فقالت ميري لاهثة : في كل مكان . ارسلت لي أم مارثا حبلاً للقفز . فرحت اقفز واركض – واتفرج على الاشياء التي بدأت تخرج من الارض . انا لا اضر شيئاً .

فقال لها بصوت قلق : لا تخشي أبداً : انت لا تضرين شيئاً ، تستطيعين ان تفعلي ما تشائين .

ورفعت ميري يدها ووضعتها على حنجرتها لانها خشيت ان يرى الانفعال الذي احست انه قفز اليها .

وسألته مرتعشة : هل يمكنني ذلك؟

وبدا ان وجهها الصغير الذي بانت اللهفة عليه قد أثار قلقه اكثر من ذي قبل .

فقال موضحاً : لا تخشى شيئاً ، يمكنك طبعاً ان تفعلي اي شيء . انا وصيك . ولكنني لا استطيع ان امنحك شيئاً من وقتي او اهتمامي . فاني مريض وتعيس وحائر غير انني اتمنى لك السعادة والراحة . لا اعرف شيئاً عن حياة الاطفال ولكن السيدة ميدلوك هي التي سترى كل احتياجاتك . ارسل اليك اليوم لان السيدة ساورباي قالت انني يجب ان اراك ، فقد تحدثت اليها ابنتها عنك كثيراً . وهي تعتقد انك بحاجة الى الهواء الطلق والحرية والركض .

فاعادت ميري رغماً عن نفسها قولها : انها تعرف كل شيء عن الاطفال .

فقال السيد كريفن : لابد انها تعرف . واعتقد انها جريئة جداً فاوقفتني في المروج وقالت ان السيدة كريفن كانت لطيفة معها رحيمة بها – وبدا من العسير عليه ان ينطق باسم زوجته المتوفاة – انها امراة محترمة . والآن رايتك واعتقد انها قالت لي اشياء معقولة . العبي خارج البيت بقدر ما تشائين . انه مكان فسيح . ويمكنك الذهاب اينما تشائين وتسلين نفسك كما تشائين . هل تريدين شيئاً؟ – قال ذلك كأن فكرة مفاجئة خطرت بباله – هل تريدين لعباً او كتباً او دمى .

وقالت بصوت مرتعش : هل يمكن ، هل يمكن ان احصل على قليل من الارض؟

لم تدرك في غمرة لهفتها غرابة كلماتها وانها لم تكن الكلمات التي ارادت ان تقولها . وبدا السيد كريفن انه قد جفل .

وكرر قولها : ارض! ماذا تقصدين؟

فتلعثمت ميري في قولها : لكي ازرع البذور فيها – واجعل الاشياء تنمو – واراها تخرج حية .

وحدق فيها لحظة ثم مرر يده بسرعة فوق عينيه .

وقال متمهلاً : هل – تهتمين بامر الحدائق كثيراً .

فقالت ميري : لم اكن اعرف عنها شيئاً في الهند . كنت هناك مريضة دائماً ومتعبة والجو حار جداً . كنت احياناً اصنع الواحاً من التربة واغرس فيها زهوراً . ولكن الامر هنا يختلف .

ونهض السيد كريفن وبدا يتمشى ببطء في الغرفة .

وقال في نفسه : «قطعة ارض» . وظنت ميري انها فكرته بطريقة ما بشيء من الاشياء . وعندما توقف وتكلم اليها ، بدت عيناه السوداوان رقيقتين عطوفين .

وقال : يمكنك ان تأخذي من الارض قدر ما تشائين . انك تذكرينني بشخص آخر احب الارض والاشياء التي تنبت فيها . اذا رايت قطعة ارض تريدينها – وطاف على محياه ما يشبه الابتسامة – خذيها ياصغيرتي واجعليها تعود الى الحياة .

– هل يمكنني ان اخذها من اي مكان – اذا كانت لا يريدها

احد؟ فاجاب : اي مكان . اسمعي ! يجب ان تذهبي الآن فاني متعب .

ولمس الجرس ليدعو السيدة ميدلوك وقال : وداعاً . سأكون بعيداً طوال الصيف .

ودخلت السيدة ميدلوك في الحال فاعتقدت ميري انها كانت تنتظرها في الممر .

وقال لها السيد كريفن : سيدة ميدلوك . الآن وقد رأيت الطفلة عرفت وفهمت ماذا كانت تعني السيدة ساورباي . يجب ان تتقوى قبل ان تبدأ دراستها . اعطها طعاماً بسيطاً وهمياً . ودعيها تجري على سجيتها في الحديقة . ولا تراقبيها كثيراً . انها بحاجة الى حرية وهواء طلق ومرح وركض . وسوف تأتي السيدة ساورباي بين حين واخر لرؤيتها ، ويمكنها ايضاً الذهاب الى بيتهم احياناً .

بدا السرور على السيدة ميدلوك . وارتاحت لسماع : انها لا حاجة لها بمراقبة ميري كثيراً . كانت تعتقد في بادئ الامر انها مسؤولية متعبة ، وقد قامت بمسؤوليتها هذه قليلاً . وفضلاً عن ذلك فانها تحب أم مارثا كثيراً .

فقالت : شكراً ، سيدي . كنا ، انا وسوزان ساورباي زميلتي في المدرسة وهي عاقلة وذكية وطيبة القلب . وانا ليس لي اطفال وهي عندها اثنا عشر ، وليس بين الاطفال من هم اكثر صحة وافضل خلقاً . ولا خوف على الآنسة ميري منهم . واني

دائماً استمع الى نصيحة سوزان ساوورباي عن الاطفال . انها من ذوي العقول المعافاة اذا كنت تفهمني .

فاجاب السيد كريفن : انا افهم . خذي الآنسة ميري الآن وارسلي بيجر إليّ .عادت ميري الى غرفتها مسرعة عندما تركتها السيدة ميدلوك في نهاية ممرها . ووجدت مارثا بانتظارها في الغرفة . عادت مارثا ،في الحقيقة ، بعد ان نظفت المائدة .

وصاحت ميري : يمكن ان احصل على اي حديقة! يمكن ان احصل عليها اينما اشاء! ولن تكون لي اي معلمة لمدة طويلة . وسوف تاتي امك لرؤيتي ويمكن ان اذهب الى بيتكم . هو يقول ان فتاة صغيرة مثلي لا يمكن ان تؤذي ويمكن ان افعل ما اشاء – في اي مكان!

فقالت مارثا فرحة : اي! هذا لطف منه ، اليس كذلك؟

فقالت ميري بوقار : مارثا ، انه حقاً رجل لطيف . وجهه فقط تبدو عليه التعاسة وجبينه مقطب .

وجرت باسرع ما يمكن الى الحديقة فقد ابتعدت مدة اطول مما ظننت ، وعرفت ان ديكون لابد ان يخرج مبكراً ليقطع مسافة خمسة اميال . وعندما تسللت من الباب تحت اللبلاب ، رأت انه لم يكن يعمل في المكان الذي تركته فيه . كانت ادوات الحديقة موضوعة معاً تحت شجرة . وركضت اليها وهي تتلفت في ارجاء المكان ، ولكنها لم ترَ ديكون . لقد ذهب وكانت الحديقة السرية خالية – ما عدا ابي الحناء الذي جاء طائر فوق

السور وحط علىِ شجرة ورد مستقيمة وصار ينظر اليها .

وقالت حزينة : لقد ذهب . اوه! هل كان ، هل كان ، هل كان جني الغابة فقط؟

ولفت نظرها شيْ ابيض مثبت على شجرة الورد . قطعة ورق – كانت في الحقيقة قطعة من الرسالة التي طبعتها لمارثا تطلب فيها ديكون كانت مثبتة على الشجرة بشوكة طويلة وعرفت في الحال ان ديكون هو الذي تركها هناك . كان عليها بعض الحروف المطبوعة بغير عناية ورسماً ايضاً . في البداية لم تعرف ما هو ثم رأت انه يعني عشاً وفيه طير . وتحته الحروف المطبوعة التي تقول : «سوف اعود»

١٣ ـ انا كولن

أخذت ميري الورقة التي عليها الرسم معها الى البيت عندما عادت لتتناول عشاءها وعرضتها على مارثا.

فقالت مارثا بفخر عظيم: اي! لم أكن ادري أن ديكون بارع الى هذه الدرجة. هذا رسم شحرور في عشه بالحجم الطبيعي.

ثم عرفت ميري ان ديكون كان يقصد من الرسم أنه رسالة ويقصد أيضاً أن تطمئن الى أنه يحفظ سرها: ان حديقتها كالعش وانها كالشحرور. اوه، ماأشد اعجابها بهذا الولد الغريب!

كانت تأمل أن يعود في اليوم التالي ونامت متطلعة الى الصباح. ولكنك لاتعلم أبداً مايفعله الطقس في بوركشير وخصوصاً في ايام الربيع.

ايقظها في الليل صوت مطر يرتطم غزيراً على شباكها. كان ينهمر سيولاً وكانت الريح «تعول» حول أركان البيت وفي مدخنته. جلست ميري في فراشها وشعرت بالحزن والغضب.

وقالت: المطر نقيض ماانا عليه، فهو يهطل لانه يدري أنني لااريده.

والقت نفسها على وسادتها ودفنت وجهها فيها. ولم تبك ولكنها ظلت مستلقية وكرهت صوت هطول الامطار الغزيرة وكرهت الريح و «عويلها». ولم تستطع أن تعاود النوم. فقد جعلها صوت عويل الريح مستيقظة، لانها كانت تشعر بميل الى العويل هي نفسها. فلو انها شعرت بالسعادة لهدهدتها حتى نامت. ماأشد «عويل» الريح وما اشد انهار المطر وارتطامه بزجاج النافذة.

وقالت: يبدو كأنه شخص ضائع في المروج يجري متخبطاً ويبكي.

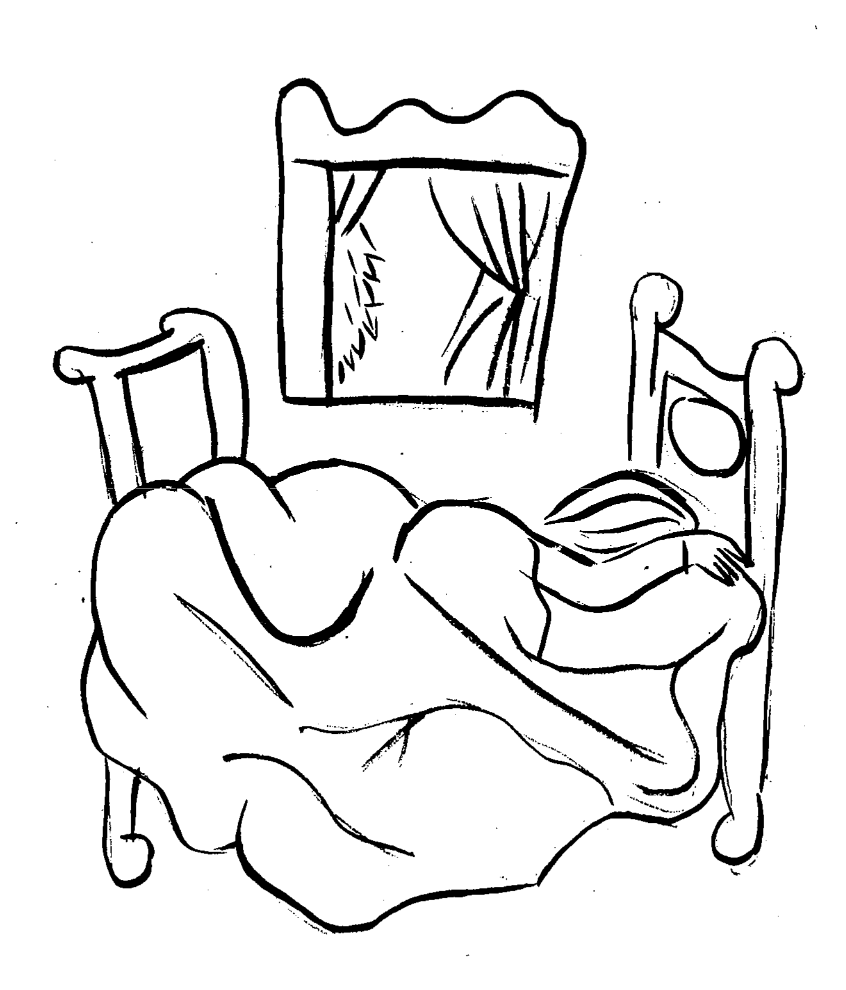
***

ظلت مستلقية وهي يقظة تتقلب من جانب الى آخر قرابة ساعة من الزمان، عندما سمعت فجأة شيئاً جعلها تجلس في فراشها وتدير رأسها نحو الباب وتصغي. واصغت ثم أصغت.

وقالت بهمس مجهور: أنها ليست الريح هذه المرة. هذه ليست الريح. هذا شيئ مختلف. أنه البكاء الذي سمعته قبلاً.

كان باب غرفتها موارباً وجاء الصوت من الممر، صوت بكاء ضعيف متقطع. اصغت دقائق معدودات. وفي كل دقيقة يزداد يقينها قوة. وشعرت كأنها لابد أن تكتشف هذا الصوت.

وبدا لها اشد غرابة من الحديقة السرية والمفتاح الدفين. ولعل حالة التمرد جعلتها جريئة. وانزلت رجلها من السرير



ووقفت على الارض.

وقالت: ساكتشف ذلك الشيئ. الجميع نيامُ، ولاتهمني السيدة ميدلوك شيئاً – لاتهمني.

كانت الى جانب سريرها شمعة فاخذتها وخرجت بهدوء من الغرفة بدا الممر طويلاً جداً ومظلماً. ولكنها كانت منفعلة جداً فلم تأبه لذلك.

وصارت تفكر بالمنعطفات التي يجب عليها أن تستدير حولها لكي تجد الممر القصير حيث الباب المغطى بالسجف المزدانة بالرسوم – ذلك الباب الذي دخلته السيدة ميدلوك عندما تاهت في ذلك اليوم. جاء الصوت في الممر، فسارت على ضوء شمعتها القليل، وهي تكاد تتهجس طريقها، وقلبها يخفق بشدة فتصورت أنها تسمع خفقاته. واستمر النحيب الضعيف البعيد فاهتدت به وواصلت سيرها. كان يتوقف أحياناً لحظة أو أكثر ثم يعود هل هذا هو المنعطف الصحيح الذي لابد أن تستدير فيه؟

توقفت وفكرت. نعم أنه هو سارت في الممر واستدارت الى اليسار ثم صعدت درجتين عريضتين الى اليمين مرة أخرى. نعم، هذا هو الباب ذو السجف.

ودفعته بلطف وأغلقته وراءها ووقفت في الممر واستطاعت أن تسمع البكاء بكل وضوح، مع أنه لم يكن عالياً: جاء من وراء الحائط الى يسارها وعلى بعد خطوات كان ثمة باب. استطاعت أن ترى نوراً يأتي من تحته. كان شخص يبكي في تلك

الغرفة ولاريب أنه صوت شخص صغير.

فسارت نحو الباب وفتحته وصارت في داخل الغرفة:

كانت الغرفة كبيرة ذات أثاث قديمة بديعة. وفيها نار متوهجة في المدفئة ولكنها ليست قوية، ومصباح ليل مشتعل الى جانب سرير منقوش ذي أربعة أعمدة، عليه قماش مطرز، واستلقى على السرير ولد يبكي بكاء مراً يثير الشفقة.

وتساءلت ميري في نفسها هل هي في مكان حقيقي أم أنها نامت مرة أخرى وصارت تحلم دون أن تدري بذلك.

كان وجه الوليد نحيلاً، رقيقا، بلون العاج وعيناه واسعتان جداً بالنسبة الى وجهه. وكان شعره كثيفاً مال على جبينه في خصل كثيرة غزيرة مما جعل وجهه يبدو أصغر. يبدو كأنه ولد مريض ولكنه يبكي كأنه كان متعباً ومغتاظاً أكثر من كونه كان متألماً.

وقفت ميري قرب الباب والشمعة في يدها وقد حبست أنفاسها، ثم قطعت الغرفة، ولما اقتربت جلب النور أنتباه الصبي فادار رأسه على وسادته وحدق فيها، واتسعت عيناه الخضراوان كثيراً فبدتا كبيرتين جداً.

وهمس بصوت شبه خائف: من أنت ؟ هل أنت شبح ؟

وهمست ميري مجيبة بصوت شبه خائف أيضاً: لا، لست شبحاً. هل أنت شبح ؟

وظل يحدق فيها ويحدق ويحدق. ولم تتمالك ميري نفسها في

التساؤل عن غرابة عينيه والتعجب من اتساعهما. كانتا رماديتين بلون العقيق، وواسعتين جداً بالنسبة الى وجهه لان أهدابهما سود تحيط بهما.

فاجاب بعد لحظة انتظار: لا. أنا كولن.

فتلعثمت ميري قائلة: كولن من ؟

– انا كولن كريفن من انت ؟

– انا ميري لينوكس. السيد كريفن هو زوج عمتي.

فقال الصبي: هو أبي.

فلهثت ميري قائلة: أبوك! لم يخبرني أحد أن له ولداً. لماذا لم يخبروني ؟

– تعالي هنا.

قال وعيناه الواسعتان مثبتتان عليها وفيها تعبير من اللهفة.

واقتربت من السرير ومد يده ولمس يدها.

وقال: أنت انسان حقيقي، اليس كذلك ؟ أنني أحلم أحلاماً حقيقية في كثير من الاحيان. ولعلك احدها.

كانت ميري قد وضعت عليها دثاراً صوفياً قبل أن تغادر غرفتها، فوضعت طرفاً منه بين أصابعها.

وقالت: أفرك هذا وانظر مدى سمكه ودفئه. سوف أقرصك قليلاً اذا شئت لكي ترى مدى حقيقتي. ضننت دقيقة واحدة أنك حلم أيضاً.

وسألها: من أين أتيت ؟

– من غرفتي الخاصة. كانت الريح تعول لذلك لم أستطع النوم وسمعت بكاء واردت أن أعرف من هو. لماذا كنت تبكي ؟

– لانني لم أستطع النوم أيضاً واصابني الصداع أخبريني باسمك مرة أخرى.

– ميري لينوكس. ألم يخبرك أحد أنني جئت لاعيش هنا ؟

كان مايزال يتحسس طية دثارها ولكنه صار يبدو أكثر اعتقاداً في وجودها الحقيقي.

فأجاب قائلاً: لا. لايجروء احد على ذلك.

فسألته ميري: لماذا ؟

– لانني اخاف أن تريني. انا لاأريد أحداً أن يراني ويتحدث عني.

– لماذا ؟

سألته ميري وهي تشعر بازدياد حيرتها كل لحظة.

– لانني هكذا دائماً، مريض ولابد أن أرقد في الفراش. وابي لايريد أن يتحدث الناس عني أيضاً. ولايسمح للخدم التحدث عني.

واذا عشت فسأكون أحدب، ولكنني لن أعيش. ابي يكره أن أكون مثله.

فقالت ميري: اوه، ماأشد غرابة هذا البيت ! ماأشد غرابته ! كل شيء فيه يكاد يكون سراً. غرف مغلقة. وحدائق مغلقة – وانت ! هل أغلقت غرفتك ؟

– لا. انا ابقى في هذه الغرفة لانني لااريد أن أخرج منها لان ذلك يتعبني كثيراً.

فغامرت ميري بالسؤال: هل يأتي أبوك لرؤيتك ؟

– احياناً وخصوصاً عندما أكون نائماً. هو لايريد أن يراني.

ولم تتمالك ميري نفسها من سؤاله مرة أخرى: لماذا ؟

وطاف على وجه الفتى شيءٌ من ظل ينم عن غضب.

– ماتت أمي عند ولادتي فجعله ذلك تعيساً وصار يحزنه النظر اليّ. يظن أنني لااعرف، ولكنني سمعت الناس يتحدثون. أنه يكاد ان يكرهني.

فقالت ميري كأنها تحدث نفسها: هو يكره الحديقة لانها ماتت.

فسألها الولد أي حديقة ؟

تلعثمت ميري قائلة: انها مجرد – مجرد حديقة كانت تعجبها.

هل أنت هنا دائماً ؟

– في أغلب الاحيان. ولكنهم يأخذونني أحياناً الى ساحل البحر، لكنني لا اود البقاء لان الناس يحدقون بي. اعتدت أن البس شيئاً حديدياً ليكون ظهري مستقيماً، ولكن طبيباً عضيماً جاء من لندن ليراني فقال أن ذلك لاجدوى منه. وأخبرهم أن ينزعوه عني وأن أبقى في الهواء الطلق. أنا أكره الهواء الطلق ولا اريد أن أخرج من البيت.

فقالت ميري: كنت لااحب الخروج عندما جئت الى هنا.

لماذا تنظر الي هكذا ؟

فأجابها بشيءٍ من الاضطراب: بسبب الاحلام الحقيقية. أحياناً عندما أفتح عيني لااصدق أني مستيقظ.

فقالت ميري: نحن الاثنان مستيقظان.

ونظرت حول الغرفة بسقفها العالي واركانها المعتمة وضوء نارها الكابية.

واضافت قائلة: انه يشبه الحلم تماماً، الوقت منتصف الليل وجميع من في البيت نيام - الجميع عدانا. نحن في أتم اليقظة.

فقال الولد غير مرتاح: انا لااريد ان يكون هذا حلماً.

وفكرت ميري بشيءٍ على الفور.

وقالت: اذا كنت لاتحب الناس فهل تريدني أن اذهب.

كان مايزال ماسكاً طية دثارها فشدها قليلاً.

وقال: لا، وإلا لتأكد لي ان ذلك حلم اذا ماذهبت. اذا كنت حقيقية فاجلسي على هذا الكرسي وتكلمي. اريد ان اسمع عنك.

ووضعت ميري شمعتها على المنضدة بجانب السرير وجلست على الكرسي. ولم تكن تريد ان تخرج ابداً: ارادت ان تبقى في الغرفة السرية المخفية وتتحدث الى الولد السري.

فقالت: ماذا تريدني ان اخبرك ؟

اراد ان يعرف متى جاءت الى ميسيلثوايت. واراد ان يعرف في اي ممر غرفتها. اراد أن يعرف ماذا كانت تفعل، وهل كانت

تكره المروج كما يكرهها، وأين كانت تعيش قبل أن تأتي الى يوركشير. فاجابت على جميع تلك الأسئلة وكثير غيرها. واستلقى على وسادته واصغى اليها. وجعلها تحدثه كثيراً عن الهند وعن رحلتها عبر المحيط.

واكتشفت انه لم يتعلم شيئاً كالاطفال الاخرين بسبب علته.

علمته احدى مربياته ان يقرأ عندما كان صغيراً جداً وكان يقرأ دائماً ويتفرج على الصور في الكتب الرائعة.

وبالرغم من ان اباه نادراً ماكان يراه عندما يكون مستيقظاً، فانه كان قد اعطيت له اشياء كثيرة وعجيبة ليسلي نفسه بها ولم يكن يبدو عليه انه كان يتسلى بها ويرتاح. كان يحصل على اي شيء يطلبه ولم يكن يقوم باي شيء لايحب القيام به.

وقال دونما اكتراث: الجميع مجبرون على القيام بما يسرني. وهذا يمرضني ويغضبني. ولايعتقد احد انني سأعيش واكبر.

قال ذلك كأنه اعتاد على فكرة انه لم يعد يهتم بذلك قط.

وبدا انه صار يحب صوت ميري، فيروح يصغي كلما استرسلت في حديثها بطريقة تدل على الاهتمام وكأنه نعسان في الوقت نفسه. وتساءلت ميري هل سيغفو حقاً. ولكنه في نهاية الامر سألها سؤالاً فتح موضوعاً جديداً.

- كم عمرك؟

فاجابت ميري وقد نست نفسها لحظة: عمري عشر سنوات. وأنت كذلك.

فاستفسر منها مندهشاً: وكيف علمت ذلك ؟

– لانك عندما ولدت، غلق الباب ودفن المفتاح. وظلت الحديقة مقفلة عشر سنوات.

وجلس كولن نصف جلسة واستدار نحوها وهو متكئ على مرفقيه:

وسألها كأنه ثار اهتمامه فوراً في تلك المسألة: اي باب حديقة اقفل ؟ ومن فعل ذلك ؟ واين دفن المفتاح ؟

فقالت ميري بانفعال: هي – هي الحديقة التي يكرهها كريفن.

أقفل الباب. ولايعلم – لايعلم احد اين دفن المفتاح.

والح عليها كولن يسأل: اي نوع من الحدائق هي ؟

فاجابت ميري باهتمام وحذر: لم يسمح لاحد بالدخول فيها منذ عشر سنوات.

ولكن فات اوان الحذر. فقدكان كولن يشبهها كثيراً ، اذ لم يكن لديه شيئ كثير يفكر فيه، وجلبت انتباهه فكرة الحديقة السرية المخفية كما جلبت انتباهها. ووجه سؤالاً بعد سؤال. اين هي ؟ الم تبحث عن الباب ؟ الم تسأل الفلاحين ؟

فقالت ميري: لايريدون الحديث عنها. واظن أنهم أخبرو ان لايجيبوا على الاسئلة.

فقال كولن: ولكنني سأسأل واجعلهم يجيبون.
فترددت ميري وبدأت تخاف. اذا جعل الناس يجيبون على أسئلته. فمن يعرف ماذا سيحدث ؟
وسألته: هل تستطيع ذلك.
فقال: الجميع مجبرون على ارضائي. وقد قلت لك ذلك. اذا عشت فان هذا المكان سيكون لي. كلهم يعرفون ذلك ساجعلهم يخبروني.
لم تكن ميري تعرف أنها نفسها كانت مدللة، ولكنها رأت بوضوح تام ان هذا الولد الغامض مدلل، ويظن أن العالم كله يعود له.
ماأشد غرابته وما ابرد طريقته في الكلام عن عدم العيش!
- أتظن أنك لن تعيش ؟
أسألته ميري، حباً في المعرفة من جهة واملاً في جعله ينسى الحديقة.
فأجاب دون اكتراث كما تكلم سابقاً: لا أظن اني سأعيش. سمعتهم، منذ ان وعيت، يقولون انني لن أعيش، كانوا يظنون أنني صغير فلاافهم، ويظنون الآن انني لااسمع.
ولكنني في الحقيقة اسمع كل شيء. طبيعي هو ابن عم والدي. وهو فقير جداً. واذا مت فانه سيستولي على جميع المنطقة بعد موت أبي.
واظن انه لايريدني ان اعيش.

فسألت ميري، تريد ان تعيش؟

فاجاب بصوت مغتاظ وهيئة متعبة: لا. ولكنني لااريد أن أموت. عندما اشعر بالمرض، استلقى هنا وافكر به حتى ابكي وابكي.

فقالت ميري: سمعتك ثلاث مرات تبكي. ولكنني لم أعرف من كان يبكي. هل كنت تبكي بسبب ذلك ؟

ارادته أن ينسى الحديقة.

فاجاب: ربما. دعينا نتحدث عن شيء آخر: تحدثي عن تلك الحديقة. هل تريدين رؤيتها ؟

فاجابت: بصوت واطيء: نعم.

واستمر في حديثه: انا أيضاً. ولااظن انني اردت يوماً ان ارى شيئاً قبل هذا، ولكنني اريد ان ارى تلك الحديقة. واريد ان يستخرج المفتاح. واريد فتح الباب. ساجعلهم يأخذونني الى هناك في كرسي. وفي هذا شم للهواء العذب. ساجعلهم يفتحون الباب.

انفعل تماماً وبدأت عيناه تشرقان كالنجوم وبدتا أوسع من ذي قبل.

وقال: عليهم ارضائي. ساجعلهم يأخذونني الى هناك وسأسمح لك بالذهاب أيضاً.

وقبضت ميري على يديها بقوة، سيضيع كل شيء. ولن يعود ديكون. ولن تشعر أبداً انها مثل شحرور في عش آمن.

فصاحت: اوه لا، لا، لا، لاتفعل ذلك!
وحدق فيها كأنه يعتقد أنها اصيبت بالجنون!
فسألها: لماذا؟ قلت أنك تريدين رؤيتها.
فاجابت والعبرة تكاد تخنقها: اريد ان اراها ولكن اذا جعلتهم يفتحون الباب ويدخلونك فيها، فلن تبق حديقة سرية بعد هذا.
وانحنى الى الامام أكثر.
وقال: سرية! ماذا تقصدين؟ أخبريني.
وراحت كلماتها تتغير فوق بعضها البعض وهي تلهث قائلة:
- أنت تعرف - أنت تعرف، اذا كان لايدري احد سوانا - اذا كان هناك باب مخفي في مكان ما تحت نبات اللبلاب - اذا كان موجوداً واستطعنا ايجاده، واذا استطعنا ان نتسلل داخله معاً ونغلقه وراءنا ولايعرف احد بوجود احد في الداخل ودعوناها حديقتنا وتظاهرنا ان - اننا شحرورين وانها عشنا، واذا لعبنا هناك كل يوم تقريباً وحرثنا و بذرنا البذور وجعلناها كلها تعود الى الحياة.
فقاطعها قائلاً: هل هي ميتة ؟
واستمرت في قولها: ستموت في الحال اذا لم يعتن بها احد. الابصال يمكن ان تعيش ولكن الورود -
واوقفها مرة أخرى وكان منفعلاً مثل انفعالها وسألها مسرعاً:
- ماهي الابصال.

– هي النرجس والنسرين وزهور اللبن الثلجي. هي الآن في طور النمو في التربة – فتخرج رؤوسها الخضر الغامقة لان الربيع آت.

وقال: هل الربيع آت؟ ماشكل الربيع ؟ انك لاترينه في الغرفة اذ كنت مريضة.

فقالت ميري: هو شروق الشمس على المطر وسقوط المطر على ضوء الشمس، وبزوغ الاشياء بعد نموها داخل التربة. واذا كانت الحديقة سرية ونستطيع دخولها، فاننا نستطيع ان نراقب الاشياء تنموكل يوم، ونرى عدد الورود الحية. الاترى ماأقصد ؟ الاترى مااجمل لو كانت سرية ؟

وتهاوى على وسادته واستلقى وعلى وجهه تعبير غريب وقال: ليس لدي سر سوى ذلك انني لن أعيش. وهم لايدرون انني اعرف ذلك، فهذا اذن نوع من السر. ولكنني احب هذا الجديد اكثر.

فالتمسته ميري قائلة: اذا لم تجعلهم يأخذونك الى الحديقة فلعلي – اشعر انني أستطيع ان اجد طريقة للدخول بعد فترة وجيزة، ثم اراد الطبيب ان تخرج على كرسيك، واذا كنت تستطيع ان تفعل ماتريد فعله، فلعلنا – لعلنا نستطيع ان نجد صبياً يدفعك، فنستطيع ان نذهب وحدنا، فنكون بذلك حديقة سرية دائماً.

فقال ببطء شديد وعيناه حالمتان: احب – ذلك. احب ذلك. ولن يهمني الهواء الطلق في الحديقة السرية.



وأخذت ميري تستعيد أنفاسها وتشعر بالأمان لان فكرت الاحتفاظ بالسر بدت كأنها راقت له. وايقنت أنها اذا واصلت حديثها واستطاعت ان تجعله يرى الحديقة في خياله كما رأتها فأنه سيحبها كثيراً ولن يتحمل التفكير ان يدخلها الجميع متى ماارادوا.

فقالت: ساخبرك مااتصور عن شكلها، اذا استطعت الدخول فيها.

لقد أغلقت منذ مدة طويلة، فلعل الاشياء نبتت فيها بصورة متشابكة.

استلقى الصبي ساكناً يصغي وهي تواصل حديثها عن الورود التي تسلقت من شجرة الى أخرى وتدلت – وعن الطيور الكثير التي لعلها بنت اعشاشها فيها لانها مكان آمن. ثم أخبرته عن ابي الحناء وبين ويذرستاف. وتحدثت كثيراً عن ابي الحناء والحديث عنه آمن مما جعلها تكف عن الشعور بالخوف. واسره الحديث عن ابي الحناء كثيراً فابتسم حتى بدا جميلاً، وقد ظنت ميري في باديء الامر انه اقبح منها، بالرغم من عينيه الواسعتين وخصل شعره الكثيفة.

وقال: لم اكن ادري ان الطيور يمكن ان تكون بهذا الشكل.

انك اذا مكثت في غرفة فانك لن ترى الاشياء. ماأكثر الاشياء التي تعرفينها. اشعر انك دخلت تلك الحديقة يوماً.

ولم تدر ماتقول لذلك لم تقل شياءً. لذلك لم يتوقع منها جواباً ولكنه فاجأها في اللحظة التالية بقوله:

- سأدعك تنظرين الى شيءْ. هل ترين تلك الستارة الوردية المسدلة على الجدار فوق رف المدفئة؟

لم تلاحظ ذلكْ قبل هذا ولكنها تطلعت الى الاعلى فرأتها. كانت ستارة من الحرير الناعم مسدلة على مايبدو انه صورة.

فاجابت: نعم.

فقال كولن: هناك حبل معلق فيها. اذهبي واسحبيه.

فنهضت ميري وهي مسحورة ووجدت الحبل. وعندما سحبته تراجعت الستارة على حلقات، وعندما تراجعت كشفت عن صورة.. هي صورة فتاة ذات وجه باسم. لها شعر لامع ربط باشرطة زرق وكانت عيناها الجميلتان البهيجتان تشبهان عيني كولن الحزينتين بلونهما الرمادي - العقيقي، وتبدوان اكبر مرتين من الواقع، بسبب الاهداب السود حولها.

قال كولن شاكياً: هي امي. لاادري لماذا ماتت. اكرهها احياناً لانها فعلت ذلك.

فقالت ميري: ماأعجب هذا!

فغمغم قائلاً: لو أنها عاشت لما مرضت دائماً، على ماأظن. ولعلي سأعيش، ولعل ظهري كان قوياً. اعيدي الستارة.

وفعلت ميري ماقال لها وعادت الى مقعدها.

وقال: انها أجمل منك بكثير. ولكن عينيها مثل عينيك تماماً

– في الشكل واللون في الاقل لماذا تسحب الستارة فوقها؟

فتحرك غير مرتاح.

وقال: انا اردت ذلك. لااحبَ احياناً ان اراها تنظر الي. فهي تبتسم دائماً عندما أكرن مريضاً وتعيساً. وفضلاً عن ذلك، فهي لي ولااريد ان يراها كل انسان.

وتلت ذلك لحظات صمت ثم تكلمت ميري.

وسألته: ماذا تفعل السيدة ميدلوك اذا عرفت أنني جئت الى هنا؟

فاجاب: ستفعل مااقول لها. ساقول لها أنني اريدك أن تأتي الى هنا وتتحدثي الي كل يوم. انا مسرور بمجيئك.

فقالت ميري: وانا ايضاً. ساجيء كلما استطعت ولكن – ثم تلكأت – في مابعد.

واستلق مفكراً دقائق معدودات، كما فعل قبلاً ثم تكلم مرة أخرى:

وقال: أعتقد أنك ستبقين سراً ايضاً. لن أقول لهم حتى يكتشفوا الامر. يمكنني دائماً ان ابعد الخادمة عن الغرفة واقول لها انني اريد أن أكون وحدي. هل تعرفني مارثا؟

فقالت ميري: نعم، أعرفها جيداً. هي التي تقوم برعايتي وخدمتي.

الليلة مع أختها وتطلب الى مارثا دائماً ان ترعاني عندما تريد ان تخرج. ستقول لك مارثا متى تأتين الى هنا.

عند ذلك عرفت ميري النظرة القلقة في وجه مارثا عندما سألتها عن البكاء.

فقالت: هل تعرف عنك مارثا منذ مدة طويلة ؟

– نعم. هي تقوم على خدمتي في كثير من الاحيان. المربية تود ان تبتعد عني فتأتي مارثا الي.

فقالت ميري: جئت الى غرفتك وطال مكوثي معك. هل اذهب الآن؟

يبدو النعاس في عينيك.

فقال في شيء من الخجل: أتمنى لو أستطيع ان أنام قبل ان تغادريني وقالت ميري وهي تسحب كرسيها قريباً اليه: أغلق عينيك. وسافعل ماعتادت مربيتي الهندية أن تفعل. سأربت على يدك وأمسدها واغني شيئاً هادئاً بصوت واطيء تماماً.

فقال والنعاس يداعبه: لعلي سأحب ذلك.

شعرت ميري بشيء من الأسى عليه ولم تكن تريده ان يظل مستيقظاً فمالت نحو السرير واخذت تمسد يده وتربت عليها وتغني بصوت واطيء جداً أغنية هندية.

– هذا شيء لطيف.

قال ذلك وهو يغالب والنعاس يغالبه واستمرت في غنائها وتمسيدها ولكنها عندما نظرت اليه مرة أخرى كانت أهدابه السود راقدة على خديه لان عينيه انطبقتا وراح في نوم عميق. ونهضت بخفة وأخذت شمعتها وتسللت دونما صوت.

١٤ ـ المراجا الشاب

اختفت المروج وراء ضباب كثيف عندما جاء الصباح ولم يتوقف المطر عن الهطول . ولم يكن الخروج من البيت ممكنا . وكانت مارثا منشغلة جدا فلم تجد الفرصة للحديث معها ، ولكنها طلبت اليها عصرا ان تاتي اليها في جناحها . فجاءت وجلبت معها الجوارب التي كانت تحوكها دائما عندما لم يكن لديها شيئ آخر تعمله .

وسألتها حالما جلستا : ماذا دهاك ؟ يبدو ان لديك شيئا تودين قوله .

فقالت ميري : اجل عندي . لقد وجدت مصدر البكاء فوقع ما كانت تحوكه على ركبتها وحدقت فيها بعيين جافلتين . وهتفت : لا لم تفعلي ! اطلاقا !

فواصلت ميري قولها : سمعته في الليل ، فنهضت وخرجت لارى من اين يأتي . كان كولن . وجدته .

واحمر وجه مارثا من الرعب .

وقالت شبه باكية : اه انسه ميري ! كان يجب ان لاتفعلي ذلك . ان لا تفعلي ذلك . ستجعلينني في مازق . انا لم اخبرك شيئا عنه – ولكنك ستجعليني في مازق . وسافقد عملي وماذا ستقول امي !

فقالت ميري : لن تفقدي عملك . لقد فرح بمجيئي . تحدثنا وتحدثنا وقال انه مسرور بمجيئي .

فصاحت مارثا ! هل كان مسرورا ؟ أأنت متأكدة ؟ انت لا تعرفين كيف يكون عندما يغيظه شيئ . انه صبي كبير ولكنه يبكي كالرضيع ، وعندما ينفعل ويتالم فانه يصرخ من اجل اخافتنا فقط . وهو يعرف اننا لا نستطيع ان نسمي الاشياء باسمائها .

فقالت ميري : وسألني اسئلة عديدة وجلست على كرسي وثير وتحدثت اليه عن الهند وعن ابي الحناء والحدائق . ولم يدعني اذهب . وأراني صورة امه . وقبل ان اتركه غنيت له لينام .

فذهلت مارثا وقالت محتجة : انا لا اصدقك ابدا ! انك كمن دخل عرين الاسد مباشرة اذا كان كشأنه في معظم الحالات لانفجر في نوبة من نوبات غضبه واثار البيت كله . فهو لا يدع الغرباء ينظرون اليه .

فقالت ميري : سمح لي ان انظر اليه . وبقيت انظر اليه طوال الوقت ونظر هو لي ايضا . وحدقنا احدنا في الاخر .



صاحت مارثا منفعلة : انا لا ادري ماذا افعل ! اذا اكتشفت السيدة ميدلوك الامر ، فانها ستعتقد انني خرقت الانظمة واخبرتك عنه ، سوف تعيدني الي امي .

فقالت ميري بحزم وثقة : لن يخبر السيدة ميدلوك باي شيئ عن ذلك . سيكون ذلك نوعا من السر باديئ ذي بدء . وهو يقول ان الجميع مجبرون على القيام بما يسره ويرضيه .

فتنهدت ميري وهي تمسح جبينها بمئزرها ، وقالت : اي ، نعم ، هذا صحيح - هذا الولد الكريه .

- يقول ان السيدة ميدلوك يجب ان تقوم بذلك . وهو يريد ان آتي واتحدث اليه كل يوم . وعليك انت ان تخبريني متى يريدني .

فقالت مارثا : انا ! سافقد وظيفتي - سافقدها بالتاكيد .

فاكدت ميري قائلة : لن تفقديها اذا كنت تقومين بما يريد منك القيام به بما ان الجميع مجبرون على اطاعته .

فصاحت مارثا وعيناها متسعتان : هل تقصدين ان تقولي انه كان لطيفا معك .

فاجابت ميري : اظن انه ابني ايضا .

فاكدت مارثا وهي تتنفس نفسا طويلا : اذن فلابد انك سحرته ! فاستفسرت ميري قائلة : اتقصدين السحر . سمعت عن السحر في الهند، ولكنني لا أستطيع القيام به، ذهبت الى غرفته فقط ودهشت برؤيته فوقفت وحدقت فيه . فالتفت وحدق فيَّ وظن انني شبح او حلم وظننت انه كان كذلك . كان

الامر غريبا ان نلتقي معا في وسط الليل ولم يكن يعرف احدنا عن الاخر شيئا . وبدأنا نسأل اسئلة يوجهها احدنا الى الاخر . وعندما سألته هل اخرج قال لا تخرجي .

ففغرت مارثا فمها وقالت لاهثة : لقد جاءت نهاية العالم!

فسألت ميري : ما خطبه؟

فقالت مارثا : لا يعرف احد بالضبط وبالتاكيد . فقد السيد كريفن صوابه عند ولادته . وقرر الاطباء ايداعه الى احد ملاجئ الايتام لان السيدة كريفن ماتت كما قلت لك . ولم يكن يريد رؤية الطفل . وصار يهذي ويقول انه احدب اخر مثله والافضل له ان يموت .

فسألت ميري : هل كولن احدب ؟ انه لا يبدو كذلك .

فقالت مارثا : هو ليس احدب لحد الان . ولكن البداية كانت مغلوطة . تقول امي ليس من الحكمة في البيت ان ينشأ الطفل على نحو خاطئ كانوا خائفين ان يكون ظهره ضعيفا فاولوه رعاية دائمة ، وجعلوه يرقد في السرير ولم يدعوه يمشي . وشدوا ظهره برباط فاغتاظ وهاج فتدهورت صحته . ثم جاء طبيب كبير للكشف عليه وامرهم بفك الرباط . وأخشن القول الى الطبيب الآخر ولكن بأسلوب مؤدب . فقال من الافضل استعمال الادوية وتركه على طبيعته .

فقالت ميري : اظن انه ولد مدلل .

فقالت مارثا : انه اسوأ طفل في الوجود وكان دائم المرض

ولم يعرف العافية ابدا . اصيب بالسعال والبرد فكاد ان يموت مرتين او ثلاث مرات . واصيب ذات مرة بحمى الروماتزم ، وبالتيفوئيد مرة اخرى . واصيبت السيدة ميدلوك بالرعب في ذلك الوقت . وخرج الصبي عن صوابه . وتكلمت مع مربيته وهي تظن انه لا يعرف شيئا فقالت لها : «سيموت هذه المرة بلا ريب ،وهذا خير له وللجميع ونظرت اليه فحدق فيها بعينيه الواسعتين عارفاً ، مدركا كل شيء . ولم تدر ماذا سيحصل ، ولكنه حدق فيها وقال : اعطني قليلا من الماء وكفي عن الكلام .

فسألت ميري : هل تظنين انه سيموت ؟

اجابت ميري : تقول امي ليس من المعقول ان يعيش طفل بدون هواء نقي ، ولا يعمل شيئا سوى الاستلقاء على ظهره ويقرأ الكتب المصورة ويأخذ الدواء انه ضعيف ويكره مسألة الخروج من البيت . وهو يصاب بالبرد وهذا ما يجعله مريضا .

جلست ميري ونظرت الى النار .

وقالت ببطء : انني اتساءل : الا ينفعه الخروج الى الحديقة والتفرج على الاشياء وهي تنمو . ان ذلك نفعني كثيرا .

فقالت مارثا : من اسوأ النوبات التي اصابته يوم اخرجوه واخذوه الى حيث الورود حول النافورة . قرأ يوما في جريدة عن اناس اصيبوا بشيء يسمى «برد الورود» فبدأ يعطس وقال انه اصيب بذلك ، ثم مر بهم فلاح جديد لم يكن يعرف الاصول ونظر اليه بفضول فانفجر في نوبة عنيفة من الغضب وقال انه نظر

اليه لانه سيصبح احدب . فبكى حتى اصابته الحمى ومرض طوال الليل .

فقالت ميري : اذا غضب عليّ فلن اذهب لرؤيته مرة اخرى .

قالت مارثا : اذا ارادك سيقبلك . لابد ان تعرفي منذ البداية .

ثم دقّ جرس فلفت حياكتها .

وقالت : لعل المربية تريدني ان ابقى معه قليلا . اتمنى ان يكون في مزاج طيب .

خرجت من الغرفة وبعد عشر دقائق عادت وعلى وجهها تعبير حائر .

وقالت : لقد سحرته . لقد نهض وجلس على الاريكة وبين يديه كتبه المصورة . قال للمربية ان تخرج وتبقى بعيدا عنه حتى الساعة السادسة . وعليّ ان انتظر في الغرفة المجاورة . وعندما خرجت المربية استدعاني وقال : «اريد ميري لينوكس ان تأتي وتتحدث معي ، وتذكري ان لاتخبري احداً» الافضل إن تذهبي باسرع ماتستطيعين.

كانت ميري راغبة ان تذهب مسرعة ، ولم تكن تريد ان ترى كولن كما كانت تريد ان ترى ديكون.

كانت النار مظطرمة في المصطلى (المدفئة) عندما دخلت غرفته ورأت في ضوء النهار أنها كانت غرفة جميلة في الحقيقة.

الوان رائعة في البسط والستائر والصور التي على الجدران، مما جعلتها متألقة ومريحة بالرغم من الجو المكفهر والمطر المنهمر. وقد بدا كولن نفسه مثل صورة.

كان مرتدياً ثوباً مخملياً وجلس متكئاً على وسادة مطرزة. وكان على كل خد من خديه بقعة حمراء.

قال: ادخلي. كنت أفكر فيك طوال الصباح.

فاجابت ميري: كنت أفكر فيك أيضاً. لاتدري كيف ارتعبت مارثا. تقول ان السيدة ميدلوك ستظن ان مارثا هي التي اخبرتني عنك وسوف تطردني.

فقطب جبينه.

وقال: اذهبي واخبريها ان تأتي الى هنا. هي في الغرفة المجاورة.

خرجت ميري وعادت معها. المسكينة مارثا كانت ترتعد. وكان كولن مايزال متعباً.

وسألها: اعليك ان تفعلي مايرضيني ام لا؟

فقالت مارثا متلعثمة وقد احمر وجهها: علي ان افعل مايرضيك، سيدي.

– ايجب على السيدة ميدلوك ان تفعل مايرضيني؟

فقالت مارثا: هذا واجب الجميع، يا سيدي.

– حسناً اذن، اذا امرتك ان تجلبي الانسة ميري اليّ كيف تستطيع ميدلوك ان تطردك اذا اكتشفت الامر؟

فتوسلت اليه مارثا قائلة : ارجوك، سيدي، لاتدعها تفعل.

فقال كريفن الصغير متشامخاً: ساطردها اذا ماتجرأت ان تتفوه بكلمة عن مثل هذا الامر. وهي لاتحب ذلك، اوكد لك.

وانحنت له انحناءة احترام وقالت: شكراً لك سيدي. اريد ان اقوم بواجبي، سيدي.

فقال كولن بتشامخ اعلى: ان مااريده هو واجبك. سوف ارعاك. والآن اذهبي.

وعندما اغلقت الباب وراء مارثا وجد كولن الانسة ميري تحملق فيه كأنه هو الذي اثار دهشتها.

فسألها: لماذا تنظرين اليّ هكذا. بماذا تفكرين.

— انني افكر بشيئين.

— ماهما؟ اجلسي واخبريني.

فقالت ميري وهي تجلس على الكرسي الكبير: هذا هو الشيء الاول: رأيت ذات مرة في الهند ولداً من الراجات. ملابسه مزينة بالياقوت والزمرد والماس. كان يتكلم مع الناس كما تكلمت انت مع مارثا. كان على الجميع ان يقوموا بكل شيء يقوله لهم في الحال.

واظن انهم ان لم يفعلوا مايأمرهم فانهم سيقتلون.

فقال كولن : اريدك ان تخبريني عن الراجات فوراً. ولكن اخبريني اولاً عن الشيء الثاني.

فقالت ميري: كنت أفكر عن مدى الاختلاف بينك وبين

طير او ارنب، وهو يحبهن كثيراً. واظن انه سأل ابي الحناء اسئلة.وكأنهما كانا يتحدثان في سقسقة رقيقة.

واستلق كولن على وسادته واتسعت عيناه اكثر والتهبت البقعتان على خديه.

وقال: حدثيني اكثر عنه.

فواصلت ميري قولها: يعرف كل شيئ عن البيض والاعشاش.

ويعرف اماكن عيش الثعالب والقنادس والغريرات. ولايفشي اسرارها لئلا يعرف الاولاد او جارها ويرعبونها.

يعرف كل شيئ عن النباتات والحيوانات في المروج.

فقال كولن: هل يحب المروج؟ كيف يستطيع ذلك وخصوصاً هي مكان فسيح موحش.

فاعترضت ميري قائلة: بل هي أجمل مكان. تنمو فيه آلاف من الاشياء الجميلة، وفيها آلاف من المخلوقات المنشغلة ببناء الاعشاش والاوجار والانفاق وهي تسقسق أو تغرد او تصيئ فيما بينها. فهي تنشغل كثيراً وتمرح تحت الارض او على الاشجار او بين الازهار. هذا هو عالمها.

فسألها كولن وهو يستدير متكئاً على مرفقه لينظر اليها: كيف عرفت كل هذه الاشياء؟

فقالت ميري وقد تذكرت فجأة: لم أذهب الى المروج قط سوى انني رأيتها أثناء مجيئي الى هنا بالعربة في الظلام. واظن انها

ديكون.

فقال: من هو ديكون. ماأغرب هذا الاسم.

ففكرت انها لابد ان تخبره عنه. تستطيع ان تتحدث عن ديكون دون ان تذكر شيئاً عن الحديقة السرية. كان يعجبها ان تسمع مارثا تتحدث عنه. وفضلاًوعن ذلك، اشتاقت هي للحديث عنه. وبدا لها كأن ذلك يقربه منها.

فشرحت له قائلة: هو أخو مارثا وعمره اثنتا عشرة سنة. انه لايشبه احداً في هذه الدنيا. يستطيع ان يسحر الثعالب والسناجيب والطيور كما سحر الهنود الافاعي. يستطيع ان يعزف نغماً رقيقاً على مزماره فتأتي اليه وتستمع.

كانت بعض الكتب الكبيرة على المنضدة الى جانبه وسحب احدها فجأة اليه.

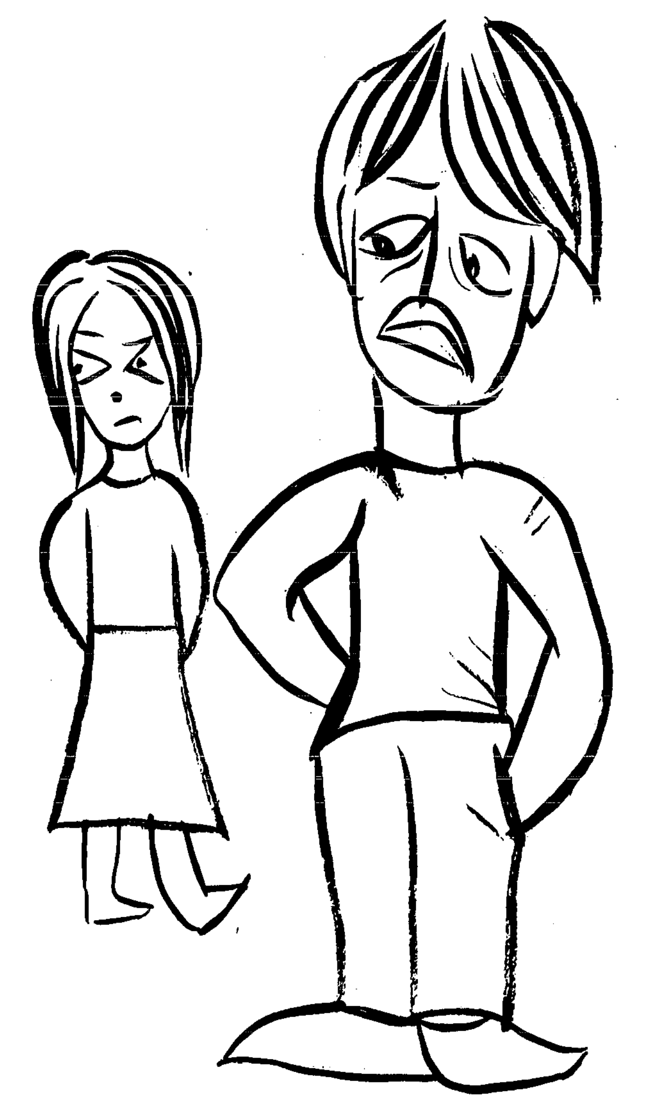
وهتف قائلاً: هذه صورة ساحر الافاعي – الحاوي – تعالي أنظري اليها.

كان الكتاب جميلاً فيه صور رائعة ملونة، وقلّب ثم أشار الى أحداها.

وسألها متلهفاً: هل يستطسع ان يفعل مثل هذا.

فاوضحت ميري له قائلة: هو يعزف على مزمار وهي تصغي اليه.

ولكنه لايدعوا ذلك سحراً. يقول ان سبب ذلك لانه يعيش في المروج كثيراً ويعرف طرائقها. يقول انه يشعر احياناً كأنه



كانت بشعة. وقد حدثتني مازثا عنها اولاً، ثم ديكون بعد ذلك.

عندما يتحدث ديكون عنها تشعر كأنك ترى الاشياء وتسمعها، وكأنك واقف بين الزهور والشمس مشرقة وتفوح رائحة كالعسل من ازهار الرثم - والنحل والفراش يحوم فوقها.

فقال كولن غير مرتاح: انت لاترين شيئاً اذا كنت مريضة.

وبدا كأنه يسمع صوتاً جديداً بعيداً فاصغى اليه وتساءل ماهو.

فقالت ميري: لاتستطيع ان ترى شيئاً اذابقيت في الغرفة.

فقال بامتعاض: لااستطيع الذهاب الى المروج.

وسكتت ميري دقيقة ثم قالت شيئاً جريئاً: يمكنك ان تخرج - يوماً. فتحركت كأنه جفل.

- اذهب الى المروج! كيف استطيع. انني سأموت.

- كيف عرفت؟

قالت ميري ذلك متعاطفة معه. ولم تعجبها طريقته في الحديث عن الموت. ولم تشعر بالعطف الشديد عليه، بل شعرت كأنه كان يتفاخر بذلك.

فاجاب مغتاظاً: سمعت ذلك منذ وعيت. انهم يتهامسون دائماً عن موتي ويعتقدون انني لاافهم. ويتمنون ايضاً ان اموت.

فاغتاضت ميري كثيراً وزمت شفتيها.

وقالت اذا كانوا يتمنون، فانا لااتمنى. من الذي يتمنى

موتك؟

– الخدم، ودكتور كريفن طبعاً، لانه سيحصل على مقاطعة ميسيلثوايت ويكون غنياً بدلاً من أن يبقى فقيراً، ولكنه لايجرؤ ان يقول ذلك، اذا هو يبدو دائماً سعيداً فرحاً كلما ساءت صحتي. وعندما اصبت بالتفوئيد اصبح وجهه سميناً تماماً.

واعتقد أن ابي يتمنى ذلك أيضاً.

فقالت ميري باصرار: انا لااعتقد انه يريد ذلك.

فجعل قولها ذلك كولن يلتفت وينظر اليها.

وقال: الا تعتقدين؟

ثم عاد فاستلقى على الوسادة وهدأ، كأنه كان يفكر. وامتد بينهما صمت طويل للغاية. لعلهما كانا يفكران باشياء غريبة لايفكر بها الاطفال عادة.

فقالت ميري اخيراً: انا يعجبني الطبيب الكبير من لندن لانه امرهم برفع الشيئ الحديدي عنك. هل قال انك ستموت؟

– لا.

– ماذا قال؟

فاجاب كولن: لم يتهامس. ولعله كان يعرف انني اكره ذلك. سمعته يقول شيئاً بصوت مسموع. «لعل الصبي يعيش اذا قرر هو ان يعيش. واجعلوه في هذه الحالة الذهنية من التفتح وعدم الاستياء. «ويبدو وكأنه كان منفعلاً.

فقالت ميري وهي تفكر وتشعر كأنها تود ان تحل هذه المسألة

وتستقر بشكل من الاشكال: ساقول لك من يجعلك في تلك الحالة من التفتح والبهجة. اعتقد ان ديكون يستطيع ذلك. انه يتحدث دائماً عن الاشياء الحية ولايتحدث دائماً عن الاشياء الميتة او الاشياء العليلة. انه دائم التطلع نحو السماء ومراقبة الطيور وهي تطير - او النظر الى الارض لرؤية الاشياء تنمو.

عيناه زرقاوان مدورتان وهما واسعتان تتطلعان في كل مكان. ويضحك ضحكة كبيرة بفمه الواسع - خداه احمران - احمران كثمار الكرز.

وسحبت كرسيها قريباً الى الاريكة وتغيرت ملامح وجهها والتعابير عليه لدى تذكر فمه الواسع وعينيه الواسعتين.

وقالت: انظر اليّ: دعنا لانتحدث عن الموت. فاني لااحب ذلك، بل دعنا نتحدث ونتحدث عن ديكون. ثم سنتفرج على صورتك.

انه احسن شيئ استطاعت قوله. الحديث عن ديكون يعني الحديث عن المروج وعن الكوخ وعن اهله الاربعة عشر الذين يعيشون فيه بستة عشر شلناً في الاسبوع - والاطفال الذين يسمنون على اعشاب المروج مثل الخيول البرية. وعن ام ديكون وحبل القفز - والمروج والشمس المشرقة عليها - وعن النبتات الصغيرات الخضراء اللون الفاقعة التي تخرج من التربة السوداء وتحمست فتحدثت اكثر مما تحدثت في اي يوم قبل هذا - وتحدث كولن واصغى كما لم يفعل قبل هذا ايضاً. واخذ الاثنان

يضحكان بلا سبب كما يفعل الاطفال عندما يكونون سعداء معاً. وضحكا كثيراً حتى أنهما في النهاية صارا يضحكان مثل طفلين صغيرين معافين اعتياديين في الثانية من عمرها — وكأنهما ليسا تلك البنت الصغيرة الجافة التي لاتحب أحداً، وذلك الولد المريض الذي يعتقد انه سوف يموت.

واستمتعا بوقتهما كثيراً فنسيا الصور ونسيا الوقت. وضحكا بصوت عال على بين ويذرستاف وطائره ابي الحناء، وجلس كولن كأنه نسي كل شيء عن ظهره الضعيف عندما تذكر فجأة عن شيء ما.

فقال: اتعرفين اننا لم نتحدث عن شيء واحد ونفكر به. نحن اولاد عم.

وبدا شيئاً غريباً انهما تحدثا كثيراً ولم يتذكرا هذا الشيء البسيط فضحكا اكثر من ذي قبل، لانهما اصبحا في حالة من المرح والبهجة فيضحكان على كل شيء. وفي غمرة هذا اللهو فتح الباب ودخل دكتور كريفن والسيدة ميدلوك. وارتعب دكتور كريفن وكادت السيدة كريفن ان تهوي على ظهرها لانه ارتطم بها مصادفة.

وصاحب المسكينة السيدة ميدلوك واوشكت عيناها ان تخرجا من محجريهما ياإلهي! ياإلهي!

وقال الدكتور كريفن وهو يتقدم: ماهذا! مامعنى هذا؟ فتذكرت ميري الولد الراجا مرة أخرى. واجاب كولن، كأن

رعب الدكتور وفزع السيدة ميدلوك لم يكن لهما الا تاثير تافه. ولم يرتبك او يخف الا قليلاً كأن قطة عجوزاً وكلباً قد دخلا الغرفة.

فقال: هذه ابنة عمي ميري لينوكس انا طلبت اليها ان تأتي وتتحدث الي. اني معجب بها. ولابد ان تأتي وتتحدث الي كلما ارسلت اليها.

والتفت دكتور كريفن الى السيدة ميدلوك مؤنباً

وقالت لاهثة: لاادري ياسيدي كيف حدث الامر. ليس ثمة خادم في هذا البيت يجرأ ان يتحدث – كلهم يعرفون الاوامر.

فقال كولن: لم يخبرها احد بشيء. هي سمعتني ابكي ووجدتني بنفسها. انا مسرور بمجيئها. لاتكوني سخيفة ياسيدة ميدلوك.

ورأت ميري ان دكتور كريفن لم يبد مسروراً. ولكن من الواضح انه لم يجرؤ على معارضة مريضه. فجلس بجانب كولن وجس نبضه.

وقال: اخشى ان يكون اصابك شيء من الانفعال. الانفعال ليس جيداً بالنسبة اليك، ياولدي.

فاجاب كولن: سانفعل ان ابعدت عني.

وبدأت عيناه تومضان بالخطر واكمل قوله: انا احسن حالاً هي تحسن حالي. يجب على المربية ان تأتي بشايها مع شايي. سوف نتناول الشاي معاً.

ونظرت السيدة ميدلوك والدكتور كريفن احدهما الى الآخر بشيءٍ من الاضطراب، ولكن لم يستطيعا عمل شيءٍ.

فقالت السيدة ميدلوك: يبدو أنه أحسن حالاً ياسيدي ولكن – ثم فكرت بالأمر – ولكنه في هذا الصباح كان يبدو افضل قبل أن تأتي الى غرفته.

فقال كولن: جاءت الى الغرفة في الليلة الماضية وبقيت معي مدة طويلة. وغنت لي أغنية هندية جعلتني أنام. وكنت أحسن حالاً عندما استيقظت. وطيبت افكاري. واريد شايي الآن اخبري المربية بذلك، ياسيدة ميدلوك.

ولم يبق دكتور كريفن طويلاً. وتحدث الى المربية دقائق معدودات عندما دخل الغرفة وحذر كولن وقال له يجب ان لا يتحدث أن لا ينسى أنه كان مريضاً ويجب أن لاينسى انه يتعب سريعاً. وفكرت ميري:

يبدو ان اشياء عديدة غير مريحة عليه ان لاينساها.

وبدا كولن مغتاظاً وظلت عيناه الغريبتان باهدابهما السود تحدقان بوجه كريفن.

وقال اخيراً: اريد ان أنسى ذلك. هي التي تجعلني انس ذلك. ولهذا انا اريدها.

ولم يبد دكتور كريفن سعيداً عندما غادر الغرفة. والقى نظرة حائرة على البنت الصغيرة الجالسة على الكرسي الكبير.

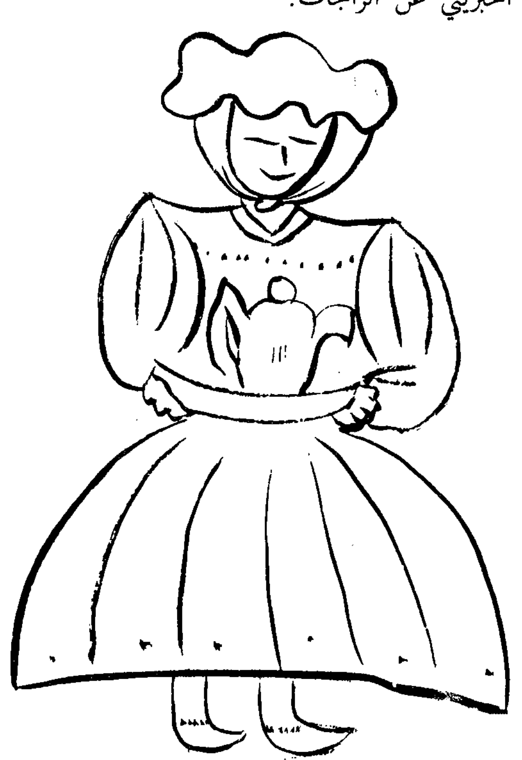
وصارت طفلة ساكنة جامدة حالما دخل الغرفة ولم يستطيع

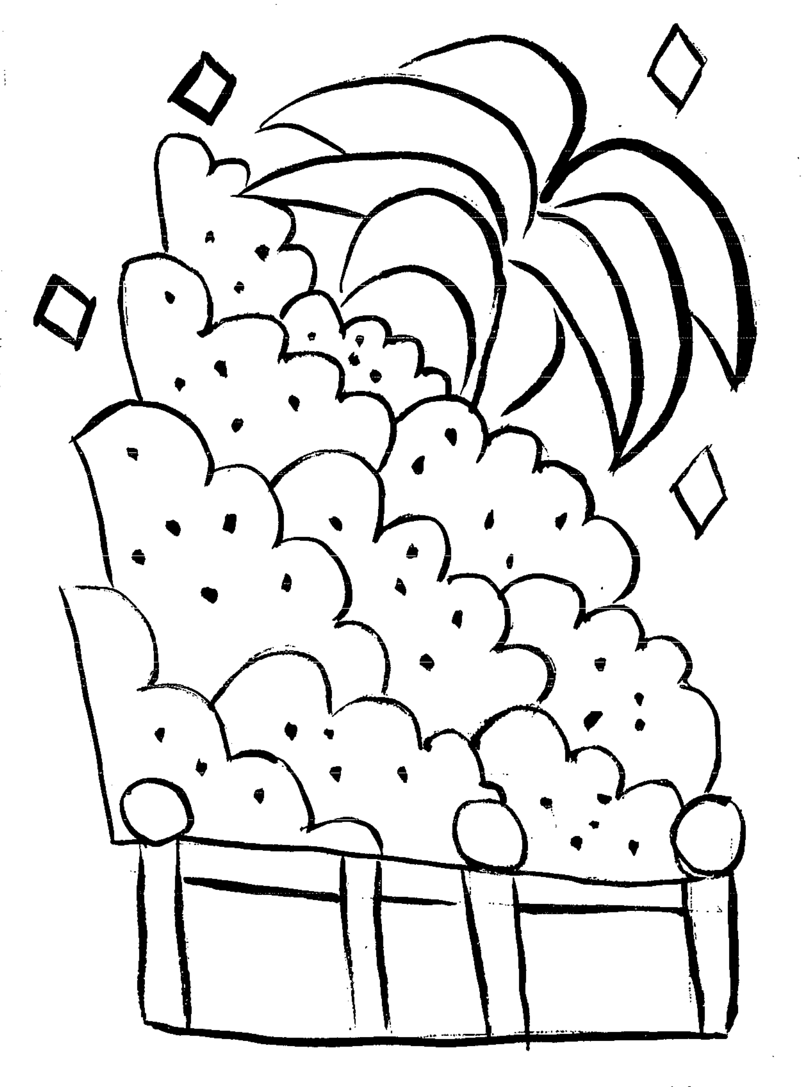
ان يرى الجاذبية فيها. ولكن الولد بدا فعلاً اكثر اشراقاً – وتنفس الصعداء، عندما سار الدكتور في الممر.

وقال: انهم يريدون مني دائماً ان اتناول اشياء لااحبها.

ودخلت المربية حاملة الشاي ووضعته على المنضدة الى جانب الاريكة.

– والآن، اذا أكلتِ، سوف آكل. هذه الفطائر طيبة وحارة. اخبريني عن الراجات.





١٥ ـ بناء العش

بعد اسبوع ماطر آخر ظهرت القبة السماوية الزرقاء العالية مرة اخرى وكانت الشمس التي انهمرت دافئة غاية الدفء. وبالرغم من عدم وجود فرصة سانحة لرؤية الحديقة السرية او ديكون. فان ميري استمتعت بوقتها كثيراً. ولم يكن الاسبوع يبدو طويلاً. فقد امضت ساعات كل يوم مع كولن في غرفته تحدثه عن الراجات او الحدائق او ديكون والكوخ والمروج. وتفرجا في الكتب الرائعة والصور وكانت ميري تقرأ احيانا بعض الاشياء لكولن ويقرأ هو احياناً اخرى لها. وعندما كان فرحاً مرتاحاً فكرت ميري انه لم يكن يبدو مريضاً عاجزاً قط، لولا ان وجهه كان شاحباً، وكان دائماً يجلس على الاريكة.

قالت السيدة ميدلوك: انت فتاة ماكرة تخرجين من سريرك تتسمعين سراً وتتبعين الامور كما فعلت في تلك الليلة. ولا ريب في ان ذلك فيه الخير لنا جميعاً. فلم تعد تصيبه نوبة غضب او

بكاء منذ ان تصادقتما. وكانت المربية على وشك ان تترك عملها لانها ضاقت به كثيراً ولكنها تقول انها لا يهمها الآن ان تبقى بعد ان خففت العبء عن كاهلها.

وضحكت قليلاً.

وكانت ميري حذره في كلامها مع كولن بصدد الحديقة السرية. كانت تريد ان تعرف اشياء معينة منه، ولكنها شعرت انها يجب ان تعرف ذلك دونما توجيه اسئلة مباشرة. بدأت بالدرجة الأولى تريد ان تعرف فيما اذا كان ولداً يمكن ان يحفظ السر اذا ما اودع اليه، وخصوصاً بعد ما صار يعجبها البقاء معه. لم يكن مثل ديكون اطلاقا، غير انه كان مسروراً بفكرة الحديقة التي لا يعرف عنها احد. فاعتقدت انه يمكن الوثوق به. ولكنها لم تعرفه منذ مدة طويلة كي تتحقق من الامر. والشيء الثاني الذي ارادت معرفته هو هذا: اذا امكن الوثوق به – اذا امكن حقاً – افلا يكون من الممكن اخذه الى الحديقة دون ان يعرف احد بذلك؟ قال الطبيب العظيم انه يجب ان يشم الهواء العذب، وقال كولن انه لن يبالي بالهواء الطلق في الحديقة السرية. لعله اذا استمتع بالهواء الطلق الكثير وتعرف على ديكون وطائر ابي الحناء ورأى النباتات تنمو، فانه لن يفكر بالموت كثيراً صارت ميري تنظر الى نفسها في المرآة احياناً عندما لاحظت انها اصبحت فتاة مختلفة عن تلك الطفلة التي رأتها عندما جاءت من الهند. هذه الفتاة اجمل وحتى مارثا لاحظت التغير فيها.

وقالت: لقد افاد الهواء من المروج كثيراً. لم تعودي شاحبة ولا هزيلة وحتى شعرك بدت الحيوية عليه فكأنه انتعش قليلا بعد ن كان خفيفاً.

فقالت ميري. انه مثلي. صار ينمو اقوى واكثف. اني متأكدة انه سوف يزداد كثافة.

فقالت مارثا: هذا شيء ظاهر بالتأكيد.

ونثرت شعر ميري على وجهها قليلا وواصلت قولها:

– لا تبدين قبيحة بهذا الشكل وخصوصاً وقد ظهر قليل من الحمرة في خديك.

واذا كانت الحدائق والهواء الطلق نافعين لها فلعلهما نافعان لكولن. ولكن اذا كان يكره ان ينظر الناس اليه، فلعله لن يحب رؤية ديكون.

فسألته يوماً: لماذا تنزعج اذا نظر الناس اليك!

فأجابها: اكره ذلك دائما وحتى عندما كنت صغيراً. وعندما اخذوني الى شاطيء البحر وكنت مستلقياً في عربتي، كان الناس ينظرون الي وكانت النساء تتوقف وتتحدث الى مربيتي ثم يبدأن بالهمس واعرف عندها يقلن انني لن اعيش. وكانت النساء احياناً يربتن على خدي ويقلن: «يا للطفل المسكين!» ذات مرة عندما فعلت احدى النساء ذلك صرخت عالياً وعضضت يدها، فارتعبت كثيرا وولت هاربة.

فقالت ميري ولم يعجبها ذلك قط: ظننت انك جننت

واصبحت كالكلب المسعور.

فقال كولن عابساً: لا يهمني ما فكرت به.

فقالت ميري: اني اتساءل لماذا لم تصرخ ولم تعضني عندما دخلت غرفتك؟

ثم راحت تبتسم ببطء.

فقال: ظننتك شبحاً او حلماً. فلا يمكنك ان تَعضّي الشبح او الحلم واذا ما صرخت فانهما لا يهتمان.

فسألته ميري مستعلمة: هل تكره – اذا ما نظر اليك ولد؟

ثم استلقى على الوسادة وتوقف قليلاً وهو يفكر.

وقال ببطء كأنه يفكر في كل كلمة يقولها: ثمة ولد واحد، ولد واحد اعتقد انني لا انزعج منه.. هو الولد الذي يعرف اين تسكن الثعالب – ديكون.

فقالت ميري: انني متأكدة انك لا تنزعج منه.

وقال وهو مايزال يفكر بالامر: الطيور والحيوانات الاخرى لا تنزعج منه، ولعل ذلك هو السبب الذي يجعلني لا انزعج. انه ساحر حيوانات وانا مثلها.

ثم ضحك وضحكت هي ايضاً. وانتهى الامر بضحكهما كثيراً ووجدا فكرة ولد – حيوان – مختبئ في مغارته فكرة لطيفة.. في الحقيقة.

وشعرت ميري بعد ذلك انها لا تخشى شيئاً على ديكون.

* * *

استيقظت ميري مبكرة في صباح اليوم الأول الذي كانت فيه السماء زرقاء مرة اخرى. كانت الشمس تنهمر اشعتها مائلة من خلال الستائر وكان في رؤيتها بهجة فوثبت ميري من فراشها وركضت نحو الشباك. ورفعت الستائر وفتحت النافذة نفسها، وهبت عليها دفقة عظيمة من الهواء العطر الطلق. كانت المروج زرقاء وبدت الدنيا جميعاً كأن شيئاً سحرياً قد حدث فيها. وتناهت اليها من هنا وهناك اصوات رقيقة صغيرة كاصوات المزامير ومن جميع الاتجاهات كأن عشرات من الطيور راحت تعزف الحانها في جوقة واحدة.. واخرجت ميري يدها من النافذة ومدتها الى الشمس.

وقالت: هي دافئة – دافئة! ستجعل الرؤوس الخضر الصغيرة تندفع الى اعلى فاعلى فاعلى، وستجعل الابصال والجذور تعمل وتكافح بكل طاقتها تحت الارض.

ومدت جسمها خارج النافذة ابعد ما استطاعت وراحت تستنشق الهواء بقوة حتى ضحكت لانها تذكرت ما قالت ام ديكون عن طرف انفه وهو يرتعش مثل انف الارنب.

وقالت: لابد ان الوقت مبكر جدا فالغيوم الصغيرة قرنفلية اللون ولم ار السماء تبدو بهذا الشكل، لم يستيقظ احد ولا اسمع حتى صوت السائسين في الاصطبل.

وجعلتها فكرة مفاجئة تنتصب على قدميها.

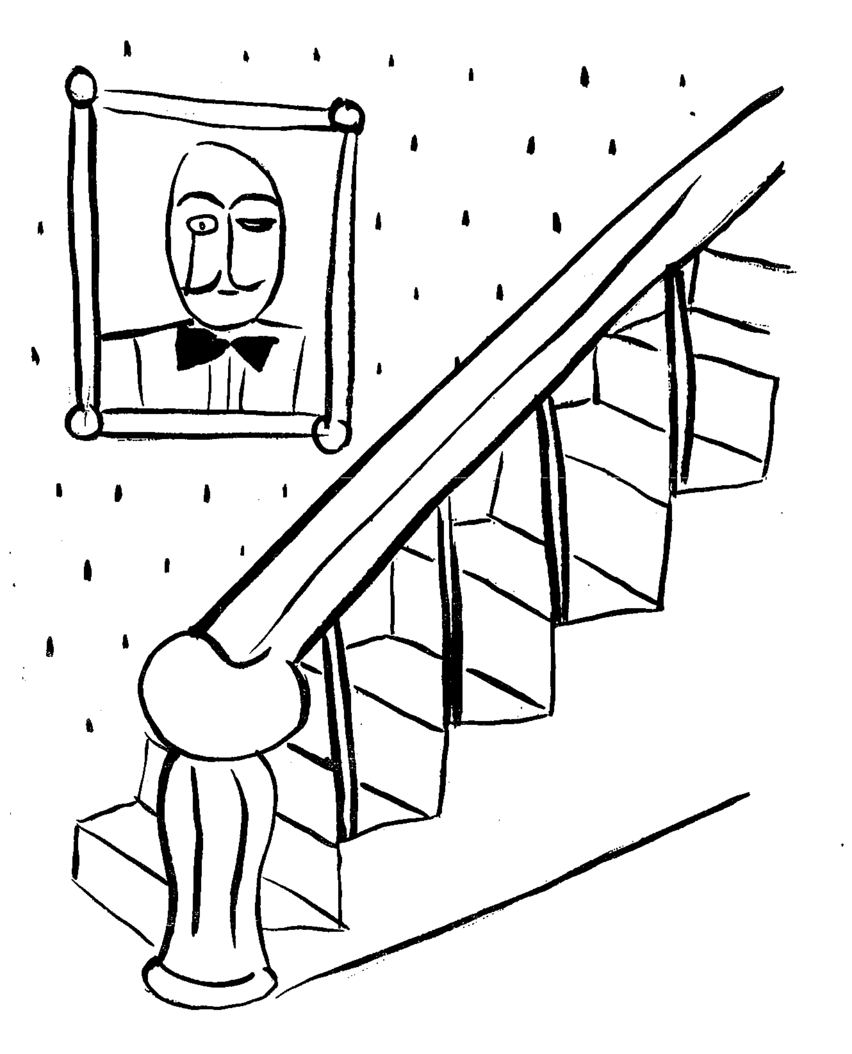
– لا استطيع الانتظار! سأذهب لرؤية الحديقة.

تعلمت ارتداء ملابسها بنفسها، فلبست ثيابها في خمس دقائق. وكانت تعرف باباً جانبياً صغيراً، تستطيع فتحه بنفسها. وركضت الى الطابق الاسفل في جواربها، ثم ارتدت حذاءها في البهو. وفتحت القفل ورفعت المزلاج وفكت السلسلة. وعندما فتح الباب، وثبت الدرجة بقفزة واحدة، وصارت فوق العشب الذي يبدو انه اصبح اخضر، وصارت الشمس تنهمر عليها، واتتها دفقات لطيفة دافئة من الهواء من كل جانب. وتناهت اليها اصوات المزامير والسقسقة. والتغريد من كل شجرة وشجيرة. وشبكت يديها من فرط البهجة. ونظرت الى السماء. كانت زرقاء وقرنفلية ولؤلؤية وبيضاء وتفيض بنور فصل الربيع فشعرت كأنها ستسقسق وتغرد هي نفسها بصوت عال. وعرفت ان الشحارير وطيور ابي الحناء والقبرات لا تتمالك انفسها من ذلك. وراحت تجري حول الشجيرات وفي المسالك نحو الحديقة السرية.

وقالت: اختلف الآن كل شيء. العشب اكثر خضرة وقد نبعت الاشياء في كل مكان وانسدلت اشياء اخرى وظهرت براعم خضر واوراق.

اني متأكدة ان ديكون سيحضر اليوم عصراً.

فعل المطر الدافئ المتواصل اموراً عجيبة في الواح العشب التي تحاذي الممشى بجانب الجدار الاوطأ. اشياء تخرج شطؤها وتندفع من بين جذور النباتات المتشابكة – وكانت تبدو هنا



وهناك لمحات من لون ارجواني بهي واصفرٍ زاه بين سيقان الزعفران. قبل ستة اشهر لم تركيف كانت الدنيا تستيقظ ولكنها الان لم يفتها شيءٌ.

وعندما وصلت المكان الذي يختفي فيه الباب تحت اللبلاب اجفلها صوت عال غريب: نعيب غراب جاء من فوق السور. وعندما نظرت الى الاعلى رأت طائراً كبيراً بريش لامع اسود في زرقة ينظر اليها بكلِ حكمة. لم تر قبلا غرابا بمثل هذا القرب وجعلها عصبية قليلاً ولكنه بعد لحظة نشر جناحيه ورفرف عبر الحديقة. كانت تأمل انه لن يبقى في الداخل، وفتحت الباب وتساءلت في نفسها هل هو موجود في الحديقة وعندما توغلت فيها، رأت انه قد ينوي المكوث هناك لانه حط على شجرة تفاح صغيرة، وكان تحت الشجرة حيوان صغير احمر له ذيل كثيف. ووقف الاثنان يراقبان شخصاً منحنياً له رأس بلون الصدأ: ديكون، الذي كان جاثياً على ركبتيه في العشب يعمل بجد.

وجرت ميري سريعاً عبر العشب اليه.

وهتفت: هلو، ديكون! ديكون! كيف وصلت الى هنا مبكراً! الشمس اشرقت قبل قليل!

فنهض ضاحكاً مشرق المحيا، اشعث الشعر، عيناه كأنهما قطعة من السماء.

وقال لها: اي! استيقظت قبلها. كيف يمكن ان ابقى في الفراش لقد عادت الدنيا رائعة هذا الصباح، وكل شيءٍ فيها

يعمل ويدوي وينبش ويزمر ويغرد ويبني الاعشاش ويستنشق العطور ومنها ما ترسل الطيب في كل مكان حتى تضطرين ان تخرجي اليها بدلاً من البقاء مستلقية على ظهرك. وعندما بزغت الشمس، كادت المروج ان تجن من فرح ورحت في وسط الزهور اجرى كالمجنون اصيح وانحني وجئت الى هنا مباشرة، ولم اطق بعاداً. كانت الحديقة. بانتظارنا!

ووضعت ميري يدها على صدرها وهي تلهث كأنها كانت تركض هي ايضا.

وقالت: اوه، ديكون! ديكون. اني مسرورة جداً فلا اكاد ان اتنفس.

ولما رآه الحيوان الصغير ذو الذيل الكثيف يتحدث الى شخص غريب، نهض من مكانه تحت الشجرة وجاء اليه، ونعب الغراب مرة واحدة وطار من على غصنه وحط بهدوء على كتفه.

وقال: هذا هو جرو الثعلب – ومسح رأس الحيوان الصغير اسمه «كابتن» وهذا «سوت». سوت يطير معي عبر المروج ويركض كابتن كأن كلاب الصيد تجري وراءه. انهما يشعران كما اشعر.

ولم يبد على المخلوقين اي شيء من الخوف من ميري. وعندما بدأ ديكون يتجول، ظل «سوت» على كتفه وركض «كابتن» بهدوء الى جانبه.

وقال ديكون: انظري هنا! انظري كيف ظهرت هذه وهذه وهذه! وانظري الى هذه هنا!

والقى نفسه على ركبتيه وجثت ميري بجانبه. وجدا مجموعة من الزعفران نابعة لونها ارجواني وبرتقالي وذهبي. واحنت ميري وجهها وقبلتها.

وقالت عندما رفعت رأسها: انك لا تقبل انساناً بهذه الطريقة. الزهور تختلف كثيراً.

وبدا حائراً وابتسم.

وقال: اي! اقبل امي كثيراً بهذه الطريقة عندما ارجع من المروج بعد تجول نهار فيها واقف عند الباب في الشمس وابدو سعيداً مرتاحاً.

واخذا يركضان من جهة في الحديقة الى جهة اخرى ووجدا كثيراً من العجائب التي ذكرتهما انهما يجب ان يتكلما هامسين او بصوت واطئ. واراها براعم اوراق على اغصان الورود التي كانت تبدو ميتة. واراها عشرة آلاف قمة خضراء نابعة من التربة. وقربا انفيهما المتلهفين من الارض وشما انفاسها الربيعية الدافئة. وحفرا واقتلعا وضحكا بصوت خافت طربا وفرحا حتى تشعث شعر ميري مثل شعر ديكون واحمر خداها بلون شقائق النعمان مثل خديه.

وجدا في الحديقة السرية كل مباهج الارض في ذلك الصباح وفي غمرة ذلك كله، اتت اليها اروع المسرات جميعاً،

لانها اعجبها قاطبة فقد طار شيئ عبر الجدار سريعاً وانقض بين الاشجار الى زاوية مكتظة بالنباتات، طائر صغير احمر الصدر، يتدلى من منقاره شيئ. وقف ديكون ساكناً ووضع يده على ميري كأنهما وجدا نفسيهما يضحكان في مكان مقدس.

وهمس قائلاً: يجب ان لا نتحرك. ويجب ان نكتم انفاسنا. عرفت انه كان يبحث عن شريكة حياته، عندما رأته آخر مرة. انه ابو حناء بين ويذرستاف. يبني عشه. سيبقى هنا اذا لم نطيره.

وجلسا بهدوء على العشب دونما حركة.

وقال ديكون: يجب ان نظهر كأننا لا نراقبه عن كثب والا خرج نهائياً من هنا اذا ما لاحظ تدخلنا الان في شأنه. ولكن سيختلف قليلاً اذا ما انتهى هذا كله. انه ينشيئ بيته سيصاب بشيئ من الخجل ويفسر الامر تفسيراً سيئاً وليس لديه الوقت لتلقي الزيارات والثرثرة. فيجب ان نبقى ساكنين قليلاً ونحاول ان نبدو كالعشب والاشجار والشجيرات. واذا تعود على رؤيتنا، سوف اسقسق له قليلاً وسوف يعرف اننا لن نعترض طريقه.

ولم تكن الانسة ميري متأكدة قط انها تعرف، كما يعرف ديكون، كيف تحاول ان تبدو كالعشب والاشجار والشجيرات ولكن قال ذلك الشيئ الغريب كأنه كان ابسط حقيقة واكثر طبيعية في هذه الدنيا، وشعرت لابد انها يسيرة عليه، وراقبته دقائق قليلة بامعان، متسائلة انه كان من الممكن له ان يتحول الى شيئ اخضر بهدوء ويخرج اغصاناً واوراقاً، غير انه جلس

ساكناً بهدوء عجيب وعندما تكلم اخفض صوته الى درجة واطئة جدا بحيث كان من الغريب ان تسمعه ولكنها استطاعت.

وقال: في مثل هذا الوقت من فصل الربيع يكون موسم بناء الاعشاش واني متأكد ان هذا العمل يجري على هذا المنوال كل عام منذ بدء الخليقة. فقد صارت لها الطريقة الخاصة في التفكير وعمل الاشياء وخير للمرء ان لا يتدخل في شؤونها. يمكن ان تفقدي صديقاً في فصل الربيع بصورة اسهل من اي موسم آخر اذا كنت شديدة الفضول.

فقالت ميري بصوت خافت جداً قدر استطاعتها! اذا تحدثنا عنه فلا اتمالك نفسي من النظر اليه. يجب ان نتحدث عن شيء آخر. لدي شيء اود ان اخبرك به.

فقال ديكون: هو يفضل ان نتحدث عن اشياء اخرى. وماذا لديك لتخبريني به؟

همست ميري: حسناً - هل تعرف شيئاً عن كولن؟ فالتفت لينظر اليها.

وسألتها: وماذا تعرفين عنه؟

اجابت ميري: رأيته. وذهبت اليه كل يوم للحديث معه طوال هذا الاسبوع هو يريدني ان اذهب اليه. يقول انني جعلته ينسى مرضه وينسى الموت.

وبدا ديكون مرتاحاً حقاً بعد ان تلاشت الدهشة من وجهه المستدير.

وهتف قائلاً: اني مسرور بذلك. ومسرور للغاية اذ يجعلني اكثر اطمئنانا انا ادري انني يجب ان لا اتكلم بشيء عنه، لانني لا احب كتمان الاشياء.

فقالت ميري: الا تحب كتمان امر الحديقة؟

فأجاب: انا لن اتحدث عنها ابدا. ولكنني قلت لامي: يا امي لدي سر احتفظ به وهو ليس سراً سيئاً، وانت تعرفين ذلك. انه كذلك؟

كانت ميري تود دائماً سماع الحديث عن امه.

فسألته ولم تخش ابدا سماع جوابه: وماذا قالت؟ فغمغم ديكون بلطف واجابها: كان جوابها كالعادة. مسحت على رأسي قليلا وضحكت وقالت: اي، يا غلام، تستطيع الاحتفاظ بجميع الاسرار التي تعجبك اعرفك منذ اثنتي عشرة سنة.

فسألت ميري: وكيف عرفت عن كولن؟

فأجابها: يعرف الجميع عن مستر كريفن. يعرفون بوجود صبي معقد، ويعرفون انه لا يجب ان يتحدث عنه احد. ويأسف الناس على كريفن لان امه كانت امرأة جميلة جداً وهما مولعان احدهما بالاخر. تأتي السيدة ميدلوك الى بيتنا كلما ذهبت الى «ثوابت» وتتحدث الى امي امامنا جميعا نحن الاطفال، لانها تعرف اننا نشأنا والناس تثق بنا. كيف عرفت انت عنه؟ كانت مارثا مضطربة اخر مرة جاءت الى البيت. وقالت انك سمعت صراخه وسألت اسئلة ولم تعرف كيف تجيبك واخبرته ميري

بقصتها عن عويل الريح في منتصف الليل الذي ايقظها وعن اصوات البكاء البعيدة الخافتة التي قادتها في الاروقة المظلمة ومعها شمعتها وانتهت الى فتح باب الغرفة الضعيفة الانارة التي فيها سرير في الزاوية وعندما وضعت الوجه الصغير الابيض كالعاج والعينين الغريبتين المحاطتين باهداب سود هز ديكون رأسه.

وقال: يقولون انهما مثل عيني امه تماماً، ولكن عيني امه كانتا ضاحكتين ويقولون ان السيد كريفن لا يتحمل رؤيته عندما يكون مستيقظاً ولأن عينيه مثل عيني امه ومع ذلك تبدوان مختلفتين في وجهه الكئيب البائس.

فهمت ميري قائلة: هل تظن انه يريد له الموت.

اجابها: لا، ولكن يتمنى لو لم يولد. تقول امي ان ذلك اسوأ شيء في هذه الدنيا للطفل. وبما انهم غير مرغوب فيهم فانهم نادراً ما ينجحون ويترعرعون. السيد كريفن يشتري اي شيء للصبي يمكن شراؤه بالمال، ولكن يود ان ينس وجوده على هذه الارض، لسبب واحد، اذ هو يخش ان يراه يوما ويجده قد كبر واصبح احدب.

فقالت ميري: كولن نفسه يخش ذلك فلا يجلس. ويقول انه يفكر دائماً انه اذا خرجت حدبة على ظهره فانه سيجن ويظل يصرخ حتى الموت.

فقال ديكون: يجب ان لا يستلق ويظل يفكر بشيء مثل

هذه الاشياء. لا يمكن لاي صبي ان يتحسن اذا ما فكر بمثل هذه الاشياء.

كان الثعلب مستلقياً على العشب بجانبه يتطلع اليه يطلب ان يربت عليه بين حين وآخر، فانحنى ديكون وفرك رقبته بلطف وفكر دقائق قليلة بصمت. ورفع رأسه في الحال وتلفت حول الحديقة.

وقال: عندما جئنا الى هنا اول مرة كان كل شيء يبدو رمادياً انظري حولك الان واخبريني اذا لم ترى فرقا.

ونظرت ميري وحبست انفاسها.

وهتفت: صحيح! السور الرمادي تبدل كأن ضبابا اخضر قد زحف عليه. اصبح مثل علالة خضراء.

فقال ديكون: اي، نعم، وسيكون اكثر خضرة واكثر. حتى يزول اللون الرمادي هل تستطيعين ان تخمني بماذا كنت افكر؟

فقالت ميري متلهفة: ادري انه شيء لطيف اعتقد انه شيء بخصوص كولن.

فاوضح ديكون قائلا: كنت افكر انه اذا خرج الى هنا فانه لن يفكر بالحدبة التي ستظهر على ظهره، بل سيفكر بالبراعم التي تتفتح على شجيرات الورد ولعله سيكون اكثر عافية. كنت اتساءل هل نستطيع ان نجعله في حالة من الرضا فيخرج الى هنا ويستلقي في عربته تحت الاشجار.

فقالت ميري: كنت انا ايضاً اتساءل، فكرت بذلك كلما تحدثت اليه. تساءلت ان كان يستطيع ان يحفظ سراً وتساءلت فيما اذا نستطيع ان نأتي به الى هنا دون ان يرانا احد. وفكرت انك قد تستطيع ان تدفع عربته. يقول الطبيب انه يجب ان يأخذ هواء طلقاً، واذا ارادنا ان نخرجه، فلن يجرؤ احد ان يعارضه لن يخرج مع اناس آخرين، ولعلهم سيفرحون اذا ما خرج معنا. يستطيع ان يأمر البستانيين ان يبتعدوا لئلا يعرفوا الامر.

وصار ديكون يفكر عميقا وراح يمسد ظهر الثعلب.

وقال: اؤكد لك انني سأكون نافعاً له. ولن نفكر ان من الافضل لو انه لم يولد. كنا طفلين نراقب الحديقة تنمو وسيكون هو الثالث. ولدان وبنت صغيرة يشاهدون فصل الربيع واراهن ان هذا افضل من دواء الطبيب.

فقالت ميري مر عليه وقت طويل وهو مستلق في غرفته وهو خائف دائما من ظهره فجعله ذلك شخصا غريب الاطوار وهو يعرف اشياء كثيرة من الكتب ولكنه لا يعرف شيئا اخر. يقول ان المرض منعه من ملاحظة الاشياء ومراقبتها وهو يكره الخروج من البيت ويكره الحدائق والبستانيين ولكنه يحب ان يسمع عن هذه الحديقة لانها سرية. انا لا اجرؤ ان احدثه كثيرا، ولكنه قال انه يريد ان يراها.

فقال ديكون: سنخرجه يوما بلا ريب. انا استطيع ان ادفع

تعربة جيدا هل لاحظت ابا الحناء وصاحبته كانا يعملان ونحن جالسان هنا؟ انظري اليه واقفا على ذلك الغصن متسائلا اين من الافضل ان يضع العود الذي في منقاره.

وصفر ديكون صفرة واطئة كأنه يناديه فادار ابو الحناء رأسه ونظر اليه متسائلا. وهو ماسك العود، وكلمه ديكون كما يفعل بين ويذرستاف. ولكن ديكون كان ودودا ناصحا في انغامه.

وقال: اينما تضعه فهو شيئ جيد. انت تعرف كيف تبني عشك قبل ان تخرج من البيضة واصل عملك يا فتى. فلا تضيع وقتك.

وقالت ميري وهي تضحك سعيدة فرحة: اوه! اني ليعجبني ان اسمعك تتحدث اليه! بين ويذرستاف يوبخه ويسخر منه ولكنه يظل يقفز هنا وهناك ويبدو كأنه يفهم كل كلمة، واعرف ان يحب ذلك. يقول بين ويذرستاف، انه معجب بنفسه فيفضل ان يرمى بالحجر على عدم الاهتمام به.

وضحك ديكون ايضا وواصل حديثه الى ابي الحناء.

فقال له: انت تدري اننا لن نزعجك اننا اقرب شيئ الى المخلوقات البرية. ونحن نبني عشا ايضا، فانتبه ولا تخبر احدا عنا.

ومع ان ابا الحناء لم يجبه لان منقاره كان مشغولا، فان ميري عرفت، انه عندما طار بالعود الى المكان الذي اختاره من الحديقة، فان الدكنة في التماع عينه كانت تعني انه لن يفشي بسرهما لاحد من الناس.



١٦ ـ قالت ميري : لن احضر

عمل الاثنان كثيراً ذلك الصباح ، وتأخرت ميري في الرجوع الى البيت وكانت على عجل في العودة الى عملها فنسيت كولن تماماً حتى اللحظة الاخيرة .

وقالت لمارثا : اخبري كولن انني لا استطيع المجيء لرؤيته لانني مشغولة في الحديقة .

وبدت مارثا مرتعبة .

وقالت : اي! يا آنسة ميري ، قد يخرجه ذلك عن طوره اذا ما اخبرته بذلك .

ولكن ميري لم تخافه كما كان يخافه الاخرون ولم تكن شخصاً مضحياً .

فاجابتها : لا استطيع ان ابقى او أتأخر لان ديكون بانتظاري ، ثم اخذت تركض .

كان الوقت عصراً اجمل واحفل بالعمل مما في

الصباح .فكادت الحديقة ان تكون نظيفة من جميع الادغال ، وقلمت اغلب الاوراد والاشجار وقلبت التربة حولها . وجلب ديكون معه معولاً خاصاً به ، وعلم ميري استعمال جميع ادواتها ، لذلك اصبح من الواضح ان المكان الجميل بطبيعته لم يكن من المحتمل ان يصبح «حديقة بستاني» لكنه سيكون كالبرية بنباتاته النامية قبل انقضاء الربيع .

وقال ديكون وهو يعمل بكل طاقته : ستزهر في الاعالي اشجار التفاح والكرز وستتفتح زهور الخوخ والاجاص عند الاسوار وسيكون العشب بساطاً من ورود .

وكان الثعلب الصغير والغراب سعيدين فضوليين ناشطي الحركة ، وكان ابو الحناء وصاحبته يطيران ذهاباً واياباً مثل ومضتين من برق خاطف . وكان الغراب احياناً يخفق بجناحيه الاسودين ويحلق فوق قمم الاشجار في المنتزه ، ثم يعود ويحط قريباً من ديكون وينعب مرات عديدة كأنه يروي مغامراته ، ويتحدث ديكون اليه كما يتحدث الى ابي الحناء . وكان ديكون مشغولاً ذات مرة ولم يجبه في الحال ، فطار الغراب «سوت» اي اسحم وحط على كتفه وقرص اذنه بلطف بمنقاره الكبير. وعندما ارادت ميري ان ترتاح قليلاً ، جلس ديكون معها تحت شجرة ، واخرج مزماره من جيبه وعزف انغاما رقيقة لطيفة ، فظهر سنجابان على السور وصارا ينظران ويستمعان .

وقال ديكون وهو ينظر اليها : اصبحت اقوى قليلاً مما



كنت . وقد بدأت تبدين مختلفة ، بلا ريب .

واشرق وجه ميري وتالقت معنوياتها .

وقالت جذلة : انني اسمن كل يوم اكثر فاكثر . ولابد للسيدة ميدلوك ان تحصل لي ثياب اوسع قليلاً ، وتقول مارثا ان شعري اصبح اكثف ولم يعد خفيفاً دبقاً .

ومالت الشمس الى المغيب وراحت ترسل اشعة ذهبية غامقة ، تخترق الاشجار بصورة مائلة .

وقال ديكون : سيكون الجو لطيفاً غداً . ساخرج للعمل عند الشروق .

فقالت ميري : وانا ايظاً .

* * *

عادت الى البيت راكضة باسرع ما استطاعت قدماها ان تحملاها . ارادت ان تخبر كولن عن ثعلب ديكون وغرابه وعما فعله فصل الربيع . وتاكدت انه سيحب سماع ذلك . ولكن لم يكن الأمر مساراً عندما فتحت باب غرفتها ورأت مارثا واقفة تنتظرها بوجه كالح حزين .

وسألتها : ماذا جرى؟ ماذا قال كولن عندما اخبرته انني لا استطيع المجيء؟

اجابتها مارثا : اي! تمنيت لو انك ذهبت . كاد ان ينفجر في احدى نوبات غضبه . وقد بذلت جهداً كبيراً خلال فترة العصر من اجل المحافظة على هدوئه وقد ظل يراقب الساعة

طوال الوقت .

وانطبقت شفتا ميري بشدة احداهما على الاخرى ، فهي لم تكن معتادة على التفكير بامور الاخرين كما كان كولن ، ولم تجد صبراً لتدخل صبي سيئ المزاج في امور تحبها كثيراً . لم تكن تعرف شيئاً عن الشفقة التي يحتاجها المرضى والعصبيين والذين لا يعرفون انهم يستطيعون السيطرة على غضبهم وليسو بحاجة ان يجعلوا الناس الآخرين مرضى وعصبيين ايضاً . عندما كانت تصاب بالصداع في الهند كانت تبذل قصارى جهدها ان تجد الآخرين جميعاً مصابين بالصداع او شيئ سيئ مثله ، وكانت تشعر انها على حق ، ولكنها الآن ، تشعر بطبيعة الحال ، ان كولن كان على خطأ .

لم يكن على أريكته عندما دخلت غرفته . كان مستلقياً على ظهره في السرير . ولم يلتفت اليها عند دخولها . بداية سيئة ، تقدمت ميري اليه بطريقته الجافة .

وقالت : لماذا لم تنهض؟

فاجاب دون ان ينظر اليها : نهضت هذا الصباح عندما ظننت انك ستأتين . وجعلتهم يعيدونني الى الفراش عصراً . صار ظهري يؤلمني ورأسي ايضاً واصابني التعب . لماذا لم تأتي .

فقالت ميري :كنت اشتغل في الحديقة مع ديكون وعبس كولن وتنازل للنظر اليها . .

وقال : انا لن ادع ذلك الولد ياتي الى هنا اذا ذهبت

وبقيت معه بدلاً من المجئ للحديث معي .

فغضبت ميري غضباً لطيفاً فهي تستطيع التحكم بغضبها دون ان تثير ضجة . فاحتدت وصارت شكسة ، عنيدة ولم تبال بما حدث .

وردت عليه قائلة : اذا طردت ديكون فلن ادخل هذه الغرفة ثانية .

فقال كولن : يجب عليك المجئ اذا طلبتك .

فقالت ميري : لن احضر!

قال كولن : ساجبرك . وسيسحبونك الى الغرفة .

فقالت ميري محتدة : هل سيفعلون ذلك ، ايها الراجا؟ يمكنهم ان يسحبوني ، ولكنهم لن يستطيعوا اجباري على الكلام عندما يأتون بي الى هنا . ساجلس مطبقة اسناني ، ولن اخبرك باي شئ . ولن انظر حتى اليك . ساحدق في الارض .

كان الاثنان متماثلين تماثلاً لطيفاً وهما يحدقان احدهما في الآخر . لو كان طفلين من اولاد الشوارع يوثب احدهما على الاخر وتشاجرا شجاراً عنيفاً . وهذا ما حصل فعلاً في اللحظة الثانية .

فصرخ كولن قائلاً : انت انسان اناني .

فقالت ميري : وانت ماذا؟ الناس الانانيون يقولون ذلك دائماً . كل انسان اناني اذا لم يفعل ما يريدون . انت اكثر انانية مني . انت اكثر الاولاد الذين رأيتهم انانية .

فرد كولن محتداً : لست انانياً! لست انانياً مثل ديكون! يجعلك تلعبين بالاقذار وهو يعرف انني وحيد هنا . هو اناني ، اذا كان هذا يعجبك!

وارسلت عينا ميري شواظاً من نار .

وقالت : انه الطف من الاولاد قاطبة! هو - هو مثل ملاك!

قد يبدو ذلك القول امراً سخيفاً ، ولكنها لم تأبه به .

فسخر بها كولن بضراوة وقال : ملاك لطيف! هو من ابناء الاكواخ في المروج!

فردت عليه ميري قائلة : هو افضل من الراجا! انه افضل منه الف مرة!

وبما انها كانت الاقوى ، فانها بدأت تتفوق عليه . وهو في الحقيقة لم يتخاصم مع اي انسان مثله في حياته ، وكان ذلك ، خير له على العموم ، بالرغم من ان الاثنين هو او ميري ، لم يعرفا شيئاً عن ذلك . وادار رأسه على وسادته واغلق عينيه وانسابت دمعة كبيرة على خده . اخذ يشعر بالحزن والاسف على نفسه - وليس لاحد غيره .

وقال : انا لست انانياً مثلك ، لانني مريض دائماً ، وانا متأكد ان حدبة ستظهر على ظهري . وسوف اموت .

فردت عليه ميري بلا رأفة : لن تموت!

وفتح عينين واسعتين ساخطاً ، إذ لم يسمع بشيء مثل هذا

قبلاً وكان مغتاظاً ومسروراً في الوقت نفسه ، اذا امكن ان يشعر بذلك في آن واحد .

وصاح قائلاً : لن اموت؟ بل سأموت! لانت تعلمين ان الجميع يقولون ذلك .

فقالت ميري مشاكسة وبفظاظة : انا لا اصدق ذلك! انت تقول ذلك لتجعل الناس يعطفون عليك . واعتقد انك فخور بذلك . انا لا اصدق ذلك! لو كنت ولداً لطيفاً لكان الامر حقيقياً ، ولكنك قذر ، رديئ الطبع!

جلس كولن في الفراش ، بالرغم من ظهره المريض ، غاضباً غضباً فيه شيئ من علائم العافية .

وصاح بها : اخرجي من الغرفة!

ومسك الوسادة ورماها بها . ولم يكن قوياً ليرمها بعيداً فوقعت عند قدميها ، ولكن وجه ميري انقبض كثيراً .

وقالت : ساخرج . ولن اعود!

وسارت الى الباب وعندما وصلت التفتت وتكلمت مرة اخرى .

وقالت : جئت لاخبرك عن اشياء لطيفة . جلب ديكون ثعلبه وغرابه ، وكنت اريد ان احدثك عنهما . ولكن لن اخبرك بأي شيئ ،

وخرجت من الباب واغلقته وراءها ، فوجدت المربية المختصة واقفة كأنها كانت تستمتع ، بل كانت تضحك ، مما اثار

اضطرابها ودهشتها . كانت امرأة كبيرة وسيمة ، لا يليق بها ان تكون مربية ابداً لانها لا تتحمل المرضى ، وكانت دائماً تجد المعاذير لتعهد بكولن الى مارثا ، او اي شخص آخر يحل محلها . لم تكن ميري تحبها قط ، فوقفت وحدقت فيها وهي واقفة تقهقه في منديلها .

فسألتها : على اي شيء تضحكين؟

فقالت المربية : عليكما ! انتما الاثنان الصغيران . انه افضل شيء يحدث لهذا المريض المدلل : ان يقف بوجهه شخص مدلل مثله .

ثم ضحكت في منديلها مرة اخرى واستأنفت قولها : لو كان لديه اخت مشاكسه تتخاصم معه ، لانقذه ذلك من وضعه .

فسألتها ميري : هل سيموت؟

فقالت المربية : لست ادري ولا يهمني ذلك . الهستريا والانفعال هما نصف ما يصيبه .

فسألت ميري : وما هي الهستريا؟

فاجابتها : ستعرفين اذا ما دفعته الى احد نوبات غضبة بعد هذا – ولكن على اى حال ، انت دفعته وسببت له شيئاً من الهستريا ، واني لمسرورة بذلك .

عادت ميري الى غرفتها ولم تكن تشعر كما شعرت عندما جاءت من الحديقة . كانت مغتاظة وخائبة ، ولكنها لم تكن آسفة على كولن . كانت تتطلع الى اخباره بأشياء كثيرة جداً ،

وكانت تقصد ان تحاول تقرر في نفسها فيما اذا كان من الممكن الوثوق به وايداعه السر العظيم . كانت تعتقد انه صالح لذلك غير انها غيرت فكرها الآن تماماً . فلن تخبره وسيبقى في فراشه ولن يستنشق الهواء الطلق مطلقاً وسيموت اذا احب ذلك! وسيفعل تماماً! وشعرت بروح المشاكسة والصرامة تسري فيها فنسيت لحظات قليلة أمر ديكون والغلالة الخضراء التي تحجب الدنيا والنسيم الرقيق الذي يهب من المروج .

كانت مارثا بانتظارها وتبدل القلق البادي على وجهها في الحال الى لهفة وتطلع . كان على المنضدة صندوق خشبي ، رفع غطاؤه وظهر انه يحوي رزماً مرتبة .

قالت مارثا : ارسله البنيد كريفن لك . يبدو انه يحتوي على كتب مصوره .

تذكرت ميري سؤاله يوم ذهبت الى غرفته : «هل تريدين شيئاً؟ — دمى ، لعباً ، كتباً؟» وفكت الرزمة وهي تتساءل في نفسها في ما اذا كان قد ارسل لها دمية ، وتساءلت ايضاً ماذا ستفعل بها ، ولكنه لم يرسل لها لعبة . كانت مجموعة من الكتب جميلة مثل كتب كولن . وكان اثنان منها عن الحدائق ، مليئان بالصور . وفيها لعبتان او ثلاث لعب : ودفتر كتابة صغير جميل عليه الحروف الاولى من اسمها بالذهب ، وقلم من الذهب ومحبرة .

كان كل شيء جميلاً جداً فطار فرحها الغامرة يطرد الغضب

من رأسها . لم تكن تتوقع ان يتذكرها . وصار قلبها الصغير الكئيب عامراً بالدفء .

وقالت : استطيع ان اكتب افضل من الطباعة . وسيكون اول شيء اكتبه بذلك القلم رسالة اوجهها له اعبر فيها له عن شكري الجزيل .

لو كانت على وفاق مع كولن لركضت اليه لتريه هداياها في الحال ، ولتفرجا على الصور وقرءا احد الكتب عن الحدائق ، وحاولا ان يلعبا باللعب ، ولا ستمتع كثيرا حتى ينس انه سيموت او يضع يده على عموده الفقري ليرى ان كانت الحدبة تظهر عليه . كان يفعل ذلك بطريقة لا تتحملها ، وتجعلها تشعر بعدم الراحة والخوف لانه كان هو نفسه يشعر بالخوف . وقال انه اذا شعر ان ارتفاعاً ضئيلاً على ظهره فان يجب ان يعرف ان حدبته بدأت تنمو . سمع يوماً السيدة ميدلوك تهمس بشيء الى المربية فاعطاه ذلك هذه الفكرة وظل يردد ذلك في سره حتى ترسخ في فكره . وقالت السيدة ميدلوك ان ظهر ابيه بدأ يظهر اعوجاجه بتلك الطريقة عندما كان طفلاً . ولم يخبر احداً سوى ميري ان اغلب نوبات غضبه ، كما كانوا يطلقون عليها ، كان مبعثها خوفه الهستيري الدفين . وتألمت ميري عليه عندما اخبرها بذلك .

وقالت في نفسها : هو دائم التفكير بذلك عندما يغتاظ او يتعب . وقد غضب اليوم . ولعله – لعله كان يفكر بذلك طول

فترة العصر ووقفت ساكنة تحدق في البساط وتفكر.

وقالت مترددة وهي تقطب حاجبيها : قلت لن اعود ، ولكن ربما ، ربما اعود وارى - اذا ارادني - في الصباح . ولعله سيرمي وسادته عليّ مرة اخرى ، ولكن - اظمن - اني سأذهب.



١٧ - نوبة غضب

نهضت في الصباح الباكر وعملت بجد في الحديقة وكانت متعبة وناعسة ، وحالما جلبت مارثا عشاءها وتناولته ، سرها كثيراً ان تذهب الى فراشها . وما ان وضعت رأسها على الوسادة تمتمت لنفسها :

– سأخرج قبل الافطار للعمل مع ديكون وبعد ذلك – لعلي اذهب لرؤيته .

ايقظتها اصوات مرعبة عند منتصف الليل ، على ماتظن ، فهبت من فراشها في الحال . ماهذا – ماهذا؟ بعد دقيقة تأكدت انها عرفت السبب . فتحت ابواب واغلقت ، واسرعت اقدام في الاروقة . كان شخص يبكي ويزعق في الوقت نفسه ، يزعق ويبكي بشكل رهيب .

وقالت : انه كولن. اصيب باحدى نوباته التي تدعوها المربية هستيريا، ما أفظع ذلك !

عندما أصغت الى النشيج لم يثر عجبها انهم كانوا خائفين

جدا فتركوه على سجيته في كل شيء وحققوا له مايريد بدلا من الاستماع الى مطالبه فقط. فوضعت ميري يديها على أذنيها وشعرت بالاشمئزاز وراحت ترتعش.

وظلت تردد : لا أدري ماذا افعل. لا ادري ماذا افعل. لا اطيق هذا.

تساءلت في نفسها في ما اذا كان سيكف عن ذلك اذا ماتجرأت في الذهاب اليه، ثم تذكرت كيف طردها من الغرفة، وفكرت ان رؤيته لها قد تزيد الأمر سوءً ولم تستطع أبعاد الأصوات الرهيبة مهما ضغطت يديها بشدة على اذنيها. كانت تكره تلك الأصوات كثيرا وارعبتها وراحت تحرك غضبها وشعرت انها ستصاب بنوبة ايضا وترعبه كما يرعبها. لم تكن معتادة على مزاج احد سوى مزاجها. فأنزلت يديها وقفزت وضربت الأرض بقدمها.

وصرخت : لابد ان يوضع حد له ! لابد ان يوقفه احد عن ذلك ! لابد ان يضربه احد !

وسمعت في تلك اللحظة اقداما تركض في الممر، وفتح بابها ودخلت المربية. لم تكن الآن تضحك بل تبدو شاحبة.

وقالت بسرعة فائقة: انه يدفع نفسه في نوبات هستيرية. وسوف يؤذي نفسه. ولايستطيع احد ان يفعل له شيئا تعالي وجربي. أنت طفلة طيبة، وهو يحبك.

فقالت ميري: طردني من غرفته صباح هذا اليوم.

وضربت الأرض بقدمها منفعلة، مما أخرج المربية فهي في الحقيقة خشيت انْ تجد ميري باكية واضعة رأسها تحت اللحاف، وقالت: هذا صحيح. أنت على حق، فأذهبي اليه وازجريه. اجعليه يفكر بشيء جديد ارجوك ان تذهبي ياصغيرتي بأسرع ما تستطيعين.

ثم ادركت بعد ذلك ان غريب، مضحك ومرعب ايضا — مضحك لأن جميع الكبار كانوا خائفين جدا فجاءوا الى طفلة صغيرة لأنهم ظنوا انها كانت سيئة الطبع مثل كولن نفسه.

انطلقت في الرواق وكلما اقتربت من الصراخ، اشتدت حدة طبعها. وشعرت انها اصبحت شريرة تماماً عند وصولها الباب، ففتحته بقوة بيدها وركضت عبر الغرفة الى السرير.

وصاحت: كفى! كفى! اني اكرهك! الجميع يكرهونك! اتمنى ان يهرب كل من في البيت ويتركونك تصرخ حتى تموت! ستموت من الصراخ بعد دقيقة، واني اتمنى لك ذلك!

طفل لطيف حنون، رؤوف لايمكن يفكر او يفعل مثل هذه الأشياء ولكن الصدمة التي اصابته بسماعها كانت افضل شيء يحدث لهذا الطفل الهستيري الذي لايجرؤ احد على مقاومته او معارضته.

كان مستلقيا على وجهه يضرب وسادته بيديه ويكاد يتقلب فالتفت سريعا لدى سماع الصوت الناعم الغاضب. وبدأ وجهه رهيبا، شاحبا وأحمر، ومتورما، وكان يلهث ويختنق ولكن ميري

الصغيرة المتوحشة لم تأبه مقدار ذرة.

وقالت: اذا صرخت اخرى، سأصرخ انا ايضا، استطيع ان اصرخ اعلى مما تستطيع، وارعبك، ارعبك!

توقف فعلا عن الصراخ لأنها اجفلته بذلك. وكادت الصرخة التي اطلقها تخنقه. وكانت الدموع تسيل على وجهه وكان جسمه يرتعد بأكمله.

فلهث ونشج قائلا: لا استطيع التوقف – لا استطيع – لا استطيع!

فصاحت ميري: تستطيع! ان نصف مايؤلمك هو نوبات الغضب وسوء المزاج – نوبات – مجرد نوبات – نوبات!

وكانت تضرب الارض بقدمها مع كل كلمة تنطقها.

واختنق كولن قائلاً: شعرت بالحدبة – شعرت بها. اعرف انني ساكون. ستكون لي حدبة على ظهري ثم سأموت.

وصار يتلوى مرة اخرى وانقلب على وجهه ونشج وأعول ولكنه لم يصرخ.

واغتاظت ميري بشدة وعارضته قائلة: انت لم تشعر بالحدبة! لو شعرت حقاً، فهي حدبة هستيرية موهومة. الهستيريا تصنع الحدبات. ليس في ظهرك الكريه شيء سوى النوبات الهستيرية. انقلب ودعني انظر اليه.

اعجبتها كلمة «هستيرية» وشعرت كأنها أثرت فيه. لعله كان مثلها لم يسمع بها من قبل.

وقالت بلهجة آمرة : ايتها المربية ، تعالي هنا واريني ظهره حالاً .

كانت المربية ، والسيدة ميدلوك ومارثا محتشدات معاً قرب الباب يحدقن فيها ، وافواههن فاغرة . وانقطعت انفاسهن من الخوف اكثر من مرة . تقدمت المربية شبه خائفة . كان صدر كولن يجيش بتنهدات عظمية وينشج منقطع الانفاس .

وقالت بصوت خافت متردد : لعله – لايسمح لي .

علما ان كولن سمعها وقال بين عبرتين : اريها ! لتنظر ، تنظر الى ظهري !

كان ظهره ناحلاً عندما كشفته . يمكن انْ تعد اضلاعه وكل فقرة من عموده ، ولكن ميري لم تحسب ، وانحنت وفحصته بوجه وقور شديد الغضب . بدت مغتاظة ، فادارت المربية وجهها جانباً لتخفي ارتعاش فمها . خيم الصمت لحظة ، لان كولن نفسه حاول ان يحبس انفاسه ، عندما كانت ميري تفحص عموده الفقري صعوداً ونزولاً نزولاً وصعوداً ، كأنها ذلك الطبيب العظيم من لندن .

وقالت في نهاية الامر : لاتوجد أي حدبة فيه ! لايوجد اي ارتفاع حتى بمقدار رأس دبوس ، عدا الفقرات ، ويمكنك ان تتحسسها لانك نحيل . انا نفسي لدي فقرات مرتفعة ، وكانت ناتئة مثل فقراتك ، حتى بدأتُ اسمن ، ولكنني لست سمينة جداً فتختفي . ليس ثمة ارتفاع بمقدار رأس دبوس . اذا قلت ذلك

ثانية ، سوف اضحك عليك !

لم يعرف احد سوى كولن نفسه تأثير تلك الكلمات التي قبلت بلهجة طفولية . لو كان معه اي شخص يتحدث اليه عن مخاوفه السرية ، ولو كان له اصحاب صغار ، ولو لم يرقد على ظهره في هذا البيت الكبير المقفل ، المثقل بمخاوف اناس اغلبهم جاهل ومتعب ، لعرف ان اغلب مخاوفه ومرضه قد خلقه بنفسه ، غير انه استلقى على ظهره وراح يفكر وحيداً بالأمه ومتاعبه وساعاته وايامه وشهوره وسنواته المضجرة . وتأتي الآن طفلة غاضبة لارأفة فيها وتصر بشكل عنيد انه لم يكن قط كما يتصور ، فشعر فعلاً كأنها تقول الحقيقة .

فتجرأت المربية وقالت : لم اكن اعرف انه يفكر بوجود حدبة على ظهره . ظهره ضعيف لانه لم يحاول ان يجلس . كان من الممكن ان اقول له انه لاتوجد اي حدبة .

غص كولن وأدار وجهه قليلاً لينظر اليها .

وقال بصوت مثير للشفقة : اتقولين ذلك حقاً؟

فاجابته : اجل ، سيدي .

فقالت ميري وقد غصت هي ايضاً : اسمعت !

وادار كولن وجهه مرة اخرى ، ولو لا انفاسه الطويلة المتقطعة ، التي اخذت بالاضمحلال بعد تلك العاصفة من النشيج ، لاستلقي هادئا دقيقة ، بالرغم من انهمار الدموع على وجهه التي بللت الوسادة . تعني الدموع في الحقيقة ان راحة

عظيمة غريبة قد المت به ؛ والتفت فوراً ونظر الى المربية ولم يكن مثل «راجا» عندما تكلم اليها .

فقال : هل تعتقدين انني ... يمكن ... ان اعيش فاكبر؟

ولم تكن المربية ذكية ولارقيقة القلب ولكنها استطاعت ان تكرر بعض كلمات الطبيب من لندن .

فقالت : لعلك ستعيش اذا فعلت ما تؤمر به ولاتفسح مجالاً لمزاجك ، وتخرج كثيراً لاستنشاق الهواء الطلق .

وزالت نوبة كولن وصار ضعيفاً منهكاً من البكاء ولعل ذلك جعله يشعر بالرقة واللطف . ومد يده قليلا نحو ميري ، التي زايلتها نوبتها ايضاً فرقت ، ومدت يدها اليه فكان ذلك نوعاً من المصالحة.

وقال: سأخرج سأخرج معك يا ميري. لن اكره الهواء الطلق اذا ما وجدنا.

ثم تذكر في الحال انه يجب ان يسكت عن قول: اذا وجدنا الحديقة السرية.. ولكنه قال:

- احب ان اخرج معك اذا ما جاء ديكون معك ودفع كرسي. أريد ان ارى ديكون والثعلب والغراب.

وسوت المربية الفراش المضطرب ونفضت الوسائد وسوتها وعدلتها. ثم قدمت كوباً من مرق لحم البقر، واعطت ميري كوباً آخر فسرها ذلك بعد ما اصابها من انفعال. وتسللت السيدة ميدلوك ومارثا من الغرفة. وبعد ان تم ترتيب كل شيء وعاد

الهدوء والنظام الى سابق عهدهما، بدا ان المربية كان يسرها ان تتسلل خارجاً هي ايضاً. كانت امرأة شابة معافاة وبما انها حرمت من فرصة نومها تثاءبت بشكل مكشوف وهي تنظر الى ميري التي دفعت كرسيها الكبير قريباً الى السرير وهي تمسك يد كولن.

وقالت: يجب ان تعودي لتنامي. سوف يهدأ بعد برهة ويغلبه النعاس، اذا لم يكن مغتاظاً جداً. وسوف استلقي انا في الغرفة المجاورة.

فهمست ميري قائلة: اتريدني اغني لك تلك الاغنية التي تعلمتها من مربيتي الهندية؟

وسحب يدها بلطف وادار عينيه اليها متذرعا.

واجابها: نعم! انها اغنية رقيقة سأنام بعد لحظات.

فقالت ميري للمربية المتثائبة: سأنيمه. يمكنك ان تذهبي اذا رغبت.

فقالت الممرضة بشيء من الممانعة: حسناً. ان لم ينم بعد نصف ساعة، عليك ان تناديني.

فأجابت ميري: حسناً.

وخرجت المربية من الغرفة في الحال، وما ان خرجت سحب كولن يد ميري اليه مرة اخرى.

وقال: كدت ان اقولها، لكنني توقفت في الوقت المناسب. لن اتحدث، سأنام ولكنك قلت عندك اشياء جميلة كثيرة

تريدين اخباري بها. هل عرفت – هل وجدت شيئاً عن الطريق الى الحديقة السرية؟

ونظرت ميري الى الوجه المتعب، الصغير، المسكين والعينين المنتفختين، ورق قلبها.

واجابت: نعم، اعتقد اني وجدته. واذا نمت سأخبرك غدا.

وارتعشت يده تماماً.

وقال: اوه ميري! ميري! اذا ذهبت اليها فاعتقد اني سأعيش واكبر! اتعتقدين انه، بدلا من انشاد الاغنية الهندية، يمكنك ان تخبريني كما فعلت في ذلك اليوم عما تتصورين الحديقة من الداخل! انا متأكد ان ذلك سوف يجعلني انام.

فاجابته ميري قائلة: نعم، اغلق عينيك.

واغلق عينيه وتمدد هادئا ومسكت يده وراحت تتكلم ببطء شديد بصوت خافت جدا.

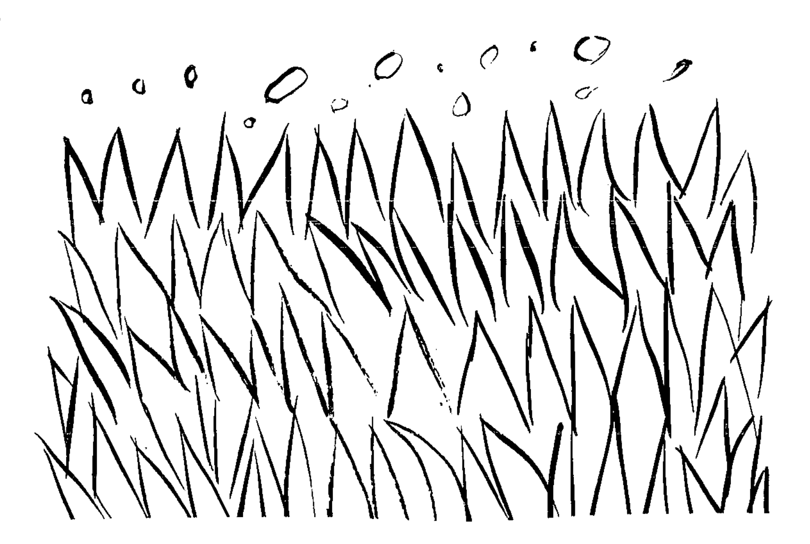
وقالت: اعتقد انها هجرت [illegible] طويلة، فنمت نباتاتها بشكل متشابك جميل.. واعتقد ان الاوراد اخذت تتسلق وتتسلق وتتسلق حتى راحت تتدلى من الاغصان والجدران وتزحف على الارض – مثل غمامة رمادية غريبة الشكل. بعضها مات ولكن كثيراً منها مايزال حياً، وعندما يأتي الصيف ستكون فيها ستائر ونافورات من ورود. واعتقد ان الارض مليئة بالزنبق والنرجس وزهور اللبن الثلجية والسوسن وهي تخرج من سدف الظلام. الان بدأ الربيع – ولعل – لعل –

جعلته نبرة صوتها الرقيقة اهدأ فأهدأ ورأت ذلك عليه فواصلت كلامها.

– ولعلها تخرج من بين الاعشاب – ولعل هناك الان حزما ارجوانية من الزعفران واخرى ذهبية ولعل الاوراق بدأت تخرج وترتفع – ولعل – اللون الرمادي اخذ يبدأ وصارت غلالة خضراء تزحف – وتزحف في كل مكان – وكل شيء وتأتي الطيور لتلقي نظرة اليها – لانها – آمنة هادئة.

ولعل – لعل – لعل – «قالت ذلك بهدوء وبطء شديد» ابا الحناء قد وجد صاحبته وبدأ يبني عشه

وخلد كولن الى النوم



١٨ - يجب الا تضيع الوقت

لم تستيقظ ميري ، بطبيعة الحال ، مبكرة في صباح اليوم التالي ، اذ انها نامت متاخرة لانها كانت متعبة . وعندما جلبت مارثا لها افطارها اخبرتها ان كولن كان مريضاً محموماً بالرغم من هدوئه وهذا هو ما يحصل له بعد ان يرهق نفسه بنوبة من البكاء . تناولت ميري افطارها بتوءدة وهي تصغي .

وقالت مارثا : يقول انه يتمنى ان تتكرمي بالذهاب لرؤيته باسرع ما تستطيعين . لا ادري ما هو سبب هذا الميل الغريب اليك . لا ريب انه تعلق بك منذ ليلة امس – اليس كذلك؟ لم يجرؤ احد غيرك ان يقوم بذلك . ياله من صبي مسكين! لقد افسده الدلال ولن يصلحه شيئ . امي تقول ان اسوأ شيئين يحصلان للطفل : ان لا يترك على سجيته ابداً – او ان يطلق له العنان ليفعل ما يريد . وهي لا تدري ايهما اسوأ . كان مزاجك انت جيداً ولكنه قال لي عندما ذهبت الى غرفته : «ارجو ان

تطلبي الى ميري ان تتفضل بالمجيء والتحدث اليّ .» تصوري انه يقول «تتفضل»! هل ستذهبين يا انسة؟

فقالت ميري : ساسرع لرؤية ديكون اولاً . لا بل ساذهب لرؤية كولن اولاً واخيراً – اني اعرف ماذا اخبره .

قالت ذلك كأن خاطرة مفاجئة الهمتها .

واعتمرت قبعتها وذهبت الى كولن في غرفته واصابته الخيبة باديء ذي بدء . كان في فراشه وجهه شاحب يبعث على الرثاء وحول عينيه هالتان سوداوان .

وقال : اني مسرور بقدومك ، صداعي شديد والالم يسري في جميع اجزاء جسمي لانني متعب . هل ستذهبين الى مكان اخر؟ .

تقدمت ميري واتكأت على سريره .

وقالت : لن اتأخر كثيراً . اني ذاهبة الى ديكون ولكني ساعود .كولن ، انه – انه بخصوص الحديقة السرية .

واشرق وجهه وظهر فيه شيء من الحمرة .

وصاح : اوه ، اصحيح هذا؟ حلمت بها طوال الليل ، سمعتك تتحدثين عن تغير الاشياء الرمادية الى خضراء ، وحلمت انني واقف في مكان مليء باوراق خضر صغيرة مرتعشة – وكانت الطيور في اعشاشها في كل مكان وكانت تبدو ناعمة ، لطيفة ، ساكنة . سأستلقي في الفراش وافكر بذلك حين تعودين .

وصلت ميري الى ديكون بعد خمس دقائق في حديقتهما :



وكان الثعلب والغراب معه ، ولكنه جلب معه سنجابين اليفين هذه المرة .

وقال : جئت هذا الصباح على الحصان الصغير . اي . نعم ، انه فتى طيب - اسمه وثاب ! جلبت هذين في جيبي . هذا اسمه «جوزة» وهذا الآخر اسمه «محارة» .

وعندما نطق بكلمة «جوزة» قفز احد السنجابين على كتفه الايمن وعندما قال «محارة» قفز الاخر على كتفه الايسر .

وعندما جلسا على الارض و «كابتن» الثعلب ملتف عند ارجلهما و«اسحم» الغراب يستمع بوقار على شجرة ، و «جوزة» و «محارة» يتطلعان اليهما ، بدا الامر بالنسبة الى ميري كأنه لا يطاق اذا ما تركت مثل هذه البهجة . ولكنها عندما بدأت بسرد حكايتها غيرت رأيها عندما تطلعت الى وجه ديكون الذي شعر بالحزن على كولن اكثر مما كانت هي تشعر نحوه . ونظر الى السماء وحوله .

وقال : استمعي الى الطيور - يبدو ان الدنيا مليئة بها - وهي تغرد وتسقسق . انظري اليها وهي تتطاير هنا وهناك . واستمعي اليها ينادي احدها الآخر . يبدو ان الدنيا جميعاً تنادي بمجئ الربيع . وظهرت الاوراق لذلك يمكنك ان تريها ، والعطور الطيبة تفوح جولنا : - وراح يستنشق بانفه السعيد الاخنس - وذلك الصبي المسكين راقد ، محبوس ، ولا يرى الا شيئاً قليلاً فيروح يفكر باشياء تجعله يصرخ . اي ! والله ! يجب

ناتي به الى هنا – يجب ان ناتي به ليتفرج ويستمع ويشم الهواء ويتدفأ بالشمس . يجب ان لا نضيع الوقت بهذا الخصوص .

فقالت : نعم ، يجب علينا ذلك . اقول لك ماذا يجب ان نفعله اولاً . لقد اصبح ميالاً اليك ، وهو يريد ان يراك ويريد ان يرى «اسحم» و «كابتن» . اذا ذهبت الى البيت للحديث معه سأسأله ان كان يستطيع ان كنت ستستطيع المجيء لرؤيته غداً صباحاً – وتجلب معك حيواناتك – وعندما تزداد الاوراق والبراعم سنخرجه وستدفع انت كرسيه وسنأتي به الى هنا ونريه كل شيء .

وعندما توقفت عن الكلام كانت تشعر بالفخر بنفسها لانها تحدثت طويلاً باللهجة القروية التي لم تتحدث بها قبلاً .

وقهقهه ديكون قائلاً : يجب ان تتحدثي بهذه اللهجة الى السيد كولن لكي تجعليه يفرح ويضحك ، ولا شيء أفضل للمرضى من الضحك . تقول أمي انها تعتقد ان نصف ساعة من الضحك اللطيف صباح كل يوم يشفي المرء .

وقالت وهي تقهقه : سوف اتحدث اليه بلهجتكم القروية هذا اليوم .

بلغت الحديقة وقتاً كأنها كل يوم وكل ليلة يمر بها السَحرَة يستخرجون الجمال من الارض ومن الغصون بعصيهم السحرية . وليس من اليسير الابتعاد عنها ومغادرتها وخصوصاً وقد زحف السنجاب «جوزة» على ثوبها و «محارة» يقف ناظراً اليها بعينين

متسائلين . ولكنها عادت الى البيت . وعندما جلست قريباً من سريركولن بدأ يستنشق مثل ديكون ولكن ليس بطريقة ديكون الخبيرة .

وصاح فرحاً مبتهجاً : رائحتك مثل رائحة الزهور – والاشياء العطرة العذبة . فما هي هذه الرائحة؟ انها باردة ودافئة وطيبة في الوقت نفسه .

فقالت ميري : انها ريح المروج . وقد جاءت هذه الرائحة من الجلوس على العشب تحت شجرة مع ديكون وكابتن واسحم وجوزة ومحارة . انها من فصل الربيع في العراء ونور الشمس

تكلمت بلهجة قروية ، واخذ كولن يضحك لما سمعها .

وقال : ماذا تفعلين؟ لم اسمعك تتكلمين مثل هذا قبلاً . ما اغرب ذلك !

فاجابت ميري مبتهجة . انا اتكلم بلهجة يوركشير القروية لا استطيع ان اتحدث مثل ديكون ومارثا ، ولكنني اجيدها قليلاً ، كما ترى . اي .. انني ارى انك لم تعد تخجل من وجهك .

واخذت تضحك ، وضحك هو ايضاً حتى لم يستطيعا التوقف وواصلا الضحك حتى تجاوبت لغرفة باصداء الضحك ، وفتحت السيدة ميدلوك الباب لتدخل ولكنها تراجعت الى الممر ووقفت تستمع وهي منذهلة .

وقالت : واعجبي! من سمع شيئاً مثل هذا! من يصدق هذا!

تحدثا كثيراً . وكأن كولن لم يشبع من الاستماع الى الحديث عن ديكون وكابتن: واسحم وجوزة ومحارة والحصان الصغير الذي اسمه وثاب . وركضت ميري مع ديكون الى الغابة لتلقي نظرة على وثاب . كان حصاناً صغيراً اهلب من خيول المروج تتدلى خصل من الشعر الكثيف على عينيه وله وجه جميل وانف مخملي . كان اقرب الى النحافة لانه يعيش على اعشاب المروج ، ولكنه كان قوياً مرناً ، كأن عضلات قوائمه الصغيرة من نوابض فولاذية . رفع رأسه وصهل بلطف حالماً رأى ديكون ، وركض اليه ووضع رأسه على كتفه ، وتحدث اليه ديكون ، في اذنه ورد عليه وثاب باصوات صغيرة من صهيل وحمحمة وشخير ، وجعله ديكون يقدم حافرة الامامي الصغيرة لميري ويقبلها من خدها ببوزه المخملي .

فسألها كولن : هل يفهم حقاً كل شيء يقول ديكون؟

فأجابت ميري : يبدو ذلك . ديكون يقول ان كل الحيوانات تفهم اذا كنت صديقاً حقيقياً معها ، ويجب ان تكون صديقاً حقيقياً .

استلقى كولن هادئاً لحظة وبدت عيناه الرماديتان الغريبتان تحدقان في الجدار ، وعرفت ميري انه كان يفكر .

وقال اخيراً : اتمنى لو كنت صديقاً مع الحيوانات ، ولكنني لم اجد احداً منها ليكون صديقي وانا لا استطيع تحمل الناس .

فسألته ميري : الا تتحملني؟

فأجابها : اجل ، اتحملك ، صحبتك لطيفة وانا معجب بك .

فقالت ميري : قال بين ويذرستاف انني أشبهه . ويقول اننا نتمتع بالمزاج الحاد نفسه ، واعتقد انك تشبهه ايضاً نحن الثلاثة متشابهون – انت وانا وويذر ستاف . ويقول اننا لا يحب احد ان ينظر الينا ، لان منظرنا متجهم . ولكنني لست اشعر انني متجهمة مثل ما كنت قبل ان اعرف ابا الحناء وديكون .

فسألها : هل كنت تشعرين كأنك تكرهين الناس؟

فاجابت ميري دونما تأثر : نعم . كان من المحتمل ان اكرهك لو رأيتك قبل ان ارى ابا الحناء وديكون ،

ومد كولن يده الناحلة ولمسها .

وقال : ميري ، اتمنى لو اني لم اقل ما قلت عن طرد ديكون . كرهتك عندما قلت انه يشبه الملاك وضحكت عليك ولكن – ولكن لعله كذلك .

فاعترفت ميري بصراحة قائلة : حسناً . ان قولي كان غريباً مضحكاً حقاً لان انفه مقلوب الى الاعلى وفمه كبير وملابسه مرقعة في كل مكان ويتحدث بلهجة قروية ولكن – ولكن اذا جاء ملاك وعاش في المروج ، فاني اعتقد انه سيفهم الاشياء الخضر ويعرف كيف يجعلها تنمو وسيعرف كيف يتحدث الى المخلوقات البرية مثل ما يفعل ديكون . وهي تعرف انه صديق صادق معها .

فقال كولن : انا لا امانع اذا ما نظر ديكون الي . اريد ان اراه .

فأجابته ميري قائلة : انا سعيدة انك قلت ذلك . لان — لان —

وخطر ببالها في الحال ان اللحظة مواتية لاخباره . عرف كولن ان شيئاً جديداً سيحدث .

فصرخ متلهفاً : لان ماذا؟

كانت ميري قلقة جداً فنهضت من كرسيها وجاءت اليه ومسكت كلتا يديه .

وناشدته قائلة : هل يمكن ان أثق بك؟ وثقت بديكون لان الطيور تثق به . فهل يمكن ان اثق بك من غير ريب — من غير ريب؟

وكان وجهها وقوراً جداً فهمس بجوابه . .

وقال : نعم — نعم!

فقالت حسناً ، سيأتي ديكون لرؤيتك غداً صباحاً ويجلب معه حيواناته .

فصاح كولن فرحاً اوه! اوه!

وواصلت ميري قولها وهي شاحبة من شدة الانفعال : ولكن ليس هذا كل شيء . ما بقي أفضل : وجدت باب الحديقة تحت نبات اللبلاب ، على السور .

لو كان كولن ولداً قوياً معافى ، لهتف صائحاً : مرحى!

مرحى! مرحى! . ولكنه كان ضعيفاً وعصبياً . فاشعت عيناه اكثر فاكثر وانحبست انفاسه .

وصاح كأنه ينشج : اوه! ميري! هل سأراها؟ وهل سادخلها؟ هل سأعيش لادخلها؟

وشبك يديها وسحبها اليه .

وقالت ميري ساخطة : طبعاً ستراها! طبعاً ستعيش لتدخلها! لا تكن سخيفاً!

ولم تكن عصبية بل طبيعية وصبيانية في كلامها مما اعاده الى وعيه وراح يضحك على نفسه . وعادت بعد دقائق قليلة الى كرسيها ولم تخبره ما كانت تتصور حال الحديقة بل ما كانت عليه فعلاً ، ونسي كولن آلامه وتعبه وراح يصغي اليها جذلاً .

وقال اخيراً : انها كما تخيلت تماماً . ويبدو انك رأيتها حقاً . تعرفين انني قلت لك ذلك عندما حدثتني اول مرة .

فترددت ميري حوالي دقيقتين ثم تكلمت بجرأة وأفحصت عن الحقيقة .

وقالت : رأيتها — ودخلتها . وجدت المفتاح ودخلت قبل اسابيع ، ولكنني لم اجرؤ ان اخبرك — لم اجرؤ لانني كنت خائفة انني لا استطيع أن اثق بك — بشكل اكيد .

١٩ ـ لقد جاء ؟

طلب الى الدكتور كريفن الحضور في صباح اليوم التالي لنوبة الغضب التي اعترت كولن. كان يطلب اليه الحضور فوراً عند حدوث مثل هذه الامور، وكان دائماً يجد الصبي شاحباً مستلقياً على فراشه، متجهماً ساكناً، عصبياً، يكاد ينفجر في نوبة جديدة من النشيج لاقل كلمة. وكان الدكتور كريفن، في الحقيقة يرهب هذه الزيارات ويمقتها. وعندما وصل الى البيت هذه المرة عصراً سأل السيدة ميدلوك منفعلاً:

– كيف حاله. سيفجر أحد أوعيته الدموية في نوبة من نوباته هذه يوماً من الايام. الولد نصف مجنون بالهستريا وحب الذات.

فاجابت السيدة ميدلوك: حسناً ياسيدي، أنك لن تصدق عينيك اذا رأيته. لقد سحرته تلك البنت القبيحة، المتجهمة الوجه، السيئة الطبع مثله. لانعرف كيف فعلت ذلك. ولايعلمه الا الله. ومنظرها لاينم عنها وتكاد لاتنطق شيئاً. ولكنها فعلت

مالم يجرؤ أحدنا القيام به. اندفعت نحوه مثل قطة صغيرة ليلة أمس وضربت الأرض بقدميها وأمرته أن يكف عن الصراخ وأجفلته فتوقف فعلاً، واليوم عصراً – تعال وأنظر ياسيدي. شيءٌ يفوق التصديق.

كان المنظر الذي شاهده الدكتور كريفن مدهشاً حقاً، عندما دخل غرفة مريضه، اذ سمع ضحكاً وثرثرة حالما فتحت السيدة ميدلوك الباب. كان كولن جالساً على الاريكة في ثوب النوم معتدلاً وهو يتطلع الى صورة في أحد كتب الحدائق ويتحدث الى الفتاة القبيحة التي لم تعد قبيحة في ذلك الوقت قط لأن وجهها كان يشرق بالبهجة.

وقال كولن: هذه العسالج الخضر الطويلة – سيكون لدينا كثير منها. أنها تدعى عوالق.

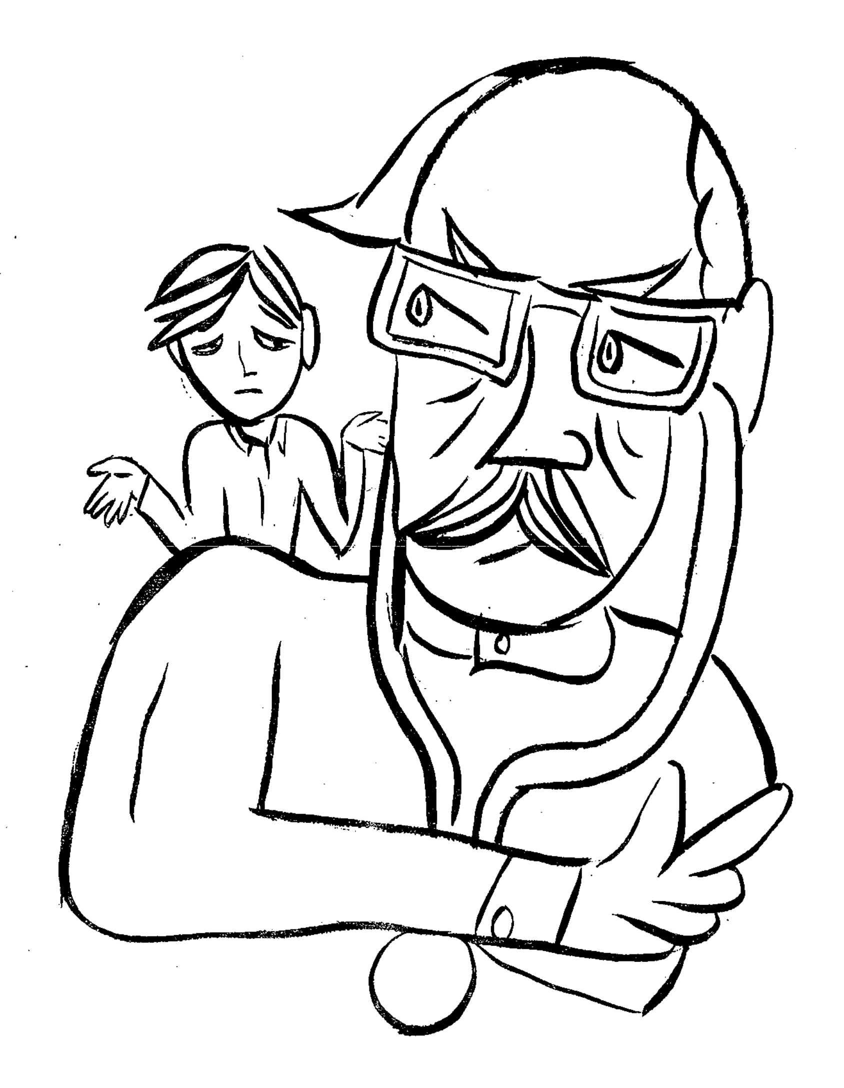
وهتفت ميري قائلة: ديكون يقول أنها عوائق تكون كبيرة وعظيمة. وتوجد مجموعة آجام منها حالياً.

ثم رأيا الدكتور كريفن فتوقفا. وسكنت ميري تماماً واضطرب كولن.

وقال الدكتور كريفن بشيءٍ من العصبية، لانه رجل عصبي: أنا آسف فقد سمعت أنك مرضت ليلة أمس، ياصغيري.

فقال كولن كأنه راجا: أنني الآن – أفضل كثيراً.

سأخرج في كرسيي يوماً أو يومين عندما يتحسن الجو. أريد شيئاً من الهواء الطلق.



وجلس الدكتور كريفن بجانبه وجس نبضه ونظر اليه بآستغراب.

وقال: أنه يوم لطيف وعليك أن تكون حذراً من التعب.

فقال الراجا الصغير: الهواء الطلق لن يتعبني.

ولاعجب أن يجفل الدكتور لانه كان في بعض المناسبات يصيح بأعلى صوته ويزعق هائجاً ويصر على أن الهواء الطلق سيصيبه بالبرد ويقتله.

فقال: كنت أظن أنك لاتحب الهواء الطلق.

فرد عليه الراجا: لااحبه اذا كنت وحدي ولكن ابنة عمي ستخرج معي.

فاقترح الدكتور قائلاً: والمربية، طبعاً.

فرد كولن عليه: لا، أنا لا اريد المربية معي.

تكلم بشيءٔ كثير من التعالي فلم يكن لميري مفر من تذكر الامير الهندي الصغير المزينة ملابسه جميعاً بالماس والزمرد واللؤلؤ وعلى يده السوداء الصغيرة احجار ياقوت عظيمة تلألأت عندما لوح بيده آمراً خدمه أن يتقدموا اليه بالتحية وتلقي أوامره.

– ابنة عمي تعرف كيف تعنى بي. يكون حالي أفضل دائماً عندما تكون معي. هي التي جعلتني أفضل حالاً في الليلة الماضية. وسوف يدفع عربتي ولد قوي جداً أعرفه.

ارتعب الدكتور كريفن أو كاد اذا واتت هذا الولد المضجر العصبي المزاج أن يتحسن، فانه هو نفسه سوف يفقد كل فرحته

في أن يرث مقاطعة ميسيلثوايت، ولكنه لم يكن رجلاً عديم الضمير، بالرغم من أنه كان ضعيفاً، ولم يكن ينوي يدعه يندفع نحو خطر حقيقي.

فقال: يجب أن يكون ولداً قوياً وموثوقاً به. ويجب أن أعرف شيئاً عنه. من هو ؟ وما اسمه ؟

فقالت ميري في الحال: اسمه ديكون.

وشعرت كان كل من يعرف المروج لابد أن يعرفه. وكانت على حق فقد شاهدت أن وجه دكتور كريفن الجاد قد استرخى الى بسمة مرتاحة.

وقال: أوه، ديكون ! اذا كان ديكون فستكون مأموناً تماماً. ديكون قوي مثل حصان المروج.

فقالت ميري: وهو مأمون. أنه أكثر الصبيان آماناً وثقة.
فسألها الدكتور كريفن وهو يضحك دونما تحفظ: هل علمك ديكون هذه اللهجة القروية.

فقالت ميري بشيء من البرود: أنني أتعلمها كأنها اللغة الفرنسية. هي تشبه لهجة من لهجات الهند. اني أحب هذه اللهجة وكذلك كولن يحبها.

فقال: حسن، ! اذا كان هذا يسليك فانه لن يضرك. هل تناولت دواءك ليلة أمس ياكولن.

فاجاب كولن قائلاً: لم أكن راغباً في تناوله أولاً، وبعد أن جعلتني ميري هادئاً، تحدثت الي لكي أنام - بصوت خافت -

عن الربيع الزاحف الى الحديقة.

فقال دكتور كريفن: هذا شيءٌ محققٌ.

وكان أشد حيرة من ذي قبل وصار ينظر الى الآنسة ميري شزراً، وهي جالسة على كرسيها، ناظرة الى البساط بصمت.

ثم واصل الدكتور قوله: من الواضح انت أحسن حالاً، ولكن يجب أن تتذكر.

فقاطعه الراجا الصغير بقوله: لااريد أن أتذكر. فعندما أستلقي وحدي وأتذكر، تبدأ الالام في كل مكان من جسمي، واروح أفكر باشياء تجعلني آخذ بالصياح لانني أكرهها كثيراً. اذا كان ثمة طبيب في اي مكان يمكن أن يجعلني انسى أنني مريض بدلاً من تذكره، فانني سأستدعيه الى هنا.

ثم لوح بيد نحيلة كان من الواجب أن تتزين بالخواتم الملكية المرصعة بالياقوت.

وواصل قوله: لان ابنة عمي تجعلني أنسى فأنها تجعلني أحسن. لم يمكث الدكتور كريفن الا قليلاً بعد هذه «النوبة»، فقد كان يظطر للبقاء طويلاً ويفعل أشياء كثيرة كل مرة. أما اليوم عصراً فلم يعط أي دواء ولم يترك اي أوامر وجنب أي مشهد عاطفي مثير، مقيت. وعندما نزل الى الطابق الاسفل كان يبدو مستغرقاً في التفكير وعندما تحدث الى السيدة ميدلوك في المكتبة شعرت أنه كان حائراً.

فسألته: حسناً ياسيدي، هل يمكن أن تصدق ذلك ؟

فقال الدكتور: لاريب أنها حالة جديدة. ولاينكر أنها أفضل من ذي قبل.

فقال السيدة ميدلوك: أعتقد أن سوزان سارو باي على حق، بل أوكد ذلك. توقفت في بيتها في طريقي الى «ثوايت» أمس وتحدثت معها قليلاً. قالت لي: «حسناً ياسارة أنه، قد لاتكون الطفلة طيبة، وقد لاتكون جميلة، ولكنها طفلة، والطفل يحتاج الطفل.» كنا في المدرسة معاً، أنا وسوزان ساور باي.

قال الدكتور كريفن: أنها أفضل ممرضة عرفتها. عندما أجدها في أي كوخ، أعرف أن فرص انقاذ مريضي مواتية.

ابتسمت السيدة ميدلوك. كانت معجبة بسوزان ساور باي كثيراً. وواصلت ثرثرتها قائلة: سوزان لها طريقتها الخاصة بها. كنت أفكر هذا الصباح بشيء قالته أمي: «اذا تعارك الاطفال أنصحهم وأقول لهم جميعاً: (عندما كنت في المدرسة تعلمت من الجغرافية أن العالم يشبه البرتقالة ووجدت قبل أن أبلغ العاشرة من عمري أن البرتقالة الكاملة لاتخص أحداً بعينيه. فلا أحد يملك أكثر من قطعة يأوي اليها ويبدو أحياناً أنه لايوجد حتى مأوى يلتجيء اليه. ولكن لاتفكروا – أنتم جميعاً – بامتلاك البرتقالة بكاملها والا ستجدون أنكم مخطئون، وأنكم لن تعرفوا ذلك دونما ضرب عنيف.) وتضيف قولها: (مايتعلمه الاطفال من الاطفال هو أنه ليس من العقل اغتصاب البرتقالة كاملة –

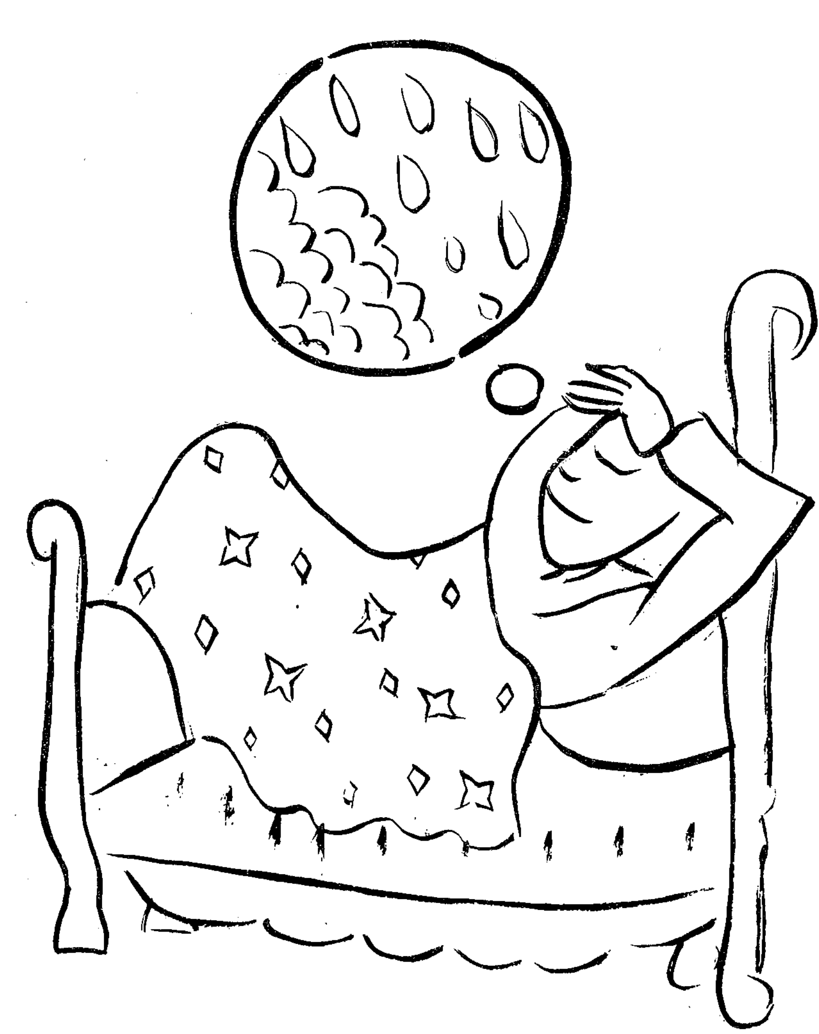
بقشرها وكل شيء. فاذا حاولت فلعلك لن تحصل حتى على البذور، وهي مرة لاتؤكل،

فقال الدكتور كريفن وهو يضع معطفه: هي أمرأة داهية.

فأنهت السيدة ميدلوك كلامها فرحة: صحيح، فهي لها طريقة خاصة بالتعبير عن الاشياء. أقول لها أحياناً: أي سوزان أنك أمرأة ذكية.

نام كولن تلك الليلة دون أن يستيقظ مرة واحدة وعندما فتح عينيه في الصباح ظل مستلقياً في فراشه مبتسماً دون أن يعرف السبب - ابتسم لانه شعر بالراحة التامة. ماأجمل أن يكون الانسان مستيقظاً هكذا، وانقلب وتمطى بشيءٍ من الترف. وشعر كأن الحبال التي كانت تشده بقوة قد ارتخت وأخلت سبيله. ولم يعرف أن الدكتور كريفن قال أن أعصابه قد ارتخت وهدأت وارتاحت. وبدلاً من الاستلقاء والتحديق في الجدار والتمني أنه لم يستيقظ، فان فكره كان مليئاً بالخطط التي رسمها مع ميري امس، وبالصور عن الحديقة وديكون وحيواناته البرية. ماأجمل أن يمتلك الانسان أشياء يفكر بها! ولم تكد تمر على يقظته عشر دقائق حتى سمع اقداماً تركض في الرواق وكانت ميري لدى الباب، ودخلت الغرفة وركضت الى سريره جالبة معها نفحة من الهواء الطلق المعطر بانفاس الصباح.

وصاح: كنت في الخارج! كنت في الخارج! هذه رائحة الاوراق الطيبة!



خرجت في الصباح تركض وشعرها منثور يتطاير في الهواء وكانت مشرقة بفعل الهواء وتورد خداها، ولكنه لم يستطع أن يرى ذلك.

وقالت منقطعة الانفاس من ركضها: شيئ جميل! لم تر شيئاً جميلاً مثله! لقد جاء ! ظننت أنه جاء في ذلك الصباح، ولكنه جاء اليوم. وهاهو موجود! جاء الربيع ! هذا مايقوله ديكون!

فصاح كولن: هل جاء حقاً؟

ومع أنه لم يكن يعرف حقاً أي شيئ عن الربيع، شعر بقلب يخفق وجلس في الحال في فراشه.

واضاف ضاحكاً بين فرح وتخيل: افتحي الشباك! لعلنا نسمع أبواقاً ذهبية !

وبالرغم من أنه كان يضحك في قوله ذلك، وصلت ميري الى الشباك في الحال وفتحته على مصراعيه وتدفقت العذوبة والرقة والعطور واغاريد الطيور.

وقالت: هاهو ذا الهواء الطلق. استلق على ظهرك واستنشق انفاساً طويلة منه. هذا مايفعله ديكون عندما يستلقي في المروج. يقول أنه يشعر به في عروقه ويجعله قوياً ويشعر كأنه يمكن أن يعيش الى الابد. فتنفسه واستنشقه.

كانت تردد ما قاله لها ديكون ولكن ذلك اثر في خيال كولن.

فقال: يعيش الى الابد ! هل يجعله يشعر بذلك.

وفعل ماقالت له وسحب أنفاساً طويلة مرات عديدة حتى شعر أن شيئاً جديداً وساراً قد حصل له.

وجاءت ميري الى سريره مرة أخرى.

وقالت على عجل: خرجت اشياء كثيرة من الارض زهور متفتحة وبراعم على كل شيئ، والغلالة الخضراء تكاد تغطي كل شيئ رمادي وتحل محله، والطيور تسرع الى أعشاشها خشية أن تتأخر عن موعدها، فراح بعضها يتشاجر من أجل ايجاد اماكن لها في الحديقة السرية. وتبدو الورود كالقناديل. وانتشرت زهور الربيع في المماشي والاحراش، وخرجت البذور التي زرعت، وجلب ديكون الثعلب والغراب والسنجابين وحملاً وليداً.

ثم توقفت لتلتقط أنفاسها. وجد ديكون الحمل الوليد قبل ثلاثة أيام مستلقياً قرب أمه الميتة بين شجيرات الرتم في المروج. لم يكن اول حمل يتيم يجده وكان يعرف كيف يربيه. اخذه الى البيت ولفه بسترته ووضعه قرب النار واعطاه حليباً دافئاً كان شيئاً رقيقاً ذا وجه حبيب وسيقاناً طويلة بالنسبة الى جسمه، حمله ديكون بين ذراعيه في المروج، ومعه قنينة الحليب لارضاعه في جيبه مع سنجاب. وعندما جلست ميري تحت شجرة وتلقت دفء الحمل اللطيف في حضنها، شعرت كأنها لاتستطيع الكلام من فرط السرور. حمل – حمل ! حمل حي في حضنك مثل طفل رضيع !

كانت تصف ذلك ببهجة عظيمة وكان كولن يستمع ويستنشق أنفاساً طويلة من الهواء عندما دخلت المربية. جفلت قليلاً من منظر الشباك المفتوح. ماا كثر ماجلست مختنقة في الغرفة اياماً عديدة في جو دافيء لان مريضها كان يعتقد أن الشبابيك المفتوحة تصيب النّاس بالبرد.

فسألته: هل أنت متأكد أنك لاتشعر بالبرد، ياسيد كولن ؟

فاجابها: لا، أني أستنشق أنفاساً طويلة من الهواء العذب. أنه يجعلك قوية. سانهض واجلس على الأريكة لتناول الافطار وسوف تتناول ابنة عمي أفطارها معي.

وخرجت المربية، تخفي ابتسامة، لتطلب أفطاراً لاثنين. ووجدت ردهة الخدم أكثر تسلية من غرفة نوم المريض، وكان الجميع يريدون سماع أخبار ماجرى في الطابق الاعلى. وقيلت نكات كثيرة عن الفتى المنعزل الذي قالت عنه الطباخة وجد سيده ومافيه صالحاً. وقد تعب الخدم من نوبات الغضب وعبر كبير الخدم، الذي كان رب أسرة، مرات عديدة عن رأيه بأن من الافضل أن «يجلد هذا المريض جلداً مبرحاً» .

وعندما جلس كولن في اريكته ووضع الافطار لاثنين على المائدة، اعلن قائلاً للمربية بلهجة الراجا:

– سوف يأتي لرؤيتي ولد وثعلب وغراب وسنجابان وحمل وليد اريدهم ان يحضروا الى الطابق العلوي حال وصولهم. لااريدكم ان تأخذوا باللعب مع الحيوانات في ردهة الخدم وتبقوها هناك.

اريدها هنا.

وغصت المربية وحاولت أخفاءها بسعلة.

وقالت: نعم، سيدي.

واضاف كولن ملوحاً بيده: سأخبرك بما تستطيعين عمله، يمكن أن تخبري مارثا ان تجلبهم هنا. الولد هو اخو مارثا. اسمه ديكون وهو ساحر حيوانات.

فقالت المربية: ارجو أن لاتعضنا الحيوانات، ياسيد كولن.

فقال كولن بصرامة: قلت لك أنه ساحر. حيوانات الساحر لاتعض ابداً.

فقالت ميري: في الهند سحرة افاعٍ يستطيعون ان يضعوا رؤوس الافاعي في افواههم.

فارتعدت المربية قائلة: ياإلهي!

وتناول الاثنان أفطارهما ونسيم الصباح يتدفق اليهما. كان افطار كولن ممتازاً، وكانت ميري تراقبه باهتمام شديد.

وقالت: سوف تتحسن وتسمن مثلما حصل لي. لم اكن اشتهي افطاري عندما كنت في الهند ولكنني الآن اشتهيه كثيراً.

فقال كولن: اردت افطار اليوم صباحاً واشتهيته. لعل ذلك بسبب الهواء الطلق. متى، تعتقدين، يأتي ديكون؟

ولم يتأخر كثيراً في المجيء. ورفعت ميري يدها بعد عشر دقائق.

وقالت: انتبه! أتسمع غراباً؟

واصغى كولن وسمعه، اغرب صوت في هذه الدنيا يسمع

داخل بيت، نعيب أجش.

واجاب: نعم.

فقالت ميري: هذا اسحم. اصغ مرة أخرى. هل تسمع ثغاءً — ثغاءً صغيراً ؟·

فصاح كولن وقد تورد خداه: اوه، نعم !

قالت ميري: هذا هو الحمل الوليد حديثاً. أنه آت.

كان حذاء ديكون سميكاً غير بارع الصنع، ومع أنه حاول ان يمشي بهدوء، فان الحذاء كان يخرج صوتاً وجلبه في أثناء مسيره في الممرات الطويلة. وسمعه كولن وميري يسير — ويسير حتى مر من باب السجف وسار على البساط الوثير في الممر المؤدي الى غرفة كولن.

واستأذنت مارثا قائلة وهي تفتح الباب: لو سمحت ياسيدي، لو سمحت ياسيدي، هذا هو ديكون وحيواناته.

ودخل ديكون وعلى وجهه ابتسامته الواسعة الجميلة. وكان الحمل بين ذراعيه والثعلب يمشي بجانبه. والسنجاب «جوزة» على كتفه الايسر والغراب «اسحم» على كتفه الايمن وراس السنجاب «محارة» ومخالبة خارجة من جيب معطفه.

وجلس كولن ببطء وراح يحدق ويحدق — كما فعل عندما رأى ميري اول مرة. ولكن هذا التحديق جاء نتيجة تعجب وسرور. وفي الحقيقة أنه بالرغم من كل ماسمع، لم يكن يتصور شكل هذا الولد وثعلبه وغرابه وسنجاباه وحمله كانوا قريبين

جداً اليه منعقلين اليه بروابط الوداد، فبدا الجميع كأنهم جزء من نفسه لم يتحدث كولن طوال حياته الى اي ولد. فغمرته البهجة وحب الاستطلاع فلم يفكر بالكلام.

ولكن ديكون لم يشعر بادنى خجل او حرج. ولم يشعر بالارتباك لان الغراب لم يعرف لغته بل ظل يحدق ولم يتكلم اليه في اول لقاء لهما. هذا هو ديدن الحيوانات دائماً حتى تعرف عنك أموراً أكثر وسار ديكون الى اريكة كولن ووضع الحمل الصغير بهدوء في حضنه، واخذ الصغير يحك أنفه بالثوب المخملي ويمرغه في طياته ويدفع رأسه ذا الخصل المحبوكة بشيء من عدم الصبر في جانب الصبي. فلم يتمالك الولد الا ان يتكلم.

ويقول: ماذا يفعل ؟ وماذا يريد ؟

فقال ديكون وهو يبتسم أكثر فأكثر: يريد أمه. جلبته اليك جائعاً قليلاً لكي ترى كيف اطعمه.

وجثا عند الاريكة وأخرج قنينة الحليب من جيبه.

وقال وهو يدير رأس الحمل الابيض الصوف بلطف: هيا !. هذا هو ماتريد ستحصل من هذه اكثر مما تحصل من الثوب المخملي. هاك !

ثم دفع راس القنينة المطاطي في فم الحمل الذي راح يرضع في لذة نهمة. وبعد أن نام الحمل توالت الاسئلة واجاب عنها ديكون جميعاً. وأخبرهم كيف وجد الحمل عند شروق الشمس قبل ثلاثة صباحات. كان واقفاً في المروج يصغي الى قبرة ويراقبها

وهي تحلق فاعلى فاعلى نحو السماء الزرقاء حتى لم تعد سوى اثراً صغيراً في اعالي الجو.

- كدت ان افقدها لولا اغرودتها، وتساءلت في نفسي كيف يمكن للمرء ان يسمعها وقد بدأت كأنها خرجت من الدنيا في مدة دقيقة واحدة - عند ذلك سمعت شيئاً آخر بين شجيرات الرتم، ثغاء ضعيفاً. فعرفت انه حمل ولد حديثاً وهو جائع وعرفت انه لن يجوع لو لم يفقد امه بشكل من الاشكال، لذلك انطلقت ابحث. نعم، بحثت عنه، صرت ادخل واخرج الشجيرات وادور حولها واظل ادور ويبدو انني كنت اسير في الاتجاه المعاكس. ولكني في النهاية رأيت شيئاً ابيض عند صخرة في مرتفع من المروج فتسلقت ووجدت الصغير وقد اوشك على الموت من البرد والجوع.

وعندما كان يتكلم، كان الغراب يطير خارجاً وداخلاً من الشباك المفتوح ويلعب، بينما كان السنجابان يقومان بنزهة فوق الأشجار العالية في الخارج ويصعدان وينزلان جذوعها ويستكشفان الاغصان. اما الثعلب فقد نام قرب ديكون الذي جلس على البساط أمام المدفأة.

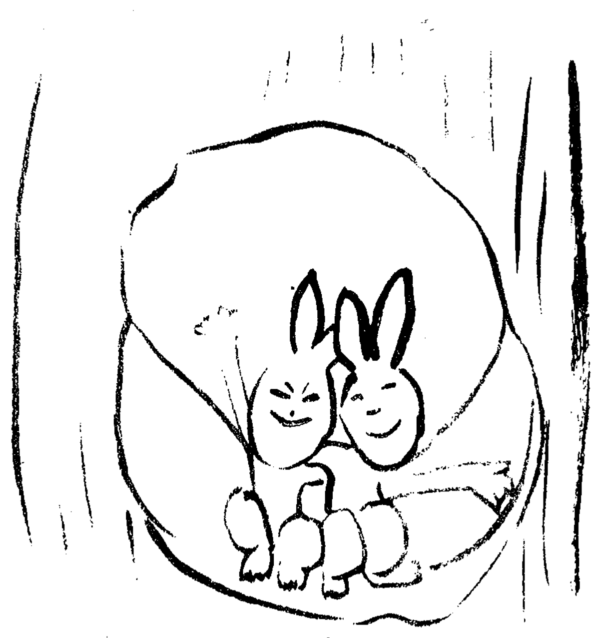
وتفرجوا على الصور في كتب الحدائق وكان ديكون يعرف جميع الزهور باسمائها الريفية ويعرف بالضبط أياً منها موجود في الحديقة السرية.

وقال وهو يشير الى زهرة كتب تحتها أسم «الاكيلجية» :

لااستطيع أن أتلفظ اسم هذه الزهرة. ولكننا ندعوها الافعوانية وتلك الاخرى هي انف العجل. وهما تنموان بريتين ولكن هذه الزهور تنمو في الحدائق وهي اكبر وافخم. وتوجد بعض المجموعات من الافعوانية، تكون مايشبه بساطاً من الفراشات الزرق والبيض التي ترفرف طائرة.

وصاح كولن: ساذهب لرؤيتها. سأذهب لرؤيتها !

فقالت ميري: نعم، يجب أن تذهب. وعليك أن لاتضيع الوقت بهذا الخصوص.





٢٠ ـ سأعيش الى الابد والى الابد والى الابد

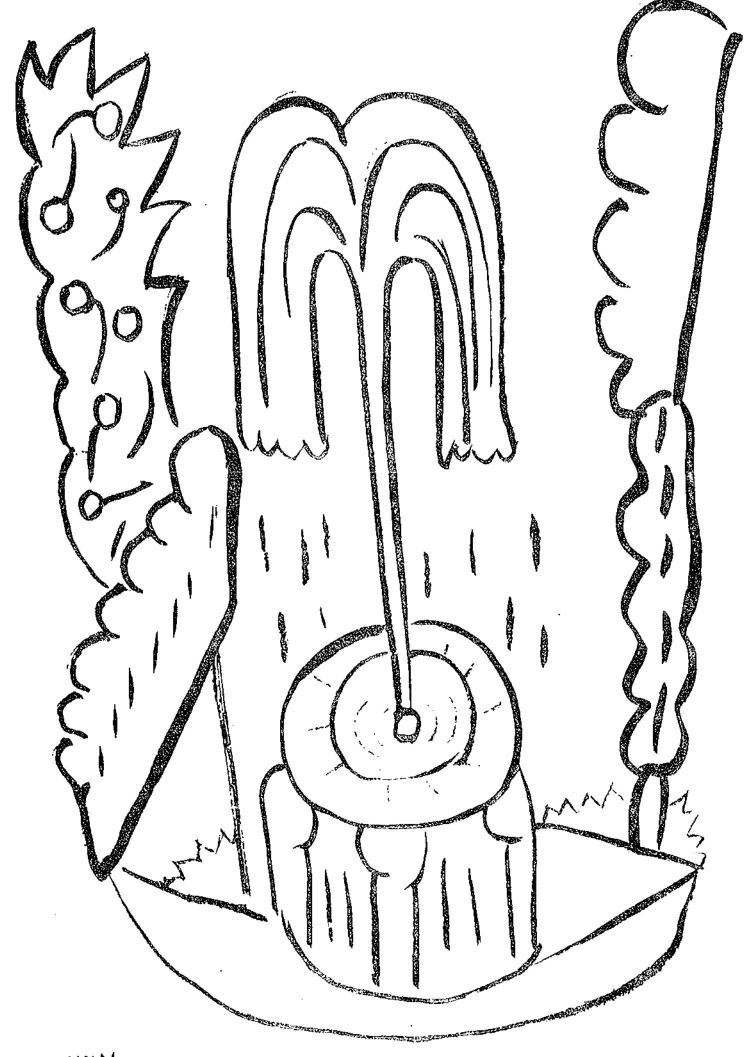
ولكنهم اضطروا الى الانتظار اكثر من اسبوع ، فقد جاءت اولاً ايام عاصفة ، وكان كولن مهدذاً بالبرد . وهذان الشيئان اذا حدثا ، واحداً بعد آخر ، فانهما ، لا ريب ، سيدفعان كولن ، في نوبة من الغضب ، ولكن الامر كان مدبراً بعناية كبيرة وتخطيط بارع ، وكان ديكون ياتي كل يوم ، ولو دقائق قليلة ، ليتحدث عما يجري في المروج وفي المسالك واسيجة النباتات وعلى حواف السواقي . ان الامور التي ارادة التحدث عنها كبيوت الغريرات والقنادس وجرذان الماء ، فضلاً عن اعشاش الطيور وفئران الحقول وانفاقها ، تجعلك ترتعش انفعالاً اذا ما سمعت كل التفاصيل بدقائقها من ساحر حيوانات وادركت باي نوع من اللهفة المثيرة والقلق الشديد تجري اعمال المخلوقات في العالم الخفي .

قال ديكون : انها مثلنا تماماً ، ولكن عليها ان تبني بيوتها كل

عام . وتظل منشغلة بها حتى تتمها .

ان اكثر ما اشغل بالهم هو التأهب قبل ان يتمكنوا من نقل كولن الى الحديقة بسرعة كافية . يجب ان لا يرى احد العربة . وديكون وميري بعد ان استداروا حول منعطف من الشجيرات ودخلوا الممشى خارج الاسوار المغطاة باللبلاب . وكلما مر يوم ، اصبح كولن اكثر اطمئناناً الى ان السر المحيط بالحديقة كان من اعظم الامور سحراً ، ويجب ان لا يفسد ذلك شيئ . ويجب ان لا يشك احد بالسر الذي لديهم . يجب.ان يعتقد الناس انه كان يخرج مع ميري وديكون لانه يحبهما ولم يمانع ان ينظرا اليه . تحدثوا كثيراً احاديث طويلة وممتعة عن طريقهم الخاص . كانوا يسيرون في هذا الممر ذهاباً ويعودون في ذلك اياباً ويعبرون الآخر ويدورون حول الواح الزهور المحيطة بالنافورة كأنهم يتفرجون على النباتات التي زرعها كبير البستانيين السيد روج ونسقها . يبدو ذلك امراً معقولاً فلن يظن احد من الناس انه شيئ سري ابداً . ثم يستديرون ويدخلون الممرات بين الأحراش ويضيعون اثرهم حتى يصلون ان الاسوار الطويلة . انها فكرة جادة ومتقنة مثل خطط المسيرات التي قام بها قادة عظماء في زمن الحرب .

تسربت الاشاعات عن الامور الجديدة الغريبة التي تجري في شقة الولد المريض من ردهة الخدم الى الاسطبلات ومنها الى البستانيين ، ولكن بالرغم من ذلك ، السيد روج جفل ذات يوم عند ما تلقى أوامر من غرفة السيد كولن بخصوص حضوره



شخصياً في الشقة ، التي لم يرها دخيل قط ، حسب رغبة الصبي المريض نفسه بالكلام اليه .

فقال في نفسه وهو يبدل معطفه على عجل : حسنٌ ، حسنْ! ماذا سافعل الآن؟ سموه الذي لم يكن ينظر اليه احد يستدعي رجلاً لم يره قط .

لم يكن السيد روج خلواً من الفضول وحب الاستطلاع ، فهو لم يلقِ في يوم نظرة على الصبي بل سمع كثيراً من القصص المبالغ فيها عن هيأته الخارقة وطرائفه الغريبة ومزاجه المخبول . الشيئ الذي تناهي الى سمعه كثيراً هو احتمال موته في اي لحظة وقد بلغته اوصاف خيالية عديدة عن ظهره الاحدب واطرافه المشلولة ، نقلها اناس لم يشاهدوه قط .

وقالت السيدة ميذلوك : ان الاشياء في تغير في هذا البيت يا سيد روج .

قالت ذلك وهي تقوده الى السلم الخلفي المؤدي الى الرواق حيث الغرفة التي يكتنفها الغموض .

فاجابها قائلاً : عسى ان تتغير الامور نحو الافضل ياسيدة ميدلوك .

فواصلت قولها . لا يمكن ان تتغير نحو الاسوأ ، فقد بدأت واجباتهم تكون اسهل ، فلا تستغرب يا سيد روج اذا وجدت نفسك في وسط معرض للحيوانات ، وديكون ، اخا مارثا ساورباي كأنه في بيته اكثر حرية مني ومنك .

كان يحيط ديكون في الحقيقة نوع من السحر كما تعتقد ميري بصورة خاصة . وعندما سمع السيد روج اسمه ابتسم ابتسامة رقيقة .

وقال : سيأخذ حريته في قصر الملك في بكنكام او في منجم . وليس هذا ناجماً عن صفاقة قط . انه ولد رائع حقاً .

ولو لا انه احيط علماً لجفل عندما فتح باب غرفة النوم اعلن الغراب المطمئن الجاثم على ظهر الكرسي العالي قدوم زائر بنعيبه العالي . وبالرغم من تنبيه السيدة ميدلوك فان السيد روج تحاشى الموقف المخجل فلم يقفز متراجعاً

لم يكن الراجا الصغير في فراشه او على الاريكة . كان جالساً في كرسي بمسندين وحمل صغير واقف بجانبه يهز ذيله وهو يرضع من القنينة التي بيد ديكون يسقيه الحليب .

وكان سنجاب جاثم على ظهر ديكون المنحني وهو يقضم جوزة وكانت الفتاة الصغيرة الآتية من الهند جالسة في كرسي كبير وهي تتفرج .

وقالت السيدة ميدلوك : ها هو ذا السيد روج ، يا سيد كولن .

التفت الراجا الصغير ونظر الى خادمه متفحصاً — او هذا ما ظنه كبير البستانيين .

وقال : انت السيد روج ، اليس كذلك؟ ارسلت في طلبك لكي اقدم لك بعض الاوامر المهمة جداً .— حسن جداً

ياسيدي .

اجاب روج متسائلاً في نفسه ان كان سيتلقى تعليمات لقطع جميع اشجار البلوط في المنتزه او تحويل البساتين الى حدائق .

فقال كولن : ساخرج في كرسيي عصر هذا اليوم . واذا كان الهواء الطلق يوافقني فاني ساخرج كل يوم . واذا خرجت ، فلا اريد احداً من البستانيين ان يقتربوا من الممشى الطويل بجانب اسوار الحديقة . لا اريد احداً هناك . سأخرج في حوالي الساعة الثانية ويجب على الجميع الابتعاد حتى ارسل امري بعودتهم الى العمل .

— حسن جداً ، يا سيدي .

اجاب السيد روج مرتاحاً لسماع ذلك فان اشجار البلوط ستبقى والبساتين في امان .

وقال كولن ملتفتاً الى ميري : ميري ، ما الشيء الذي تقولينه في الهند عندما تنتهي من حديثك وتريدين صرف الناس؟

اجابت ميري : اقول : لك ان تذهب الراجا ولوح من الرجا بيده .

وقال : اسمح لك ان تذهب ، يا روج . ولكن تذكر ان ذلك امر مهم . وصاح الغراب بصوت اجش لا ينقصه الادب : غاق . غاق! فقال السيد روج : حسن جداً يا سيدي ، شكراً يا سيدي واخرجته السيدة ميدلوك من الغرفة . ولما كان رجلاً مهذباً ، فانه ابتسم في الممر حتى كاد ان يضحك .

وقال : ياإلهي! انه رائع ، ووقور ، اليس كذلك . يظن المرء كأنه سليل عائلة مالكة – الامير زوج الملكة او ما شابه ذلك .

فاحتجت السيدة ميدلوك قائلة : اي نحن سمحنا له ان يتصرف بقسوة واستعلاء معنا جميعاً منذ ان مشى ، وصار يظن ان ذلك من واجب الناس تجاهه .

فقال السيد روج : لعله سيتجاوز ذلك ، اذا ما عاش .

فقالت السيدة ميدلوك : حسن ، ثمة شيئ واحد مؤكد . اذا ما عاش وبقيت هذه الطفلة الهندية هنا ، فاني اوكد انها ستعلمه ان البرتقالة الكاملة لا تعود له ، كما تقول سوزان ساورباي ، ولعله سيعرف قدر نفسه .

كان كولن متكئاً على الوسادة في الغرفة

وقال : كل شيئ في امان الآن – سوف اراها اليوم عصراً – اليوم عصراً ساكون فيها!

عاذ ديكون الى الحديقة مع حيواناته وبقيت ميري مع كولن . ولم تعتقد انه كان متعباً ، ولكنه كان هادئاً جداً قبل موعد الغداء وكان هادئاً عندما كانا ياكلان . تساءلت في نفسها عن السبب وسألته عن ذلك .

وقالت : ما اكبر عينيك يا كولن ، عندما تفكر تتسعان كثيراً كأنهما صحنان . بماذا تفكر الآن؟

فاجاب : لا مفر لي من التفكير بشكلها . فسالته ميري :

الحديقة؟

فقال : الربيع . كنت افكر انني لم اره قبل هذا قط . لم اكد اخرج ، واذا ماخرجت فانني لم انظر اليه ، حتى انني لم افكر به .

فقالت ميري: لم اره في الهند لانه لايوجد فيها.

ولما كان كولن مريضاً حبيس البيت ، فانه كان اوسع خيالاً منها ، وامضى ساعات كثيرة في التفرج على الكتب العجيبة وعلى الصور.

وقال يحدثها : عندما جئت راكضة الى غرفتي في ذلك الصباح وقلت لقد جاء! لقد جاء! جعلتني اشعر بشيئ غريب . فقد بدا لي كأن الاشياء كانت تتقدم في موكب عظيم على انغام الموسيقى والهتافات . لدى صورة مثل ذلك في احد كتبي — جماهير من الناس والاطفال الجميلين يحملون اكاليل .واغصانا عليها زهور متفتحة ، والجميع يضحكون ويرقصون ويتجمهرون ويعزفون المزامير. لذلك قلت : «لعلنا نسمع ابواقاً ذهبية» وطلبت اليك ان تفتحي الشباك .

فقالت ميري : ما اغرب هذا ! ذلك هو حقاً ما يبدو . فاذا ما رقصت جميع الزهور والاوراق والاغصان وكل النباتات الخضر والطيور والحيوانات البرية في وقت واحد ، فما اروع ذلك الجمهور! اني متأكد انهم سيرقصون ويغنون ويعزفون وتلك هي الانغام الموسيقية .

وضحك الاثنان ليس لان الفكرة مضحكة ولكن لانهما احبا ذلك .

وبعد قليل جعلت المربية كولن متاهبا . ولاحظت انه بدلا من ان يكون مثل خشبة عندما كانت تضع عليه ملابسه . فانه جلس وبذل جهداً في مساعدتها ، وتحدث وضحك مع ميري طوال الوقت .

وقالت للدكتور كريفن الذي جاء ليفحصه : هذا من افضل ايامه ياسيدي . انه في حالة نفسية ممتازة مما جعلته اقوى فقال دكتور كريفن : سازوره مرة اخرى عند العصر بعد ان يعود . يجب ان ارى كيف سيناسبه الخروج من البيت . اتمنى - قالها بصوت خافت - ان يسمح لك بالذهاب معه .

اجابت المربية بحزم مفاجئ : افضل ان اتخلى عن الوظيفة في هذه اللحظة ، ياسيدي ، من ان أبقى هنا اذا كان هذا اقتراحاً عليّ .

فقال الدكتور بشيء من العصبية : لم اقرر حقاً ان يكون هذا اقتراحاً . سنرى التجربة . ديكون صبي يمكنني ان اعهد اليه بطفل ولد حديثاً .

حمل كولن اقوى الخدم الى الطابق الاسفل ووضعه في كرسيه ذي العجلات الذي كان ينتظر ديكون قريبا منه . وبعد ان رتب الخادم الوسائد والبطانية ، لوح الراجا بيده اليه والى المربية .

وقال : اسمح لكما بالذهاب .

واسرع الاثنان وابتعدا عنهم ودخلا البيت حيث اخذا يتلهفان عندما كانا في آمان .

وبدأ ديكون يدفع الكرسي ببطء وحزم . ومشت الانسة ميري بجانبه وكولن متكئ الى الخلف ، رافع رأسه الى السماء . وبدت القبة السماوية عالية جداً والغيوم الصغيرة الثلجية اللون مثل طيور بيض ناشرة اجنحتها تحت زرقتها البلورية. وكان النسيم يحمل انفاساً رقيقة في دفقات من المروج. وظل كولن يرفع صدره يستنشق منها وبدت عيناه الواسعتان كأنهما كانتا تستمعان - تستمعان بدلاً من اذنيه.

وقال : ثمة اصوات غناء وهمهمات عديدة - ماهذا العطر الذي تجلبه دفقات النسيم.

فاجاب ديكون : ان زهور الرتم المتفتحة في المروج. اي! النحل رائع عليه اليوم.

لم ير احداً في الممرات التي ساروا فيها ، الآن كل بستاني او صبي قد ابعد من هناك. ولكنهم صاروا يدورون بين شجيرات ، داخلين خارجين، وحول الواح زهور النافورة ذهاباً واياباً ، متتبعين خطتهم المتقنة لمجرد التسلية بذلك واخفاء السرية على تحركهم. ولكنهم عندما دخلوا الممشى الطويل بجانب الاسوار المغطاة باللبلاب جعلتهم هزة الشعور المنفعل بالاقتراب ، لسبب غريب لايعرفون له تفسيراً ، ان يتكلموا همساً.

همست ميري: هذه هي. هذا هو المكان الذي مشيت فيه ذهاباً واياباً وتساءلت ثم تساءلت.

فصاح كولن: اصحيح هو؟

وبدأت عيناه تتفحصان وتبحثان بين اللبلاب بلهفة غريبة.

وهمس قائلاً: ولكنني لااری شيئاً. لايوجد باب.

فقالت ميري: هذا ماظننت انا ايضاً.

ثم تلا ذلك سكوت تام وسار الكرسي بالعجلات.

وقالت ميري: هذه الحديقة التي يعمل فيها بين ويذر ستاف.

فقال كولن: صحيح؟

وهمست ميري بعد خطوات قلائل.

وقالت: وهنا طار أبو الحناء فوق السور.

فصاح كولن: صحيح؟ اوه! اتمنى ان يعود مرة اخرى!

واشارت ميري بفرح غامر الى شجيرة لبلك ارجواني قائلة: وتحت هذه، جثم الطير على كومة التراب واراني المفتاح.

ثم جلس كولن.

وصاح: اين؟ اين؟ هناك؟

واتسعت عيناه مثل عيني الذئب في قصة ذات القبعة الحمراء عندما نظرت البنت اليهما مندهشة. ووقف ديكون ساكناً وتوقف الكرسي ذو العجلات.

وقالت ميري وهي تخطو نحو اللوح القريب من اللبلاب.

وهنا جئت لاتحدث اليه عندما اخذ يسقسق لي من اعلى

السور . وهذا هو اللبلاب الذي حركته الريح ..   ومسكت الستارة الخضراء المتدلية .

وكتم كولن انفاسه وقال : اوه! هذه هي – .

– وهذا هو المقبض ، وهذا هو الباب . ديكون ، ادفعه الى الداخل – ادفعه بسرعة!

ودفعه ديكون دفعة قوية ، رائعة مضبوطة . فارتد ديكون الى الوراء على وسائده ، مع انه ظل مبهوراً الانفاس من فرط ـحة وغطى عينيه بيديه وظل كذلك حتى صاررروا في ـ حـ . وتوقف الكرسي كأنما بفعل السحر ، واغلق الباب . ثم رفعها وتطلع حوله كما فعل ديكون وميري . وفوق الاسوار وعلى الارض والاشجار والأغصان المتأرجحة والعساليج زحفت الفلالة الخضراء من الأرواق الصغيرة اللطيفة، وفي العشب تحت الأشجار والجرار الرمادية في المختليات وهنا وهناك ، في كل مكان شاهد لمسات من الوان ذهبية وارجوانية وبيض وكانت الأشجار فوق رأسه متوجة باللون الوردي والأبيض، وكان حفيف اجنحة وعزف مزامير خافتة وطنين. وعطور وطيب. وهبطت الشمس دافئة على وجهه مثل يد حنون. ووقف ديكون وميري يحدقون فيه متعجبين. بدا غريب الشكل مختلفا لأن وهجا ورديا زحف على جميع جسمه، ووجهه ورقبته ويداه وكل شيء بلون العاج .

وهتف صائحا ! سوف اتحسن ! سوف اتحسن! ميري! ديكون! سوف اتحسن! وسوف اعيش الى الابد والى الأبد والى الأبد !

٢١ ـ بيت ويزرستاف

من الاشياء الغريبة عن الحياة في هذه الدنيا ان يكون المرء متأكداً بين حين وآخر انه سيعيش الى الابد والى الابد والى الابد .

يعرف المرء ذلك احياناً عندما ينهض في موهن من الفجر ويخرج ويقف وحده ويرفع رأسه الى الاعلى ويتطلع الى السماء الباهتة ويتحول لونها ويتورد وتحدث اشياء عجيبة غير معروفة حتى يكاد المشرق يجعل الانسان يصرخ ، ويقف قلبه ساكناً امام جلال الشروق الذي ظل يتكرر كل صباح آلاف وآلاف وآلاف السنين . يعرف الانسان ذلك في لحظة او نحوها . ويعرفه احياناً عندما يقف وحده في غابة امام الغروب ، ويبدو الهدوء الذهبي العميق الغامض مخترقاً الاغصان حتى الاسفل كأنه يقول بلطف مراراً وتكراراً شيئاً لايسع الانسان سماعه جيداً ، مهما حاول الاصغاء . ويجعل الهدوء الشامل احياناً في زرقة الليل

العميقة وملايين النجوم المنتظرة تراقب ، يجعل المرء متأكداً . ويؤكد صدق ذلك احياناًنأمة موسيقى بعيدة ، واحياناً نظرة في عين انسان .

كان الامر يشبه ذلك بالنسبة الى كولن عندما رأى الربيع اول مرة وسمعه واحس به في داخل الاسوار العالية الاربعة للحديقة المخفية . بدت الدنيا في عصر ذلك اليوم كأنها قد كرست نفسها لتكون كاملة مشرقة في جمالها لطيفة من اجل ولد واحد . ولعل الربيع جاء بفضل من الرعاية الالهية الصرف وكدس كل شيء يستطيع الاتيان به في ذلك المكان الواحد . توقف ديكون اكثر من مرة في ما كان يعمل وظل ساكناً والعجب بادٍ في عينيه ، رأسه بلطف .

وقال : اي! شيء رائع . انا في الثانية عشرة وسأعبر الى الثالثة عشرة ، ولكن يبدو لي انني لم ار اعظم واروع من هذا العصر قبلاً .

وقالت ميري بفرح وبهجة : اي ، انه رائع . واوكد انه أروع يوم في هذه الدنيا .

فقال كولن باهتمام حالم : ألا تظنين ان كل ما حصل بهذا الشكل كان من اجلي ؟

فقالت ميري : يا الهي . ان في لهجته شيئاً من لهجة يوركشير .

وساد السرور والبهجة بينهم . وسحبوا الكرسي تحت شجرة كمثرى بيضاء كالثلج من الزهور وتعج بموسيقى النحل . كانت



اشبه بسرادق ملك من ملوك الجن . وكان قريباً اليها اشجار كرز وتفاح مزهرة ، ازهارها قرنفلية وبيض وهنا وهناك تفتحت بعضها واسعة . وتطلعت من بين الغصون المزهرة بقع من السماء الزرقاء كأنها عيون مدهشة .

وكان ميري وديكون يعملان قليلاً هنا وهناك وكان كولن يراقبهما . وجلبا له اشياء ليلقي نظرة عليها - براعم متفتحة وبراعم ما زالت مقفلة . وقطعاً من اغصان اوراقها بدت تظهر خضراً ، وريشة نقار خشب سقطت على العشب ، وقشرة بيضاء فقست عن طير مبكراً . ودفع ديكون الكرسي ببطء حول الحديقة وكان يتوقف بين لحظة واخرى ليدعه ينظر الى العجائب المنبثقة من الارض او المتعلقة بالاشجار ، كأنها صفت في بلد ملك وملكة سحريين وكشفت كل ما فيها من ثراء غامض مخبوء .

وقال كولن : عجباً ، هل سنرى ابا الحناء ؟

فاجاب ديكون: ستراه مراراً بعد قليل . فعندما يفقس البيض عن الصغار ، سيظل مشغولاً ويبقى راسه متحركاً . سوف تراه طائراً ذهاباً واياباً يحمل دوداً كثيراً ! وتسمع ضجة في العش كثيرة عندما يصل اليه ويضطرب لايدري اي فم مفتوح واسعاً يلقي فيه اول قطعة . مناقير فاغرة و «وصوصات» شاكية من كل جانب . تقول امي عندما ترى الطير يشبع الافواه المفتوحة . تشعر كأنها سيدة لاعمل لها . تقول انها رأت الطيور الصغيرة كأن العرق يتساقط منها ولو ان الناس لايرونه .

جعلهم ذلك يقهقهون بسرور فاضطروا الى وضع ايديهم على افواههم ، متذكرين انهم يجب ان لايسمعهم احد . وقد اعلم كولن بقانون الهمسات والاصوات الخفيضة قبل ايام قليلة . واحب مسألة السرية في الامر وبذل جهده ، ولكنه في غمرة البهجة من الصعوبة على المرء ان لايعلو ضحكة فوق الهمس .

كانت كل لحظة من لحظات العصر مليئة باشياء جديدة وكانت اشعة الشمس تزداد ، كل ساعة ، ذهبية . واعيد الكرسي ذو العجلات تحت السرادق وجلس ديكون على العشب وسحب مزماره ، ورأى كولن شيئاً لم يره من قبل .

وقال : تلك شجرة عتيقة جداً ، هناك ، أليس كذلك ؟

ونظر ديكون نحو الشجرة ونظرت ميري ايضاً ، وتلا ذلك لحظة من هدوء .

— نعم .

اجاب ديكون ، بعد ذلك ، وكان صوته الواطئ رقيقاً جداً ، وحدقت ميري في الشجرة وفكرت .

وواصل كولن قوله : الاغصان رمادية تماماً وليس عليها اي ورقة : انها ميتة تماماً . اليس كذلك ؟

فاعترف ديكون قائلاً : نعم . ولكن الاوراد تسلقت عليها جميعاً وسوف تغطي كل قطعة من الخشب الميت عندما تخرج الاوراق والزهور ، ولن تبدو عند ذلك ميتة . ستكون اجمل الاشجار اطلاقاً .

وظلت ميري تحدق وتفكر .

وقال كولن : يبدو كأن غصناً كبيراً قد كسر منها . عجبي ، كيف حدث ذلك ؟

فاجاب ديكون : حدث ذلك قبل سنين! اي نعم!

ووضع يده فجأة على كولن وقال : انظر الى ابي الحناء ذلك! هناك! انه يطوف بحثاً عن طعام لصاحبته .

كاد كولن ان يتأخر غير انه لمحه ، لمحة من طير احمر الصدر وفي منقاره شيء . انطلق بين الخضرة ودخل الركن المكتظ بالنباتات واختفى عن الانظار . واتكأ كولن على وسادته مرة اخرى وضحك قليلاً .

وقال : انه يأخذ الشاي اليها . لعلها الساعة الخامسة . اظن انني اريد شيئاً من الشاي .

ومر الامر بسلام .

وقالت ميري بشكل سري الى ديكون بعد ذلك : «ان السحر هو الذي ارسل ابا الحناء . اعرف انه السحر .» فقد كانت هي وديكون خائفين ان يسأل كولن شيئاً عن الشجرة التي كسر غصنها قبل عشر سنوات ، وكانا قد تحدثا عن ذلك معاً ووقف ديكون وحك رأسه بطريقة مضطربة .

وقال : يجب ان يبدو علينا وكأنها لاتختلف عن غيرها من الاشجار . لانستطيع ان نخبره ابداً كيف انكسر : واذا قال اي شيء عنها يجب علينا — يجب علينا ان نحاول ان نبدو مبتهجين .

فاجابت ميري : اي ، نعم ، هذا مايجب علينا .

ولكنها لم تشعر بالبهجة عندما تطلعت الى الشجرة . ظلت

تتساءل في نفسها لحظات عن الحقيقة في الشيء الآخر الذي قاله ديكون ، الذي ظل يحك راسه الاحمر بلون الصدأ بطريقة حائرة ، ولكن نظرة لطيفة هادئة بدأت تلوح في عينيه الزرقاوين .

وقال متردداً : كانت السيدة كريفن شابة جميلة جداً . وتعتقد امي انها كانت تخرج بابنها وترعى ابنها مثل كل الامهات . وحدث ذات مرة ان كانت في الحديقة وكنا نعمل في الحديقة وطلبت منا ان نجلبه الى هنا .

كانت ميري تعتقد أنه كان يقصد شيئاً بخصوص السحر ، اذ كانت شديدة الاعتقاد بالسحر . وفي سرها كانت تعتقد ان ديكون كان يعمل السحر ، السحر الحلال ، طبعاً ، في كل شيء قريب منه ولهذا السبب كان الناس يحبونه كثيراً وتعرف الحيوانات البرية انه صديق لها . وتساءلت ، في الحقيقة ، في نفسها فيما اذا كان من المحتمل انه جلب بقوته السحرية . ابا الحناء واحضره في اللحظة المناسبة عندما سأل كولن ذلك السؤال الخطير . وشعرت ان سحره كان يعمل طوال فترة العصر ويجعل كولن يبدو ولداً مغايراً تماماً . ولم يبدُ من المحتمل ان سيكون ذلك المخلوق الاحمق الذي يصرخ ويضرب ويعض وسادته . وبدا حتى بياضه العاجي قد تبدل . ولم يتلاشى اللون المتورد الذي ظهر في وجهه ورقبته ويديه عندما دخل الحديقة اول مرة . وبدا كأنه مخلوق من لحم وليس من عاج او شمع .

ورأوا ابا الحناء يحمل طعاماً لصاحبته مرتين او ثلاث

مرات ، مما اوحى لكولن بشاي العصر وضرورة تناوله .

فقال : اذهبي وقولي لاحد الخدم ان يجلب الشاي في سلة الى ممشى الورود . ثم يمكنك انت وديكون ان تجلبوه الى هنا .

كانت فكرة معقولة ، نفذت بسهولة . وعندما فرشوا قطعة القماش على العشب وضعوا عليها الشاي الساخن والخبز المحمص والكعك الساخن ، تناولوه بلذة مع كثير من الزبد ، وتوقف كثير من الطيور في رحلتها المحلية في الحديقة متسائلة عما يجري . وانطلق السنجابان «جوزة» و «محارة» الى اعالي الاشجار حاملين قطعاً من الكعك واخذ الغراب «اسحم» نصف قطعة كاملة من كعكة مزبّدة وطار الى احدى الزوايا وصار ينقرها ويتفحصها ويقلبها وهو يبدي ملاحظاته بصوت اجش بخصوصها حتى قرر اخيراً اكلها بفرح في لقمة واحدة .

وصار العصر يقترب من ساعة الاصيل ، والشمس يشتد لون الذهب في رماحها التي ترسلها ، والنحل يعود الى بيوته ، والطيور التي تمر بهم قل عددها . وكان ديكون وميري جالسين على العشب ، واعيدت الاشياء الى سلة الشاي لترجع الى البيت ، وكان كولن مستلقياً على وسادته وخصل شعره الكثيف كفت عن جبينه وبدا وجهه بلون طبيعي تماماً .

وقال : لااريد ان اذهب عصر هذا اليوم ، ولكنني سأعود غداً واليوم الذي بعده ، والذي بعده ، والذي بعده .

وقالت ميري : سوف تستنشق هواء عذباً كثيراً ، اليس كذلك ؟

فاجابها : لن آخذ غير ذلك . رأيت الربيع اليومَ ، وسوف اری الصیف ، وسوف اری کل شيءٔ ينمو هنا . انا نفسي سوف انمو هنا .

فقال ديكون : ستفعل ذلك . سنجعلك تتمشى هنا . وتزرع مثل الناس الذين قبلك .

وتورد وجه کولن کثیراً .

فقال : امشي! وازرع! هل سافعل ذلك ؟

كانت نظرة ديكون اليه فيها شيءٔ من التخدير . ولم يسأله هو او میري ما اذا اصاب ساقيه شيءٔ .

وقال بقوة : ستفعل ذلك بكل تأكيد . انت عندك - عندك ساقان مثل بقية الناس .

ارتعبت ميري حين سمعت جواب کولن .

فقال : لاضرر فيهما ، ولكنهما ناحلتان وضعيفتان . فهما ترتجفان واخشى ان اقف عليهما .

وتنفس كل من ميري وديكون الصعداء .

وقال ديكون بشيءٔ من البهجة المستجدة : عندما تكف عن الخوف ، ستقف عليهما . وسوف تكف عن الخوف ولو قليلاً .

فقال کولن : أصحيح سوف يتوقف خوفي؟

واستلقى هادئاً كأنه كان يفكر في هذه الامور .

وهدأ الجميع برهة وجيزة . ومالت الشمس الى المغيب . في تلك الساعة تهدأ جميع الاشياء . بعد ان شغلت وشغل الاطفال باشياء مثيرة عصر هذا اليوم . وبدا كولن كأنه كان

مرتاحاً في رفاه ورخاء . وتوقفت الحيوانات عن الحركة وتقاربت الى بعضها وارتاحت قربهم . حط «اسحم» على غصن واطئ ورفع ساقاً وارخى الغشاء الرمادي على عينيه . وفكرت ميري انه يبدو كمن سيشخر بعد لحظة .

في هذه الهدأة جفل الجميع عندما رفع كولن رأسه قليلاً وهتف صائحاً بصوت مرتعب فجأة .

— من هذا الرجل؟

وهب ديكون وميري الى اقدامهما وضاحا بصوت خفيض وبسرعة .

— رجل؟

واشار كولن الى السور العالي .

وهتف منفعلاً : انظرا! انظر اليه!

واستدار ديكون وميري ونظرا . كان وجه ويذر ستاف يتطلع اليهم من فوق السور وهو واقف على سلم . وهز قبضة يده على ميري .

وقال : لو لم اكن اعزب ، وكنت زوجتي ، لجلدتك!

وصعدت درجة اخرى وهو يهدد ، وكأنه يريد ان يقفز الى الجانب الاخر ويعاقبها . ولكنها لما تقدمت نحوه فكر في الامر ووقف على اعلى درجة من درجات السلم يهز قبضته في وجهها .

وقال يخاطبها بلهجة حادة : لم افكر كثيراً فيك! لم اتحملك اول مرة وقعت عيناي عليك . مكنسة مهزولة ، شاحبة الوجه ، كثيرة السؤال ، تدس انفها حيث لايريدها احد . لاادري كيف

توطدت معرفتك بي . لولا ابي الحناء ، تباً له .

وهتفت ميري بعد ان استعادت انفاسها : بين ويذر ستاف . ووقفت تحته وصاحت تخاطبه : بين ويذر ستاف ، ابو الحناء هو الذي دلني على الطريق .

وبدا كأن بين ويذر ستاف اراد حقاً ان ينزل الى جهتها ، فقد كان شديد الغيظ والاهتياج .

وصاح بها : ايتها الصغيرة السيئة ! تلقين سوءتك على ابي الحناء – هذا المشغول الآن عن اي شيء . هو يدلك على الطريق ! هو ! اي ! ايتها الوقحة الصغيرة – واستطاعت ان ترى كلماته تتدفق لانه غلبه حب الاستطلاع – وكيف دخلت الى هنا؟

فاعترضت بشدة قائلة : ابو الحناء هو الذي دلني على الطريق . ولم يكن يعرف انه يفعل ذلك ، ولكنه دلني . ولااستطيع ان اخبرك من هنا ، وانت تهز مهدداً بقبضتك .

وكف عن التهديد بقبضته فجأة في تلك اللحظة وفغر فاه وهو يحدق في شيء رآه آتياً فوق العشب نحوه .

جلس كولن يستمع كالمسحور لدى سماعه سيل كلمات ويذر ستاف فظل مندهشاً : ولكنه في غمرة ذلك استعاد نفسه واشار بمهابة الى ديكون .

وامره قائلاً : ادفعني الى هنا ! ادفعني قريباً وتوقف امامه بالضبط !

هذا الذي رآه بين ويذر ستاف وجعله فاغر الفم . كرسي

بعجلات ووسائد وثيرة واغطية تقدمت نحوه كأنها عربة ملكية وفيها راجا صغير متكيءُ بطريقة ملكية والاوامر بادية في عينيه الواسعتين ذوات الاهداب السود ، وامتدت يد نحيلة بغطرسة نحوه . ولاعجب ان يفغر الرجل فاه .

فسأله الراُجا : اتعرف من أنا .

مااغرب تحديق بين ويذر ستاف ! استقرت عيناه الحمراوان الهرمتان على ماكان امامه كأنه رأى شبحاً . ظل يحملق ويحملق وابتلع ريقه ولم يفه بكلمة .

وعاد كولن يسأله بغطرسة مرة اخرى : اتعرف من انا؟ اجب .

ورفع بين ويذر ستاف يده الضخمة المعقدة ومررها فوق عينيه وجبينه ثم اجاب بصوت غريب مرتعش .

وقال : من انت؟ انا اعرفك وكأن عيني املك تحدقان فيّ من وجهك . الله يعلم كيف جئت الى هنا . انك انت الكسيح المسكين .

كان كولن قد نسي ان له ظهراً . واحمر وجهه فانتصب جالساً باستقامة .

وصاح غاضباً : لست كسيحاً . انا لست كذلك !

وصاحت ميري : هو ليس كسيحاً . ليس له حدبةٌ مهما كانت صغيرة . انا نظرت الى ظهره ولم اجد اي شيءُ — قط !

ومرر بين ويذر ستاف يده مرة اخرى وحدق كأنه لايستطيع ان يرى جيداً . وارتعشت يده وارتجف فمه وتهدج صوته . كان

رجلاً هرماً جاهلاً ، شيخاً غير لبق ولا يتذكر من الاشياء الا تلك التي سمعها .

فقال بصوت اجش: ليس عندك ظهر احدب؟

فصاح كولن: كلا؟

فقال بصوت اجش اكثر تهدجاً : وليس عندك ساقان معوجتان؟

تمادى الرجل كثيراً . وتدفقت القوة التي كان يدفعها اثناء نوباته بطريقة اخرى هذه المرة . لم يتهمه احد قبل هذا بساقين معوجتين – حتى همساً – ومجرد الاعتقاد البسيط بوجودهما الذي افصح عنه صوت بين ويذر ستاف كان اكثر مما يتحمله هذا الصغير بدمه ولحمه . جعله غضبه وكبرياؤه المهان ينسى كل شيء الا هذه اللحظة ، فملأه قوة لم يعرف لها مثيلاً من قبل ، طاقة تكاد تكون خارقة .

وصاح مخاطباً ديكون : تعال الى هنا!

واخذ يمزق الاغطية عن ساقيه .

وظل يهتف: تعال هنا! تعال هنا! في الحال!

وصار ديكون عنده في لحظة ، وحبست ميري انفاسها وشعرت انها يشحب لونها . واستطاعت ان تدمدم باسرع ماتستطيع تحت انفاسها المبهورة .

ثم حصل اندفاع شديد وسريع ، وراحت البطانيات تلقى الى الارض ومسك ديكون ذراع كولن ، وبانت الساقان الناحلتان ، وخرجت القدمان الضعيفتان ووطئتا العشب .

وصار كولن يقف منتصباً – منتصباً كالسهم ويبدو طويلاً بشكل غريب – ورأسه ملق الى الخلف وعيناه الواسعتان تومضان بريقاً .

واندفع نحو بين ويذر ستاف قائلاً: انظر الي! انظر الي فقط – ياهذا! انظر اليّ فقط!

فصاح ديكون: انه مستقيم الجسم مثلي تماماً! انه مثل اي صبي من صبيان يوركشير!

اعتقدت ميري ان ما قام به بين ويذر ستاف امر شديد الغرابة . اختنق وابتلع ريقه ، وجرت الدموع فجأة على خديه الذين غضنهما الزمان والطقس ، وهو يصفق يديه .

وانفجر قائلاً: اي! ما اكذب الناس! انت نحيف مثل لوح خشب وابيض مثل طيف او شبح ، ولكن ليس فيك عجرة سوف تكون رجلاً . بارك الله فيك!

وقبض ديكون ذراع كولن بقوة ولكن الولد لم يمشِ مضطرباً . ووقف منتصباً مستقيماً ونظر في وجه بين ويذر ستاف .

وقال : انا سيدك ، اذا ذهب والدي ، وعليك طاعتي . هذه حديقتي . ولا تتجاسر بقول كلمة واحدة عنها . انزل من ذلك السلم ، واذهب الى الممشى الطويل ، وستقابلك الآنسة ميري ، وتأتي بك الى هنا . اريد ان اتحدث اليك . لم نكن نريدك ، ولكنك يجب ان تحفظ السر. اسرع!

وكان وجه بين ويذر ستاف الهرم ، النكد مايزال مبللاً

بالدموع التي انهمرت عليه . وبدا كأنه لايستطيع رفع عينيه عن كولن النحيف المستقيم الجسم الواقف على قدميه وراسه ملقى الى الوراء .

وهمس : اي! ايها الصبي! اي! ياولدي!

ثم تذكر نفسه فاسرع يلمس قبعته بطريقته الفلاحية وقال : «نعم ، سيدي! نعم ، سيدي!» ثم اختفى طائعاً وهو ينزل السلم .



٢٢ ـ عندما غربت الشمس

عندما اختفى راس الرجل العجوز التفت كولن الى ميري .

وقال : اذهبي وقابليه .

وركضت ميري عبرالعشب الى الباب تحت اللبلاب .

وكان ديكون يراقبه بعينين حادتين . كانت بقعتان حمراوان على خديه ، وبدا مذهلا ولم تبد عليه علائم الوقوع .

وقال : استطيع ان اقف .

وكان راسه مازال مرفوعاً ، وهو يقول ذلك بشموخ .

فاجابه ديكون : قلت لك تستطيع حالماً تكف عن الخوف . وقد كففت .

فقال كولن : نعم ، كففت .

ثم تذكر فجأة شيئاً قالته ميري .

فسأل محتداً : هل تعمل السحر؟

واتسع فم ديكون بابتسامة فرحة .

وقال : انت نفسك تقوم باعمال السحر . انه السحر نفسه الذي جعل هذه الاشياء تخرج من باطن الارض .

ولمس بحذائه كتلة من الزعفران في العشب .

ونظر كولن اليها .

وقال ببطء : اي ، نعم! لا يمكن ان يوجد سحر اكبر من هذا لا يمكن .

وجعل نفسه منتصباً باستقامة اكثر .

وقال مشيراً الى احدى الاشجار على بعد اقدام قليلة منه : سامشي الى تلك الشجرة . ساظل واقفاً حتى ياتي بين ويذر ستاف الى هنا . استطيع ان اتكيء على الشجرة اذا ما رغبت . واذا اردت ان اجلس ساجلس ، ولكن ليس قبل مجيئه . اجلب لي بطانية من الكرسي .

ومشى الى الشجرة ، وكان ثابتاً في سيره بالرغم من ان ديكون مسك ذراعه . وعندما وقف الى جذع الشجرة ، لم يكن واضحاً انه استند اليها ، بل وقف بنفسه منتصباً فبدا طويلاً .

وعندما دخل بين ويذر ستاف من الباب رآه واقفاً هناك وسمع ميري تتمتم بشيء .

وسالها متفحصاً : ماذا تقولين؟

لم يكن يريد صرف انتباهه عن قامة الولد الطويلة النحيفة ووجهه الاشم . ولكنها لم تجبه بل قالت :— تستطيع ان تفعل ذلك ! تستطيع ان تفعل ذلك ! قلت لك انك تستطيع ان تفعل ذلك ! تستطيع ان تفعل ذلك ! تستطيع ان تفعل ذلك !



تستطيع !

كانت تقول ذلك لكولن لانها كانت تريد ان تعمل سحراً وتبقيه واقفاً على قدميه بهذا الوضع . لم تكن تتحمل ان ينهار امام بين ويذر ستاف . ولم ينهر . وارتفعت معنوياتها بشعور مفاجئ انه يبدو جميلاً بالرغم من نحوله . وثبت عينيه على بين ويذر ستاف بطريقته المتعجرفة الغريبة .

وامره قائلاً : انظر الي! انظر الي تماماً! هل انا احدب؟ اساقاي معوجتان؟

وما كاد بين ويذر ستاف يستعيد حالة الا قليلاً واجاب بطريقته الاعتيادية .

فقال : لا ، لست كذلك . ابداً لست كذلك . ماذا فعلت بنفسك – تخفي نفسك وتدع الناس يعتقدون انك كسيح وأبله .

فصاح كولن غاضباً : ابله! من ظن اني كذلك؟

فقال بين : كثير من الحمق . العالم مليئ بالحمير الناهقة ، وهي لا تنهق الا بالاكاذيب . لأي شيئ حبست نفسك؟

فاوجز كولن القول : ظن الجميع انني سأموت . ولكنني لن اموت .

قال ذلك بعزم ظاهر فنظر اليه بين ويذر ستاف متفحصاً من اعلى الى اسفل ومن اسفل الى اعلى .

وقال جذلاً : انت تموت! لست من هذا النوع! فيك شجاعة كثيرة . عندما رأيتك تضع قدميك على الارض بسرعة فائقة عرفت انك على ما يرام . اجلس على البطانية قليلاً ، ايها

السيد الصغير ، ووجه اوامرك .

كان في طريقته في الحديث خليط غريب من الحنان المبهم والفهم الداهية . وتدفقت ميري بالكلام باسرع ما تستطيع وهما يسيران في الممشى الطويل . الشيء الرئيس الذي يمكن تذكره انها قالت له ان كولن بدأ يتحسن – اجل يتحسن . والحديقة هي التي تفعل ذلك . ويجب ان يدعه احد يتذكر شيئاً عن الحديقة او الموت .

وتنازل الراجا فجلس على بطانية تحت الشجرة .

وسأل : اي شيء تعمل في الحديقة يا ويذر ستاف .

فاجاب بين العجوز : اي شيء يطلب مني . انني باق حسب اذن – لانها كانت تودني .

فقال كولن : هي؟

اجابه بين ويذر ستاف : امك .

فقال : أمي؟

ونظر حوله بهدوء واكد قوله : هذه هي الحقيقة ، اليس كذلك؟

ونظر بين ويذر ستاف حوله ايظاً وقال : نعم ، كانت حديقتها ! كانت مولعة جداً بها .

فاعلن كولن قائلاً : هي الآن صديقتي . وانا احبها كثيراً . سوف اجيء الى هنا كل يوم . ولكن يجب ان يظل ذلك سراً اوامري ان لا يعرف احد الى هنا . اشتغل ديكون وابنة عمي وجعلوها تعدو الى الحياة . سابعث اليك

احياناً لمساعدتنا – ولكن يجب ان تأتي بحيث لا يراك احد .

وابتسم وجه بين ويذر ستاف ابتسامة هرمة .

وقال : كنت اجيءُ الى هنا ولا يراني احد .

فتعجب كولن قائلاً : ماذا ! متى؟

وحك ذقنه وتلفت حوله وقال : آخر مرة جئت الى هنا قبل حوالي سنتين .

فصاح كولن : ولكن لم يدخلها احد منه عشر سنوات . فليس فيها باب .

فقال بين العجوز بجفاف : انا لست احداً ، ولم ادخل من هذا الباب .اتيت من فوق السور . ولكن الروماتزم اعاقني في السنتين الاخيرتين .

وصاح ديكون : اتيت وقلمت الاشجار قليلاً . لم افهم كيف تم ذلك .

فقال بين ويذر ستاف ببطء : كانت مولعة بها – تحبها ! وكانت شابة رائعة الجمال . قالت لي ذات مرة وهي ضاحكة : بين ، اذا تمرضتُ او رحلت ، فعليك الاعتناء بورودي . وعندها رحلت فعلاً ، صدرت الاوامر ان لا يقترب منها احد . ولكنني اتيت – وقال باصرار – اليها من فوق السور – حتى اعاقني الروماتزم – وكنت بعمل قليل مرة واحدة في السنة . فهي التي اصدرت امرها اولاً .

فقال ديكون : انها لا يمكن ان تكون على ما هي الآن لو لم تقم بذلك .تعجبت من ذلك

وقال كولن : اني مسرور انك عملت فيها ، يا ويذر ستاف . انت تعرف كيف تحافظ على السر؟

فاجاب بين : نعم ، اعرف ذلك ، يا سيدي . وسيكون من الاسهل على رجل مصاب بالروماتزم ان يدخل من الباب .

ووقع المالج من يد ميري على العشب قرب الشجرة فمد كولن يده والتقطه . وطاف تعبير غريب على وجهه وبدأ يخدش الارض . وكانت يده ضعيفة جداً ، لكن عندما نظروا اليه وراقبوه – ميري مبهورة الانفاس من شدة الاهتمام . استطاع ان يدفع طرف المالج في التربة وقلب بعضها .

فقالت ميري : تستطيع ان تعمل! تستطيع ان تعمل! اقول لك تستطيع!

وكانت عينا ديكون المستديرتان مفحمتين باللهفة الى حب الاستطلاع ، ولكنه لم يفه بكلمة . اما ويذر ستاف فقد نظر اليه باهتمام .

وواصل كولن عمله وبعد ان قلب قليلاً من التربة ، تحدث جذلاً الى ديكون .

وقال : انت قلت انك ستمشيني هنا مثل باقي الناس وانت قلت انك ستجعلني احرث الارض . ظننت انك تريد ان ترضيني . ولكن هذا هو اليوم الاول الذي مشيت – وها انذا اقلب التربة .

وفغر بين ويذر ستاف فمه مرة اخرى عندما سمع قوله وقهقه ضاحكاً وقال : اي! يبدو انك بارع في كلامك ، وها انت

تقلب الارض ايضاً ..هل تريد ان تزرع شيئاً؟ استطيع ان احصل لك على وردة في اناء .

فقال كولن منفعلاً من الفرح : هيا اذهب واجلبها . اسرع ! هيا اسرع !

واسرع بين ويذر ستاف وقد مشي الروماتزم . وتناول ديكون رفشة وحفر حفرة اعمق واوسع مما فعل كولن بيديه الناحلتين . وانسلت ميري راكضة لتجلب صفيحة للسقي . وعندما عمق ديكون الحفر استمر كولن يقلب الارض الرخوة مراراً . ونظر الى السماء وتورد وجهه وتوهج بفعل هذا التمرين الجديد ، بالرغم من بساطته .

وقال : اريد ان اكمله قبل ان تغرب الشمس – تغرب تماماً .

واعتقدت ميري ان الشمس قد تريثت قليلاً وهي عامدة وجلب بين ويذر ستاف الوردة في انائها من البيت الزجاجي . وصار يعرج سائراً فوق العشب باسرع ما يستطيع . وانفعل فرحاً ، ايضاً . وجثا على ركبتيه قرب الحفرة وكسر الاناء :

وقال وهو يناول النبتة الى كولن : هاك يا صبي ، ضعها في الارض بنفسك كما يفعل الملك عندما يذهب الى مكان جديد .

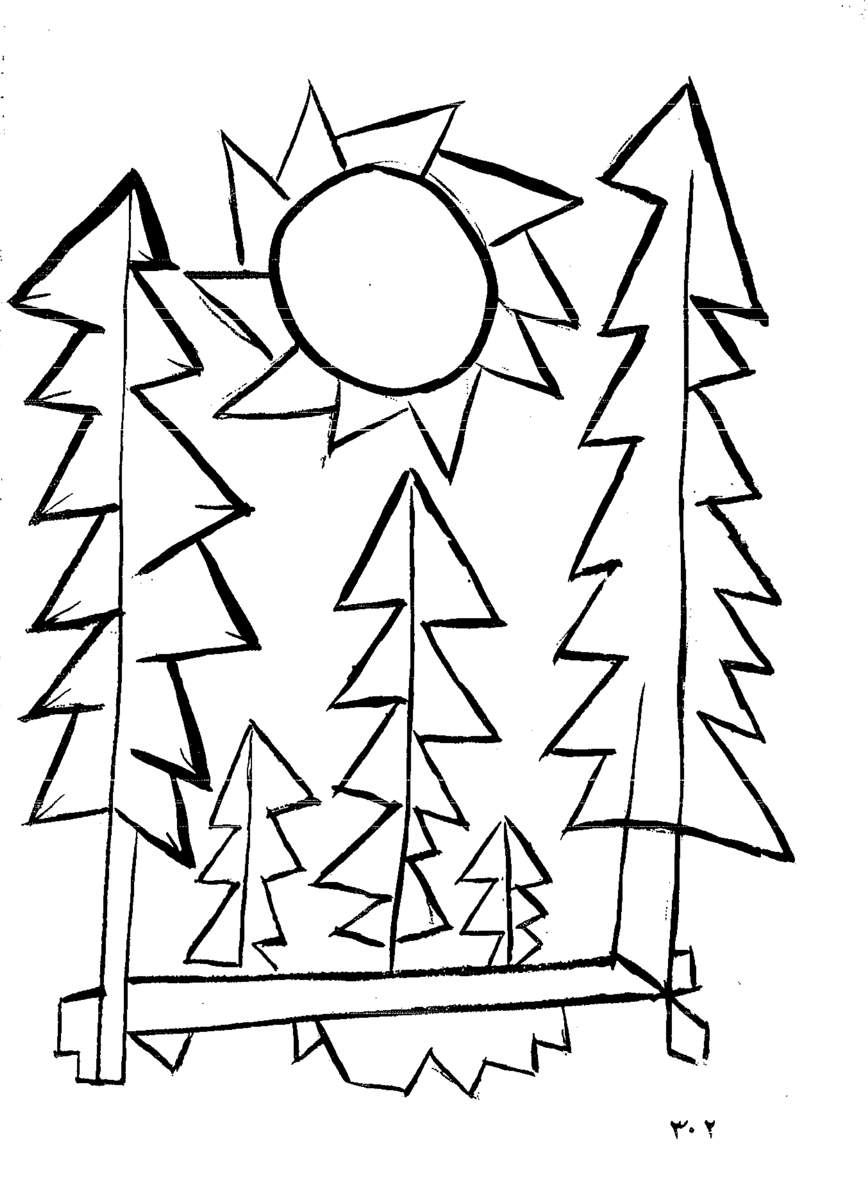
وارتعشت اليدان الناحلتان البيضاوان قليلاً وصار تورده اعمق ووضع النبتة في الحفرة . ومسكها بينما راح بين ويذر ستاف يثبت التربة ويرصها . وامتلأت الحفرة وضغطت وسويت . وكانت ميري مائلة نحو الامام مستندة الى يديها لترى

العمل . وكان السنجابان جوزة ومحارة يثرثران عن ذلك من فوق شجرة كرز .

وقال كولن اخيراً : لقد زرعت : والشمس ما زالت مائلة نحو المغيب . ساعدني يا ديكون لاقف ، اريد ان اكون واقفاً عندما تغرب . هذا جزء من السحر .

وساعده ديكون ، ووهبه السحر – أو أي شيء كان – قوة بحيث عندما غربت الشمس وانتهى ذلك العصر الغريب ، الجميل بالنسبة اليهم ، كان كولن واقفاً فعلاً على قدميه – ضاحكاً .





٢٣ ـ السحر

كان الدكتور كريفن ينتظر في البيت عندما عادوا اليه.

وأخذ في الحقيقة يتساءل فيما اذا لم يكن من الحكمة ارسال أحد ليستطلع أمر ممرات الحديقة. وعندما أعيد كولن الى غرفته تفحصه الرجل المسكين بجد.

وقال: ما كان يجب أن تتأخر كثيراً. يجب أن لاتجهد نفسك.

فقال كولن: لست متعباً أبداً. جعلني ذلك جيداً. وغداً سأخرج في الصباح وفي العصر أيضاً.

أجابه الدكتور كريفن: لست متأكداً أنني سأسمح لك بذلك. يؤسفني أن لايكون في ذلك حكمة.

فقال كولن بلهجة حادة تماماً: ليس من الحكمة أن تحاول منعي. سأخرج.

حتى ميري وجدت أن من أهم الامور الغريبة التي يتميز بها سلوك كولن عدم معرفته بفظاظته في اصدار الاوامر الى الناس

حوله. كان عائشاً في مايشبه الجزيرة المنعزلة طوال حياته ولما كان هو الملك فيها فقد وضع هو لنفسه قواعد سلوكه الخاصة، ولم يكن له أحد يقارن نفسه به. كانت ميري في حقيقة الامر مثله ومنذ أن جاءت الى هذه المنطقة فأنها اكتشفت تدريجاً أن سلوكها لم يكن من النمط الاعتيادي أو الشائع. ولما اكتشفت ذلك، فأنها فكرت بطبيعة الحال في ذلك ملياً من أجل فائدة كولن ومصلحته. فجلست ونظرت اليه بضع دقائق بعد ذهاب الدكتور كريفن. أرادت أن تجعله يسألها لماذا كانت تفعل ذلك، وتوصلت الى ذلك فعلاً.

فقال: لماذا تنظرين الي هكذا؟

فقالت: أني أفكر أني آسفة على الدكتور كريفن؟

فقال كولن بهدوء: وانا كذلك. فهو لن يحصل على مقاطعة ميسيلثوايت ابداً، اذ انني لن أموت قريباً.

فقالت ميري: اني آسفة عليه بسبب ذلك طبعاً. ولكنني كنت أفكر أن من البشاعة أن يتصرف ولد بمثل هذا السلوك الخشن طوال عشر سنوات. أنا لاافعل ذلك أبداً.

وسألها كولن بلا اظطراب: هل أنا فظ؟

فقالت ميري: لو كنت ابنه ولو كان هو من النوع الذي يستعمل الصفع، لصفعك.

فقال كولن: ولكنه لايجرؤ.

فأجابت ميري دونما تجامل: لا، لن يجرؤ. ولم يجرؤ احد على فعل شيئ لاتحبه— لانك كنت على وشك الموت أو شيئ من هذا



القبيل. كنت صبياً مسكيناً.

فقال بعناد: ولكنني لن أكون مسكيناً بعد هذا. ولن ادع الناس يظنون أنني كذلك. فقد وقفت اليوم عصراً على قدمي.

واستمرت ميري وهي تفكر بصوت عال: أن سلوكك بطريقتك الخاصة هو الذي جعلك غريباً بهذا الشكل.

وادار كولن راسه عابساً.

وسألها: أأنا غريب؟

فقالت: نعم. جداً. ولكن لاحاجة أن تغتاظ– وأضافت من غير تحيز– لانني أنا أيضا غريبة الاطوار، وكذلك بين ويدرستاف . ولكنني الآن لست غريبة الاطوار كما كنت قبل أن أحب الناس وقبل أن أجد الحديقة.

فقال كولن: أنا لا اريد أن أكون غريب الاطوار. ولن أكون. وعبس مرة أخرى بشيء من التصميم.

كان ولداً متعجرفاً جداً. واستلقى قليلاً وهو يفكر، ثم رأت ميري بسمته الجميلة تبدأ تدريجياً وتتغير ملامح وجهه كلها.

وقال: سأكف عن كوني غريباً، اذا ماذهبت كل يوم الى الحديقة. فيها سحر– سحر خلاب، كما تعرفين ياميري، أني متأكدة من وجوده.

فقالت ميري: وأنا كذلك.

وقال كولن: وحتى اذا لم يكن كذلك سحراً حقيقياً، فاننا يمكن أن نتظاهر أنه كذلك. ثمة شيء– شيء!

فقالت ميري: أنه السحر ولكنه ليس ألسحر الاسود أنه

ابيض كالثلج.

كانا يطلقان عليه دائماً اسم السحر، في الحقيقة أنه كذلك في الاشهر التي تلك ذلك– الاشهر الرائعة– الاشهر الباهر– المذهلة أوه! الاشياء التي حدثت في تلك الحديقة! اذا كنت لاتمتلك حديقة، فانك لاتستطيع أن تفهم، واذا كنت تمتلك حديقة، فستعرف أن وصف كل ماحدث يستغرق كتاباً كاملاً بدا في أول الامر أن الاشياء الخضر لن تكف عن شق طريقها بين طيات التربة، وفي العشب، وفي الواح الورود، وحتى في شقوق الجدران. ثم أخذت الاشياء الخضر تظهر عليها براعم وبدأت البراعم تتفتح وتظهر الوانها، فيها كل درجات الزرقة والارجوانية – وكل تدرجات وظلال اللون القرمزي. وثبتت الزهور في كل مكان وحفرة وزاوية. ويسر بين ويذرستاف الامر للنباتات الجميلة أن تتسلق. وخرج السوسن والزنبق الابيض من بين الاعشاب في شكل حزم، وامتلأت المختليات الخضر بحشود مذهلة من زهور زرق وبيض، كالدلفينيوم والكولومباين والجريسات الزهرية.

وقال بين ويذرستاف: كانت مغرمة بها بصورة خاصة– نعم كانت. كانت تحب الاشياء المتجهة دائماً نحو السماء، كما تقول. كانت تحبها لان السماء كانت تبدو دائماً بهيجة في زرقتها.

ونمت البذور التي زرعها ديكون وميري كأن الجنيات اولتها رعايتها بالعشرات، هذه الزهور التي تحدت الزمن بكل بهجة وعاشت في الحديقة سنوات، وكأنها الآن تتساءل كيف وصل

هؤلاء الناس الجدد الى هنا. والورود- الورود! التي برزت من بين الاعشاب وتشابكت حول المزولة (الساعة الشمسية)، وكللت جذوع الشجر، وتدلت من غصونها، وتسلقت الجدران وانتشرت فوقها باكاليل زهورها المنحدرة كالشلالات- تعود الى الحياة يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة. أوراق طرية وبراعم ندية- براعم صغيرة في بداية امرها ولكنها تكبر وتنفتح وتعمل السحر حتى تتفتح في شكل كؤوس من عطر ينسكب مترفاً، على حوافها، فيتنوع به هواء الحديقة.

رأى كولن كل ذلك، وكان يراقب كل تغير يحصل. وكان يجلب كل صباح. وكان يمضي كل ساعة من ساعات النهار في الحديقة اذا لم تكن ماطرة حتى الايام الغائمة ابهجته. يتمدد على العشب ويراقب الاشياء تنمو، كما يقول. واذا راقبت، حسب رأيه، استطعت أن ترى البراعم تتفتح عن نفسها.

وتستطيع أيضاً أن تعقد معرفة بحشرات غريبة نشيطة تجري لمهمات مختلفة مجهولة، غير أنها جادة، وتحمل أحياناً قطعاً صغيرة من قش أو ريشة أو طعام، أو تتسلق أوراق العشب كأنها اشجار يمكن أن يطل المرء من فوقها ليستطلع الريف.

خلد يحفر التراب عند طرف نفقه ويشق طريقه في نهاية الامر بمخالبه الطويلة ، كأنها ايدي شخص خبيث، وسائل النمل والخنافس والنحل والضفادع والطيور والنباتات وضعت أمامه عالماً جديداً ليستكشفه، وعندما كشف ديكون كل تلك الوسائل وأضاف اليها وسائل الثعالب، والقنادس ونبات مقرض

والسناجيب والسمك، وجرذان الماء والغريرات، ولا نهاية للاشياء التي يتطلب الحديث أو التفكير بها.

ولم يكن ذلك ليبلغ نصف السحر. أن وقوف كولن على قدميه هو الذي جعله يفكر بنشاط، وعندما سألته ميري عن الرقية التي عملتها، فرح كثيراً واستحسنها بنبل. وتحدث عنها باستمرار.

وقال ذات يوم قولاً حكيماً: لابد، بطبيعة الحال، من وجود كثير من السحر في هذا العالم، ولكن الناس لايعرفون ماهو ولاكيف يصنعونه. لعل البداية هي القول أن أشياء لطيفة ستحدث حتى تجعلها تحدث فعلاً. أنني أحاول القيام بتجربة.

وفي صباح اليوم التالي عندما ذهبوا الى الحديقة السرية أرسل في الحال في طلب بين ويذرستاف، فجاء بين بأسرع مايستطيع. ووجد الراجا واقفاً على قدميه تحت شجرة وتبدو عليه المهابة. ولكنه يبتسم بشكل جميل للغاية.

وقال: صباح الخير يابين ويذر ستاف، أريدك أنت وديكون والآنسة ميري أن تقفوا صفاً واحداً وتستمعوا الي لانني ساخبركم بشيئ مهم جداً.

فاجاب بين ويذرستاف وهو يمس جبينه: اي، نعم ياسيدي! كان من الأمور الفاتنة التي أخفاها بين ويذرستاف طويلاً أنه في صباه هرب مرة الى البحر وقام برحلات فيه. لذلك فهو يستطيع الاجابة مثل بحار اصيل)

واوضح الراجا رأيه قائلاً: ساقوم بتجربة علمية. عندما

أكبر ساقوم باكتشافات علمية عظيمة وسوف أبدأ الآن بهذه التجربة.

فقال بين ويذرستاف على الفور بالرغم من أنه يسمع بالاكتشافات العلمية اول مرة: اي، نعم، سيدي!

وكانت ميري تسمع بها أول مرة أيضاً. ولكنها حتى في هذه المرحلة بدأت تلاحظ أنه كولن بالرغم من غرابة أطواره قد قرأ أشياء كثيرة جداً وكان مقنعاً في ارائه نوعاً ما. وعندما يرفع راسه ويثبت عينيه فيك، فانك تصدقه وتثق به بالرغم منك، مع أنه كان في العاشرة من عمره– وسيدخل الحادية عشرة. وكان في هذه اللحظة مقنعاً بصورة خاصة لانه شعر فجأة بفتنة القاء خطبته كما يفعل الكبار.

وواصل قوله: إنَّ الاكتشافات العلمية العظيمة التي ساقوم بها ستكون عن السحر. السحر شيئ عظيم، ولكن قلما يعرف أحد عنه شيئاً الا قلة من الناس في الكتب القديمة– وتعرف ميري قليلاً لانها ولدت في الهند، حيث يكثر الفقراء. وأعتقد أن ديكون يعرف شيئاً من السحر، ولكنه قد لايعرف أنه يعرف ذلك. فهو يسحر الحيوانات والناس. فلم اوافق على مجيئه لرؤيتي لو لم يكن ساحر حيوانات– وساحر صبيان أيضاً وأني لمتأكد من وجود السحر في كل شيئ، غير أننا لانمتلك الاحساس للقبض عليه وجعله يعمل مانريد من أشياء– مثل الكهرباء والخيل و البخار.

وبدا كلامه مؤثراً مهيباً فأنفعل بين ويذرستاف تماماً ولم

ينستطع الوقوف ساكناً.

وقال: اي، نعم، ياسيدي

ثم راح ينتصب بقامته بشكل مستقيم.

وواصل الخطيب كلامه: عندما وجدت ميري هذه الحديقة كانت تبدو ميتة تماماً. ثم راح شيئ يدفع النباتات من التربة ويصنع أشياء من لاشي. في يوم من الايام لم تكن أشياء موجودة وفي يوم آخر صارت موجودة. لم أرقب الاشياء من قبل قط، وجعلني هذا محباً للاستطلاع. رجال العلم يحبون الاستطلاع دائماً، وسأكون من العلماء. وسأظل أقول لنفسي: ماهذا؟» أنه شيئ ما. لايمكن أن يكون شيئاً بلا معنى! أنا لااعرف اسمه، كذلك أدعوه سحراً. أنا لم ار الشمس تشرق قط، ولكن ميري وديكون شاهداها ومما قالاه لي أستطيع أن أوكد أنه السحر أيضاً.

شيئ ما يدفعها الى الاعلى ويسحبها. ومنذ أن ذهبت الى الحديقة نظرت الى الاعلى من بين الاشجار نحو السماء وشعرت شعوراً غريباً بالسعادة كأن شيئاً كان يندفع وينسحب في صدري ويجعلني أتنفس بسرعة. السحر دائماً يدفع ويسحب ويصنع الاشياء من لاشيئ. كل شيئ مصنوع من السحر، الاوراق والاشجار والزهور والطيور والغريرات والثعالب والسناجب والناس. فلابد أن يكون حولنا. في هذه الحديقة- وفي كل مكان. جعلني السحر في هذه الحديقة أقف وأعرف أنني سأعيش لأكون رجلاً. وسوف أقوم بتجربة أحاول فيها الحصول على

بعض منه واضعه في نفسي وأجعله يدفعني ويسحبني ويجعلني أقوى. ولكني لا اعرف كيف أعمل ذلك، أظن أنك يجب أن تواصل التفكير به ودعوته اليك ولعله سيأتي. لعل تلك هي المسألة الاولية للحصول عليه. عندما كنت أحاول الوقوف أول مرة، ظلت ميري تقول لنفسها باسرع ماتستطيع: أنت تستطيع القيام بذلك! واستطعت فعلاً. وكان علي أن أحاول في الوقت نفسه، طبعاً، ولكن سحرها هو الذي ساعدني، وكذلك سحر ديكون. وسوف اظل اردد كل صباح ومساء وكل نهار كلما تذكرت ذلك هذا القول: السحر في نفسي! السحر يجعلني أحسن حالاً! سأكون قوياً مثل ديكون، قوياً مثل ديكون! وعليكم جميعاً أن تفعلوا ذلك أيضاً. هذه تجربتي. فهل تساعدنا يابين ويذرستاف؟

فقال بين: اي، نعم، سيدي! أي، نعم!

وواصل كولن كلامه! اذا استمررت تفعل ذلك كل يوم بانتظام كما يفعل الجنود عند تأدية تمرين من التمارين، فأننا سنرى ماذا سيحدث ونعرف اذا نجحت التجربة أم لا. أنت تتعلم الاشياء باعادتها مرات عديدة والتفكير بها مرات عديدة حتى تستقر في ذهنك الى الابد، وأعتقد الامر نفسه فيما يخص السحر. فاذا واصلت دعوته الى المجيئ اليك ومساعدتك، فأنه سيصل اليك ويفعل الاشياء التي تريد.

فقالت ميري: سمعت ذات مرة ضابطاً في الهند يخبر أمي عن فقراء يرددون كلمات الاف المرات.

وقال بين ويدرستاف: وأنا سمعت زوجة جيم فيتلورث تقول الشيء نفسه آلاف المرات– تدعو جيم وحشاً سكران ينتج عن ذلك دوماً شيء بلا ريب. كان يضربها بالسوط ويذهب الى حانة الاسد الازرق ليشرب مثل أمير.

وقطب كولن حاجبيه وفكر قليلاً، ثم قال مسروراً:
–حسناً، أنت ترى أن شيئاً قد نتج عن ذلك. فهي استعملت السحر المغلوط حتى جعلته يضربها. ولو أنها استعملت السحر الصحيح وقالت شيئاً لطيفاً، فلعله يكف عن الشرب ويجلب لها قبعة جديدة.

وقهقهه بين ويدرستاف وبان استحسان ذلك الرأي في عينيه الهرمتين.

وقال: أنت ولد ذكي مثلما أنت ولد سليم الجسم، يامستر كولن. عندما أرى بيس فيتلورث في المرة القادمة سوف أعلمها ماذا يفعل السحر لها. سوف تفرح كثيراً اذا نجحت التجربة العلمية– وكذلك جيم.

وقف ديكون مصغياً الى المحاضرة وعيناه المدورتان تشرقان بالبهجة وحب الاستطلاع. وكان السنجابان على كتفيه، وكان يحمل أرنباً أبيض طويل الاذنين على ذراعه ويمسده بلطف وهو نائم وقد مد أذنيه على ظهره مستمتعاً بذلك.

وسأله كولن ذلك وهو يتساءل في نفسه بماذا كان يفكر ديكون ويتساءل دائماً بماذا كان يفكر عندما رآه ينظر اليه أو الى أحد حيواناته مبتسماً سعيداً

وابتسم الآن وكانت ابتسامته أوسع من ذي قبل.

واجابه: نعم، أعتقد ذلك. ستنجح مثل البذور التي تشرق الشمس عليها. ستنجح بالتأكيد. هل نبدأ الان؟

ففرح كولن وكذلك ميري. واقترح كولن، وقد تذكر صور الفقراء والمتدينين، أن يجلسوا جميعاً متربعين تحت الشجرة التي كانت كالخيمة.

وقال كولن: سنكون كأننا جالسين في معبد. أنا متعب واريد أن اجلس.

فقال ديكون: أي! يجب أن لاتبدأ العمل بقولك انني متعب، فلعلك تفسد السحر.

فالتفت كولن ونظر اليه- في عينيه المدورتين البريئتين.

وقال ببطء: هذا صحيح. يجب أن أفكر في السحر فقط.

وبدا الامر مهيباً خليلاً وهم جالسون في تلك الحلقة. وشعر بين ويذرستاف كأن ذلك نوع من الصلاة. وشعرت ميري بجذل غامر. ومسك ديكون أرنبه في ذراعه ولعله قام ببعض الاشارات السحرية لم يرها أو يسمعها أحد لانه عندما جلس متربعاً مثل الاخرين اقترب الغراب والثعلب والسنجابان والحمل وانضموا الى الحفلة، وقد استقر كل واحد منهم في مكان يرتاح فيه كأنهم فعلوا ذلك برغبتهم.

فقال كولن بو قار: جاءت الحيوانات وهي تريد أن تساعدنا. وفكرت ميري أن كولن يبدو جميلاً حقاً. ورفع رأسه عالياً، وقد كان في عينيه نظرة رائعة، وأشرق النور عليه خلال

الشجرة الخيمة.

وقال: سنبدأ الآن. هل نحني أجسامنا الى الامام والى الخلف،ياميري، كما يفعل الدراويش.

فقال بين: أنا لااستطيع أن أهتز الى الامام والى الخلف. عندي روماتزم.

فقال كولن بلهجة متعالية: سوف يزيله السحر. ولن نبقى طويلاً بل سننشد.

وقال بين ويدرستاف: أنا لااستطيع أن أنشد. أخرجوني من كورس جوقة الكنيسة في المرة الوحيدة التي شاركت فيها.

ولم يبتسم أحد. كان الجميع جادين. ولم يفكر كولن بأي شيء آخر غير تجربته.

وقال: اذن أنا سأنشد.

ثم بدأ يقول: الشمس مشرقة- الشمس مشرقة هذا هو السحر. الزهور نامية- والجذور متحركة. هذا سحر. الحياة سحر- القوة سحر. السحر في جسمي- السحر في جسمي- هو في جسمي. هو في كل واحد منا. وهو في ظهر بين ويدرستاف. أيها السحر أيها السحر! تعال وساعدنا!

ردد ذلك مرات عديدة لاتصل الف مرة ولكن عدداً كثيراً من المرات. واستمعت ميري وهي مسلوبة اللب. وشعرت كأن الامر غريب وجميل في الوقت ذاته وأرادته أن يواصل نشيده. وبدأ بين ويدرستاف يشعر بالراحة وكأنه في حلم وهذا شيء جميل. واختلط طنين النحل على الزهور بانغام النشيد، وذاب

كل شيءٌ في مايشبه النعاس. وجلس ديكون متربعاً والارنب نائم في ذراعه، ويده الأخرى على ظهر الحمل.

ورقد الغراب قريباً من سنجاب على كتفه، وقد أسدل الغشاء الشفاف على عينيه، ثم توقف كولن أخيراً.

وأعلن قائلاً: سأمشي حول الحديقة.

وكان رأس بين ويذرستاف قد مال على صدره ورفعه بحركة مفاجئة سريعة.

وقال كولن: كنت نائماً.

وغمغم بين: ليس من ذلك النوع. كانت الخطبة جيدة ولكن عليّ ان استيقظ قبل الجماعة.

لم يكن قد استيقظ بعد.

فقال كولن: أنت لست في كنيسة.

واجاب بين وهو يعدل نفسه: لم أكن. من قال اني كنت هناك؟ سمعت كل شيءٌ منها. أنت قلت أن السحر في ظهري. الطبيب يدعوه الورماتزم.

ولوح الراجا بيده.

وقال: ذلك هو السحر الباطل. سوف تتحسن. اسمح لك أن تذهب الى عملك ولكن عد غداً.

فقال بين: أود أن أراك تمشي في الحديقة.

وكان قوله ودوداً ولكنه يشبه الزمجرة. وبما أنه رجل عجوز عنيد لايؤمن بالسحر اطلاقاً فقد قرر رأيه انه اذا خرج منهم، فانه سيتسلق السلم ويتطلع من فوق السور ويعود اليهم يضلع

ولم يمانع الراجا في بقائه وتشكل الموكب. كان في الحقيقة يشبه الموكب. وكان كولن على راسه وديكون على جانب وميري على جانب آخر. وسار خلفهم بين ويذرستاف وتبعتهم «المخلوقات» الحمل والثعلب يسيران قريباً من ديكون، والارنب يقفز في سيره أو يتوقف ليقضم شيئاً برفق، ويتبعهم الغراب بوقار شخص يشعر بنفسه مسؤولاً.

تحرك الموكب ببطء ولكن بمهابة، ويتوقف كل بضع خطوات ليرتاح. واستند كولن الى ذراع ديكون. وكان بين ويذرستاف يتطلع حذراً وهو يراقب، وكان كولن ينزل يده عن مسنده ويمشي بضع خطوات وحده، وراسه مرفوع طوال الوقت ويبدو جليلاً في مشيته.

وظل يردد: السحر في نفسي! السحر يجعلني أقوى! أستطيع أن أشعر بذلك! أستطيع أن أشعر بذلك.

وبدا كأن شيئاً كان يدعمه ويرفعه. وجلس على المقاعد في المختليات وجلس مرة أو مرتين على العشب وتوقف مرات عديدة في الطريق ومال الى ديكون ولكنه لم يستسلم حتى سار حول الحديقة كلها. وعندما عاد الى الشجرة الخيمة كان خداه متوردين ويشعر بالانتصار.

وصاح قائلا: فعلتها! لقد نجح السحر. هذا أول اكتشاف علمي لي.

فهتفت ميري قائلة: وماذا سيقول دكتور كريفن.

فاجاب كولن قائلاً: لن يقول شيئاً لاننا لن نخبره. سيبقى هذا

سراً عظيماً. ولن يعرف أحد عن ذلك شيئاً حتى أصبح قوياً فأستطيع أن أمشي مثل الاولاد الآخرين. سوف اجيءُ الى هنا كل يوم في كرسي وسوف أعود فيه. ولن اسمح للناس أن يتهامسوا ويتساءلوا ولن ادع أبي يسمع عن ذلك حتى تنجح التجربة تماماً. ثم عندما يعود الى البيت سأذهب اليه ماشياً وادخل مكتبه واقول: هاانذا: أني مثل اي ولد آخر. أني معافى وسوف أعيش لاصبح رجلاً. لقد تم هذا بفعل تجربة علمية.

فصاحت ميري: سيظن أنه في حلم، ولن يصدق عينيه.

وتورد كولن فرحاً بنصره، فقد جعل نفسه يعتقد أنه سوف يتحسن، وهذا في الحقيقة أكثر من نصف المعركة، لو كان في الحقيقة عارفاً. وكانت الفكرة التي تحثه أكثر من غيرها هي تصوره كيف سيكون حال أبيه عندما يرى أن ابنه صحيح الجسم مثل أولاد الاباء الآخرين. وكان من أشد حالات بؤسه في أيام مرضه الماضية هو كرهه أن يكون ولداً سقيماً ضعيف الظهر يخشى أبوه أن ينظر اليه.

فقال: سيظطر على تصديق ذلك. من الاشياء التي ساقوم بها بعد أن ينجح السحر وقبل أن أقوم بتجاربي العلمية هو أن أكون رياضياً.

فقال بين ويذرستاف: سنعلمك الملاكمة في أسبوع أو أسبوعين وسوف ينتهي الامر بفوزك بالحزام وتصبح من الابطال في البلاد.

فيركز كولن عينيه عليه بصرامة.

وقال له: لاتتماد في خيالك يا ويذرستاف. مهما نجح السحر فاني لن أكون لاعباً من أجل البطولة. ساكون مكتشفاً علمياً.

فاجاب بين وهو يلمس جبينه في تحية: عفواً - عفواً، سيدي. أنا لم أكن مازحاً في قولي.

وتلألأت عيناه وفرح في سره ولم يأبه لتوبيخه لان هذا التوبيخ كان يعني أن الصبي قد بدأ يقوى ويتشجع





٢٤ - دعيهما يضحكا

لم تكن الحديقة السرية المكان الوحيد الذي يعمل فيه ديكون . فقد كانت حول الكوخ ، في المروج ، قطعة ارض محاطة بحائط واطيء من الصخور . كان ديكون يعمل فيها في الصباح الباكر وعند الاصيل ، في جميع الايام التي لم يره فيها كولن وميري ، يزرع او يهتم بالبطاطة او اللهانة واللفت والجزر واعشاب الطبخ لامه . كان يفعل الاعاجيب بصحبة «مخلوقاته» هناك ولم يكن يتعب قط من العمل ، كما يبدو . عندما كان يقلب التربة او يزيل الادغال ، كان يصفر او يغني اغاني اهل المروج او يتكلم الى «اسحم» او «كابتن» او اخواته او اخوانه الذين علمهم ان يساعدوه .

وتقول السيدة ساور باي : لو لا حديقة ديكون لما كنا في بحبوحة . كل شيء ينمو بيديه ، البطاطة واللهانة ضعف حجم ما لدى الآخرين ولها نكهة ليست كما لديهم .

وعندما كانت تجد متسعاً قليلاً من الوقت كانت تخرج للحديث معه . بعد العشاء كانت فترة الاصيل طويلة مضيئة يمكن انجاز العمل فيها ، وكانت تلك هي فترة الهدوء والراحة لها . كانت تجلس على الحائط الواطئ وتتفرج او تستمع الى قصص النهار . كانت تحب ذلك الوقت ، لم يكن في الحديقة خضراوات وحدها ، فقد جلب ديكون اكياساً صغيرة من بذور الزهور بين حين وآخر ويزرع اشياء جميلة طيبة الرائحة بين شجيرات عنب الثعلب وحتى اللهانة . ويزرع حواجز من نباتات البليحاء العطرية والقرنفل وزهرة الثالوث البنفسجية واشياء اخرى يمكن الاحتفاظ ببذورها سنة بعد اخرى وينثرها في حينها ، او ان جذورها تنتشر وتخرج في وقتها المناسب في شكل مجموعات . كان الحائط الواطئ من اجمل الاشياء في يوركشير لانه كان يزرع في كل الشقوق قفاز الثعلب الارجواني والسرخس ورشاد الصخور وزهور الاسيجة حتى لايرى الحائط الا في اماكن متفرقة .

ويقول : كل ما على المرء عمله لكي يجعلها تنمو وتزدهر يا أمي هو ان يكون صديقاً صادقاً لها . انها مثل الحيوانات تماماً . اذا عطشت سقاها واذا جاعت اطعمها قليلاً . انها تريد ان تعيش مثلنا . اذا ماتت شعرت كأنني ولد سيئ عاملها بلا رأفة .

في ساعات الاصيل تلك كانت السيدة ساور باي تستمع الى كل ماحدث في قصر ميسيلثوايت . اول ما اخبرها عن السيد كولن ورغبته في الخروج الى الحدائق مع الآنسة ميري وانه تحسن



بفعل ذلك . واتفق الطفلان معاً بعد وقت قصير ان تأتي ام ديكون الى الحديقة السرية . فلم يشكا مطلقاً بأمانتها .

وفي مساء هادئ جميل قص ديكون القصة كاملة بكل تفاصيلها المثيرة من المفتاح المدفون وابي الحناء والستارة النباتية التي بدت ميتة حتى السر الذي قررت ميري الا تكشفه مجيئ ديكون وكيف اخبر بالسر وشكوك كولن والمسألة الختامية في دخوله فيها وما صاحبها من حادثة استراق بين ويذر ستاف النظر اليهم من فوق السور وغضبه على ميري ، وقوة كولن التي انبعثت بفعل سخطه عليه ، كل تلك التفاصيل كانت تجعل وجه السيدة ساور باي الجميل يتغير لونه مرات عديدة .

وقالت : يا الهي ! من محاسن الامور ان تأتي هذه الصبية الصغيرة الى القصر الكبير . فقد تبدلت هي نفسها وانقذته ، وجعلته يقف على قدميه ! كلنا كان يعتقد انه كان مسكيناً ، متخلفاً ، ليس فيه عظم مستقيم .

وكانت تسأله اسئلة كثيرة جداً وكانت عيناها الزرقاوان مليئتين بالتفكير العميق .

فسألته مثلاً : وماذا فعلوا في القصر – عندما تحسنت صحته وصار مرحاً لايشكو شيئاً ابداً ؟

اجابها ديكون : لم يكونوا يعرفون سبب ذلك . كل يوم يأتي كان وجهه يبدو متخلفاً . فصار ممتلئاً ولم يبد ضعيفاً وزال لون الشمع منه ، ولكن كان عليه ان يشكو قليلاً .

فسألته امه : ولماذا بالله عليك ؟

وقهقه ديكون وقال : يفعل ذلك لكي يبعدهم عن معرفة ما يحصل . فاذا عرف الدكتور انه يستطيع ان يقف على رجليه ، سيكتب الى السيد كريفن . ولكن كولن يريد الاحتفاظ بالسر ليخبره بنفسه . هو يريد ممارسة السحر على ساقيه كل يوم حتى يعود ابوه فيذهب اليه ماشياً ويدخل غرفته ويريه انه سليم مثل الاولاد الآخرين . واتفق هو وميري على ان خير خطة لذلك هي ان يئن قليلاً ويبدي شيئاً من المشاكسة بين حين وآخر ليبعد الظنون .

وكانت السيدة ساور باي تضحك ضحكة رقيقة مرتاحة قبل ان ينتهي من جملته .

وتقول : هذان الاثنان يمتعان نفسيهما . وهذه تمثيلية جيدة ولا احب للاطفال من التمثيليات . دعنا نسمع ماذا يفعلان ياولدي ديكون .

ويتوقف ديكون عن التعشيب ويجلس القرفصاء ليحدثها . وعيناه تتلألآن فرحاً ومسرة .

ويقول موضحاً : يحمل السيد كولن من الطابق الاعلى وينزل الى كرسيه كلما يريد الخروج . ويعنف جون الخادم لانه لم يهتم بحمله جيداً . ويجعل نفسه يبدو عاجزاً ولايرفع رأسه حتى نبتعد عن انظار البيت ، ويزمجر ويصخب مشاكساً عندما يوضع في الكرسي . ويستمتع هو وميري بذلك وعندما يتذمر ويشكو تقول له : مسكين كولن ! هل تتأذى كثيراً ؟ هل انت ضعيف بهذه الد رجة ، مسكين يا كولن ؟ – ولكن المشكلة

انهما احياناً لايستطيعان كتمان ضحكهما من الانفجار . واذا ما دخلنا الحديقة بامان فانهما يضحكان حتى تتقطعان انفاسهما فلا يعودان قادرين على الضحك . ويضعان وجهيهما في وسائد كولن لكي لايسمع البستانيون ، خشية ان يكون بعضهم قريباً .

فتقول السيدة ساور باي وهي ماتزال ضاحكة : كلما ضحكوا كان ذلك خيراً لهم . الضحك للطفل المعافى افضل من الدواء دائماً . سوف يسمن هذان الصغيران بكل تأكيد .

فقال ديكون : انهما يسمنان ، انهما يشعران دائماً بالجوع ولايعرفان كيف الحصول على طعام كاف دون اثارة حديث . يقول كولن انه اذا ظل يرسل في طلب الطعام فلن يصدقوا انه مريض ابداً . تقول الآنسة ميري انه ستدعه يأكل حصتها ، ولكنه يقول انها اذا ظلت جائعة فانها سوف تضعف ، ولكن يجب ان يصبح الاثنان سمينين في وقت واحد .

وضحكت السيدة ساور باي من صميم قلبها على البوح بهذه الصعوبة حتى اخذ جسمها يهتز في معطفها الازرق الفضفاض وضحك ديكون معها .

وقالت السيدة ساور باي عندما استطاعت الكلام : اقول لك شيئاً ياولدي ، لقد فكرت في طريقة لمساعدتهما . فاذا ذهبت في الصباح اليها ، خذ معك دلواً من حليب جيد جديد وسوف اخبز لهما خبزاً محمصاً او كعكاً محلى فيه كشمش مثل الذي تحبونه انتم . لاشيءَ اجود من الحليب الطازج والخبز .

ويستطيعان بذلك ان يكسرا طوق جوعهما وهما في الحديقة ، وان يستمتعا بلين الطعام عندما يعودان الى البيت .

فقال ديكون معجباً : اي ، اماه ! ماااروعك ! انك تجدين دائماً حلاً للامور المشكلة . كانا امس في حالة من القلق ، ولم يعرفا كيف يدبران الامر دونما طلب مزيد من الطعام – كانا يشعران بخواء الجوف .

فقالت السيدة ساور باي : انهما صغيران يكبران بسرعة وقد عادت الصحة لهما كليهما . الاطفال الذين مثلهم يشعرون كأنهم صغار ذئاب جائعة .

ثم ابتسمت لديكون واكملت قولها : اي ! ولكنهما يستمتعان بوقتهما بلا ريب .

كانت الام المطمئنة الرائعة على صواب – ولم تكن اكثر صواباً في حديثها أن في تمثيلهم سيجدون متعتهم . وقد وجد كولن وميري في ذلك اروع مصادر التسلية . وقد اتتهما فكرة حماية نفسيهما من الشك المحيط بهما بصورة غير شعورية من المربية المحتارة اولاً ومن دكتور كريفن نفسه ثانياً .

فقد قالت المربية لها ذات يوم : شهيتك تحسنت كثيراً يامستر كولن . لم تكن تأكل شيئاً ، وكان كثير من الاشياء لايلائم صحتك .

فاجاب كولن : لاشيء اليوم يؤذيني .

ولما رأى المربية تنظر اليه نظرة غريبة كلها حب استطلاع تذكر بلهفة : لعل من الافضل ان لايظهر بصحة جيدة جداً في

هذا الوقت .

فاستدرك قائلاً : ان الاشياء لاتؤذيني في غالب الاحيان ، في الاقل . وهذا بفعل الهواء الطلق .

فقالت الممرضة وهي ماتزال تنظر اليه كالمأخوذة : لعل ذلك صحيح ، ولكن يجب ان احدث الدكتور كريفن بذلك .

وقالت ميري عندما ذهبت : ارأيت كيف نظرت اليك ! كأنها تظن ان شيئاً لابد من معرفة اسبابه .

فقال كولن : انا لن ادعها تعرف شيئاً يجب الا يعرف احد عني شيئاً .

وعندما كان الدكتور كريفن في الصباح كان يبدو محتاراً ، ايضاً وسأل عدداً من الاسئلة ، مما اثار غضب كولن

فتحدث اليه قائلاً : انت تبقى في الحديقة طويلاً . اين تذهب ؟

فاجاب كولن متعالياً دون اكتراث بفكرته : لن ادع احداً يعرف اين اذهب . انا اذهب الى مكان احبه . وقد اصدرت اوامري ان يبتعد ان يبتعد الجميع عن طريقي . ولا أريد احداً ان ينظر اليّ ويحدق فيّ . وانت تعرف ذلك!

فرد عليه الدكتور قائلاً : يبدو انك تبقى خارجاً طوال النهار ولا أظن ان ذلك قد اضرك – لااظن ذلك . تقول المربية انك تأكل اكثر من ذي قبل .

فاجاب كولن وقد اوحت بذلك فكرة مفاجئة : لعل ، لعلها شهية غير اعتيادية .

فقال الدكتور كريفن : لااظن ذلك ، ما دام طعامك يفيدك . اخذ لحمك يزداد ولونك يتحسن .

فقال كولن وقد تظاهر بالاكتئاب : لعل – لعل هذا انتفاخ وحمى . الناس الذين لن يعيشوا هم ، في الغالب – يختلفون .

فهز الدكتور كريفن رأسه وقد مسك رسغ كولن ورفع ردنه وتحسس ذراعه .

وقال مفكراً : لست مصاباً بالحمى ، وهذا اللحم الذي حصلت عليه دليل عافية . اذا استطعنا ان نحافظ على هذا ياولدي فلا حاجة بنا للحديث عن الموت . سيكون ابوك سعيداً جداً بسماع هذا التطور العجيب .

فانفجر كولن محتداً : لااريد ان يخبره احد . سيصيبه ذلك بالخيبة اذا ماتدهورت مرة اخرى – ولعلي اتدهور هذه الليلة بالذات . ولعلي اصاب بحمى شديدة . اشعر كأنني سأصاب بالحمى الآن . لااريد ان نكتب رسائل الى ابي – لااريد – لااريد ! انت تغضبني وانت تعلم ان هذا مضر بي . اشعر بارتفاع الحرارة الآن . انا اكره ان يكتبوا عني وان يتحدثوا عني كما اكره من يحدق بي !

فقال له دكتور كريفن ملاطفاً ، مهدئاً : اهدأ ياولدي ! لن يكتب شيئ الا باذن منك . انت حساس لهذه الاشياء . عليك الا تفسد الخير الذي تم عمله .

ولم يتحدث عن الكتابة الى ابيه بشيئ اخر ، وعندما رأى الممرضة حذرها بصورة شخصية الا يذكر شيئ من هذا القبيل للمريض .

فقال : الولد تحسن بشكل خارق . ويبدو ان تحسنه شيء غير اعتيادي . ولكنه ، بطبيعة الحال يفعل ذلك بمحض ارادته وهو ما لم نستطع اجباره عليه قبلاً . ومع ذلك ، فانه سريع التأثّر ويجب الا يقال شيءُ يثيره .

ارتعبت ميري وكولن كثيراً وتحدثا معا بلهفة ومن هذا الوقت بدأت خطتهما في «اداء التمثيلية» .

قال كولن آسفاً : لعلي ساضطر الى التظاهر بالنوبة العصبية . ولكنني لااريدها واشعر انني لست في حالة بائسة جداً لكي اقوم بنوبة عصبية كبيرة . ولعلي لا استطيع ان افعل واحدة ابداً . فذلك الاختناق لم يعد الآن يأتي في حنجرتي ، واني اظل افكر الآن باشياء جميلة بدلاً من الاشياء المرعبة . ولكنهم اذا ما تحدثوا عن الكتابة الى ابي فانني سأضطر الى القيام بشيء .

وقرر ان يأكل أقل ، ولكن لسوء الحظ لم يكن من الممكن تنفيذ هذه الفكرة البارعة عندما كان يستيقظ صباح كل يوم بشهية مذهلة وقد غصت المائدة القريبة من اريكته بافطار من خبز شهي وزبد طري وبيض كالثلج ومربى الفراولة (توت الارض) والقيمر (القشدة) الثخين . وصارت ميري دائماً تتناول الافطار معه وعندما يجدان نفسيهما على المائدة . وخصوصاً اذا وجدت شطائر لحم رقيقة ترسل روائح شهية من تحت غطاء فضي ساخن — فانهما ينظران في وجه احدهما الآخر بشيء من اليأس المفضي الى التهور .

وكان كولن ينهي الامر بقوله : ارى اننا لابد ان نأكله كله

هذه المرة ، ياميري . يمكننا ان نرجع شيئاً من الغداء وكثيراً من العشاء .

ولكنهما وجدا انهما لم يستطيعا قط ان يصدا اي شيئ وقد اثارت حال الصحون والاواني الخالية الممسوحة تعليقاً كثيراً .

ويقول كولن ايضاً : اتمنى لوكانت شرائح اللحم اسمك ، وان فطيرة رقيقة واحدة لاتكفي .

اجابته ميري عندما سمعت ذلك اول مرة : انها تكفي شخصاً سيموت ، ولكنها لاتكفي شخصاً سيعيش . اشعر احياناً انني استطيع ان آكل ثلاثاً من هذه ، عندما اشم عطر زهور الرتم والخلنج آتية تتدفق من المروج خلال النافذة المفتوحة .

وبعد ان لعبوا في الحديقة ساعتين في الصباح ، ذهب ديكون وراء شجيرة ورد وجلب وعائين معدنيين وبين لهما ان احدهما مليئ بالحليب الطازج وعلى سطحه غشاء سميك من القشدة وفي الآخر كعك محلى ملفوف بقطعة قماش نظيفة زرقاء وبيضاء ، ملفوفة لفاً جيداً بحيث ظل الكعك ساخناً ، وضجوا فرحين لهذه المفاجأة . ما اروع الاشياء التي تفكر فيها السيدة ساور باي ! ما اجود هذا الكعك ! وما الذ الحليب !

فقال كولن : السحر فيها كما في ديكون . وهو يجعلها تفكر بوسائل جديدة لعمل الاشياء — الاشياء الجميلة . بلغها شكرنا ، ياديكون ، شكرنا الجزيل .

اعتاد كولن على استعمال عبارات الناس الكبار احياناً ، وصار يعجبه ذلك كثيراً وتحسن اسلوبه .

- قل لها انها كريمة ، سخية ، وان شكرنا الجزيل ونقر لها بالجميل .

ثم نسي عظمته وشرع يأكل حتى شبع من الكعك وشرب حليباً من الوعاء بجرعات غزيرة كما يفعل صبي جائع بعد القيام بتمرينات غير اعتيادية ويستنشق عبير المروج ولن يكون افطاره بعد اقل من ساعتين .

كانت هذه مستهل احداث سائغة من النوع نفسه . واستيقظنا على حقيقة كون السيدة ساور باي تعيل اربعة عشر فرداً ولعلها لاتستطيع ان تضيف لهم نفرين كل يوم . فطلبنا اليها ان تسمح لهما بارسال ما لديها من مال لكي تشتري به حاجات .

واكتشف ديكون شيئا مثيرا في الغابة خارج الحديقة . حيث وجدته ميري اول مرة يعزف بالمزمار للحيوانات البرية . اكتشف وجود فجوة صغيرة عميقة يمكن بناء تنور فيها من الحجر ويشوون من البطاطة والبيض . لم يكن البيض المشوي ترفا معروفا لديهما سابقا . وكانت البطاطة الساخنة المملحة الممزوجة بالزبد الطازج مايليق بملك الغابات فضلا عن كونها لذيذة مشبعة . يمكن شراء البطاطة والبيض واكل كثير بمقدار تشتهي النفس وكأنك لم تأخذ شيئا من طعام اربعة عشر انسانا .

كان يتم عقد حلقتهم كل صباح جميل تحت شجرة الخوخ الوارفة الظلال من اوراقها الخضر المتكاثفة بعد ان انقضى موسم تزهرها . وبعد اجراء الاحتفال كان كولن يقوم بتمرينه وبعيده في فترات طوال النهار كلما وجد قوته تساعده على ذلك . كان كل



يوم يصبح اقوى ويمشي بثبات اكثر ويقطع مسافة اطول .

وكان يقوم بتجربة بعد اخرى كلما شعر في نفسه قوة وكان ديكون هو الذي يدله على افضل الاشياء .

وقال ديكون بعد غياب عنهما : ذهبت امس الى ثوايت في مهمة من اجل والدتي ورأيت قرب فندق البقرة الزرقاء بوب هاروث . هو اقوى انسان في المروج . وهو بطل المصارعة ويستطيع ان يقفز اعلى من اي انسان ويرمي المطرقة ابعد منهم . كان يذهب في بعض السنين الى اسكتلنده للمشاركة في السباقات الرياضية . وهو يعرفني منذ ان كنت صغيراً وهو انسان لطيف ودود وكنت اسأله بعض الاسئلة . الناس يطلقون عليه اسم رياضي وتذكرت ياسيد كولن فقلت له : كيف جعلت عضلاتك تكبر بهذا الشكل يابوب؟ هل تعمل شيئاً اضافياً لتجعل نفسك قوياً؟ فقال لي : اي ، نعم ياحيي انا اقوم باشياء . جاء رجل الى ثوايت في حفل رياضي وعلمني كيف امرن ذراعيّ وساقيّ وكل عضلة من عضلات جسمي . فقلت له : هل يمكن لولد رقيق ان يجعل نفسه قوياً بهذه التمارين يابوب؟ فضحك وقال : هل انت ذلك الولد الرقيق؟ فقلت له : لا ، ولكنني اعرف شاباً بدا يتحسن بعد مرض طويل واتمنى ان ابين له بعض التمرينات . ولم اخبره بأي اسم ولم يسألني هو عن ذلك . انه رجل لطيف ودود كما قلت ، فوقف وعلمني وصرت اقلده بما يفعل حتى تعلمته عن ظهر قلب .

وكان كولن يصغي باهتمام وشوق :

وصاح : هل يمكن ان تريني ، ارجوك؟

فاجاب ديكون وقد نهض : اي ، نعم بالتأكيد . ولكنه قال يجب القيام بها بلطف اولاً وان تنتبه فلا تتعب نفسك . وعليك بالراحة بين فترات واستنشق انفاساً عميقة ولا ترهق نفسك .

فقال كولن : سأكون حذراً ومنتبهاً . أرني . هيا أرني ! ديكون انت اشد الاولاد في العالم سحراً !

وقف ديكون على العشب وبدأ يمارس ببطء سلسلة من تمارين العضلات . وراح كولن يراقب بعينين متسعتين . استطاع ان ينفذ بعضها وهو جالس . وادى بعضها بلطف بعد ان وقف على قدميه الثابتتين وراحت ميري تؤديها ايضاً . واضطرب الغراب «اسحم» الذي كان يراقب الاداء وترك الغصن الذي كان واقفاً عليه وصار يقفز حولهم قلقاً لانه لم يستطع اداءها ، ايضاً .

اصبحت التمارين منذ ذلك اليوم جزءاً من الواجبات اليومية . واضحى من الممكن لكل من كولن وميري ان يؤديا حركات اكثر كلما حاولا ، وكانت نتيجة ذلك زيادة الشهية ، ولو لا السلة التي يضعها ديكون خلف الشجيرة كل صباح لدى وصوله ، لضاعت شهيتهم . وكانوا يشبعون بما يجود به التنور وبسخاء ام ديكون ، مما جعل السيدة ميدلوك والمربية في حيرة مما امرهما . يمكنك ان تعاف افطارك وتقلل من غذائك اذا شبعت بيضاً وبطاطة مشوية وحليباً جديداً دسماً وخبزاً وكعكاً وعسلاً وقشدة .

قالت المربية : انهما يكادان لايأكلان شيئاً. ومع ذلك انظري كيف يبدوان .

وقالت السيدة ميدلوك متعجبة : انظري! اني امقتهما الى حد الموت. انهما شيطانان صغيران . سوف ينشق معطفاهما يوماً من سمن وهما يعافان اطيب طعام الطباخة. ولم يتناولا لقمة من لحم الدجاج اللطيف والمرق اللذيذ امي – وصنعت لهما المرأة المسكينة اطيب حلوى ولكنهما اعاداها . وكادت ان تبكي. تخشى ان يقع اللوم عليها اذا ما هلكا جوعاً .

وجاء دكتور كريفن ونظر الى كولن طويلاً وبامعان. وكانت ملامح وجهه تعبر عن قلق عندما تحدثت المربية معه وارته صينية الافطار التي لم يكد احد يمسها التي ابقتها لكي يلقي نظرة عليها – ولكنه ازداد قلقاً عندما جلس الى جانب اريكة كولن وفحصه. كان قد استدعي الى لندن في مهمة ولم ير الصبي مدة اسبوعين تقريباً. عندما يبدأ الصغار بالحصول على العافية فانهم يحصلون عليها سريعاً. لقد زال اللون الشمعي من بشرة كولن وظهر بدله لون وردي دافئ. كانتا عيناه الجميلتان صافيتين وامتلأت الفجوات تحتهما وعلى الخدين والصدغين. واخذت خصلات شعره الكامدة تبدو كأنها تخرج اكثر عافية فوق جبينه وكانت ناعمة دافئة بالحياة. وامتلأت شفتاه واصبح لونهما طبيعياً. ولما كان يتظاهر بالمرض فقد اخذ دكتور كريفن ذقنه في يده وفكر في امره.

وقال : اني اسف ان اسمع انك لاتأكل شيئاً. هذا لايجوز.

سوف تفقد كل ما كسبت، وقد كسبت شيئاً كثيراً بشكل مذهل لانك كنت تأكل بشكل جيد قبل فترة قليلة.

فاجاب كولن: قلت لك انها شهية غير طبيعية.

كانت ميري جالسة في كرسيها قريباً منها، واخرجت صوتاً غريباً جداً حاولت ان تكبته بشدة فكادت تختنق.

وقال لها دكتور كريفن ملتفتاً اليها: ما بك؟

فاجابت ميري محتدة في شيء من التعالي والتأنيب: انه شيء بين العطاس والسعال، دخل في بلعومي.

ثم قالت بعد ذلك لكولن: ولكني لم استطع ان اسيطر على نفسي. انفجرت لانني تذكرت بغتة اخر قطعة بطاطة اكلتها انت بشهية ممزوجة بالمربى والقشدة.

وسأل دكتور كريفن السيدة ميدلوك: هل من ثمة من وسيلة يحصل فيها هذان الصغيران على الطعام سراً؟

فاجابت السيدة ميدلوك: ليس ثمة من سبيل سوى ان يستخرجاه من الارض او يلتقطاه من الشجر. فهما يمكثان خارجاً طوال النهار ولايريان احد هناك. واذا ارادا شيئاً يأكلان مختلفاً عما يرسل اليهما، فليس عليهما الا ان يطلباه.

فقال دكتور كريفن: حسناً. اذا كانا يظلان بلا طعام يوافقهما، فلا حاجة بنا ان نقلق انفسنا. لقد اصبح الولد مخلوقاً جديداً.

فقالت السيدة ميدلوك: وكذلك البنت. لقد بدأت تصبح جميلة منذ ان امتلأت وفقدت نظرتها المتجهمة. وصار شعرها

كثيفاً وتبدو عليه علائم العافية، واشرق لونها، بعد ان كانت طفلة صغيرة مكتئبة، سيئة الطبع. اما الآن فانها وكذلك السيد كولن يضحكان معاً مثل مجنونين صغيرين. لعلهما يسمنان بسبب ذلك.

فقال دكتور كريفن، لعلهما. دعيهما يضحكا.

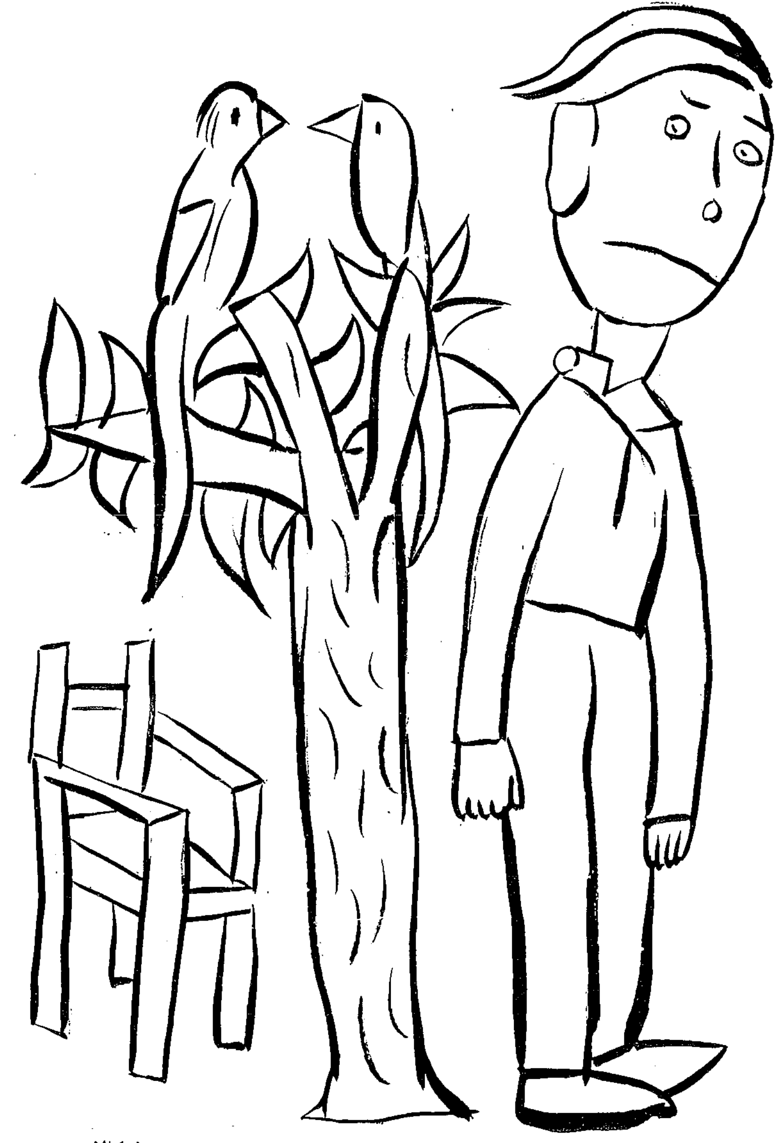
٣٥ ـ الستارة

وازدهرت الحديقة السرية وازهرت وكشفت كل يوم عن معجزات جديدة. في عش أبي الحناء بيضات، وأم الحناء نائمة عليها، لتدفأ بصدرها الصغير وجناحيها الحنونين. كانت بادئ ذي بدء عصبية، وكان ابو الحناء حذراً ويراقب ساخطاً. حتى ديكون لم يقرب تلك الزاوية آنذاك. وانتظر حتى أستطاع بشيء من الهدوء السحري أن ينقل الى نفسي الطائرين الصغيرين أنّ ليس في الحديقة شيئ لايشبهها – لاشيئ لايفهم الاعجوبة التي حدثت لهما – جمال أبيض وجلالة في عظمتها ورهبتها وكل مايهز الفؤاد. اذا كان في تلك الحديقة شخص واحد لايعرف من صميم كيانه أنه اذا أخذت بيضة أو أصابها ضرر فان الدنيا ستندفع في الفضاء الفسيح وتتحطم وتكون بذلك نهايتها – اذا كان حتى شخص واحد لايشعر بذلك ويتصرف بموجبه فلن تكون هناك سعادة في جو ذلك الربيع الذهبي. ولكن الجميع يعرفون ذلك

ويشعرون به ويعرف ابو الحناء وصاحبته أنهم يعرفون ذلك.

كان أبو الحناء باديئ ذي بدء يراقب ميري وكولن بقلق شديد. ولسبب معين كان يعرف أنه ليس بحاجة الى مراقبة ديكون. اول يوم ووقعت نظرة عينه الصغيرة السوداء اللامعة كالندى على ديكون عرف أنه لم يكن غريباً، ولكنه نوع من أبي الحناء بلا منقار ولاريش. يستطيع أن يتكلم لغة أبي الحناء (تلك اللغة المتميزة التي لا تشبه لغة أخرى). التكلم بلغة أبي الحناء الى ابي حناء مثلما تتكلم الفرنسية مع فرنسي. كان ديكون دائماً يتكلم بها الى أبي الحناء نفسه، ولم تكن البربرة الغريبة التي يستعملها عندما يتكلم الى البشر لم تهمه شيئاً قط. اذكياء جداً فهموا كلام ذوي الريش. وكانت حركاته كحركات طيور ابيْ الحناء أيضا فلم يجفل أحداً بمفاجآته فيحسب خطراً أو مهدداً. أي طائر من ابي الحناء يستطيع أن يفهم ديكون لذلك كان وجوده غير مزعج.

ولكن من البداية كان من الضروري الحذر من الطفلين الآخرين وخصوصاً الولد الذي لم يات الى الحديقة على رجليه، فقد كان يدفع على شيئ ذي عجلات وقد القيت عليه جلود حيوانات وحشية. ذلك الشيئ نفسه كان مريباً، ثم عندما بدأ يقف وينتقل كان يفعل ذلك بطريقة غريبة، غير مألوفة، وكان يبدو الآخرون أنهم يساعدونه. وكان أبو الحناء يختبيئ في شجيرة ويروح يراقب ذلك بلهفة ويميل برأسه أولاً الى جهة ثم جهة أخرى. كان يظن أن الحركات البطيئة قد تعني تأهبه للوثوب كما تفعل القطط. فان القطط عندما تتأهب للوثوب، تروح تزحف



على الارض ببطء شديد. تحدث أبو الحناء عن ذلك الى اليفته عدداً من المرات قبل أيام قلائل، غير أنه قرر بعد ذلك الايتكلم على الموضوع لأنها أرتعبت كثيراً فخشي أن يكون ذلك ضرراً للبيض.

وعندما بدأ الولد يمشي وحده ويتحرك بسرعة أكثر، كان في ذلك راحة ولكنه ظل وقتاً طويلاً – وقتاً طويلاً كما بدا لابي الحناء – مصدراً للقلق. فلم يتصرف كالناس الآخرين كان يبدو مولعاً بالمشي، ولكن كانت له طريقة خاصة في الجلوس والاستلقاء قليلاً، ثم النهوض بطريقة مرتبكة والبدء بالمشي مرة أخرى.

تذكر ابو الحناء يوماً أنه عندما أراد والداه تعليمه الطيران فقد كان يفعل الاشياء ذاتها. فقد كان يطير مسافة أمتار قليلة ثم يظطر الى الراحة. فخطر بباله أن هذا الولد كان يتعلم الطيران – أو بالاحرى المشي. وذكر ذلك الى صاحبته، وعندما أخبرها أن صغارها قد يسلكون الطريق نفسه بعد أن ينبت ريشهم. ارتاحت تماماً وسرها أن تتفرج على الصبي من وراء حافة عشها – مع انها كانت تفكر دائماً أن صغارها سيكونون اذكى ويتعلمون اسرع، ثم قالت أن أبناء البشر غير بارعين وتعوزهم رشاقة الحركة أكثر من صغار الطير وأن أغلبهم لم يبد أنهم في الحقيقة كانوا يتعلمون الطيران اطلاقاً. فلاتصادفهم في الجو ولا على قمم الاشجار.

وطفق الولد بعد حين ينتقل كالآخرين، ولكن الاطفال

الثلاثة كانوا أحياناً يقومون باداء أشياء اعتيادية. فيقفون تحت الشجر ويحركون أذرعهم وسيقانهم ورؤوسهم بطريقة لم تكن مشياً ولاركضاً ولاجلوساً. كانوا يؤدون هذه الحركات في فترات كل يوم. ولم يكن ابو الحناء قادراً أن يفسر لاليفته ماكانوا يفعلون أو يحاولون أن يفعلوا. استطاع فقط أن يقول أنه متأكد أن صغارهم لن يتصرفوا بهذه الطريقة، ولكن بما أن الولد الذي كان يستطيع التحدث بلغة ابي الحناء بطلاقة كان يقوم بهذه الاشياء معهم، فان الطيور متأكدة أن هذه الافعال لم تكن ذات طبيعة خطرة. بطبيعة الحال، لم يسمع ابو الحناء ولاصاحبته عن المصارع بوب هاورث، وعن تمارينه التي تحني العضلات. طيور أبي الحناء ليست كالمخلوقات البشرية، فعضلاتهم تتمرن منذ البداية. ولذلك فهم يتطورون بطريقة طبيعية. واذا كان عليك أن تطير لتبحث عن طعام تأكله، فان عضلاتك لن تضمحل.

وعندما صار الولد قادراً على المشي والركض وقلب التربة والتعشب مثل الآخرين، كان العشب في ركن الحديقة آمنا مطمئناً بما يحتضن. وأصبح الخوف على البيض من ذكريات الماضي. ومعرفة أن البيض كان في حالة من الاطمئنان كأنها حفظت في صندوق مال وأن الابوين يستطيعان التفرج على أشياء كثيرة غريبة، جعل الجلوس في العش مهمة مسلية. في الايام الماطرة كانت أم البيض تشعر بالملل لان الاطفال لم يأتوا الى الحديقة.

ولكن حتى في الايام الماطرة، لايمكن أن يقال أن ميري وكولن كانا يشعران بالملل. في صباح يوم من الايام عندما كان المطر ينهمر بلا انقطاع بدأ كولن يشعر من الضجر، لأنه اضطر على البقاء جالساً على أريكته لانه لم يكن من الصالح النهوض والتمشي في الخارج، فاوحت له ميري بفكرة.

وقال: بما أنني الآن ولد حقيقي فان ساقيّ وذراعي وجميع أعضاء جسمي مليئة بالسحر فلا أستطيع أن أجعلها ساكنة أنها تريد القيام بشيئ طوال الوقت. أتعرفين أنني عندما أستيقظ صباحاً، ياميري، في وقت مبكر والطيور قد بدأت تواً بالتغريد في الخارج ويبدو كل شيئ يهتف فرحاً– وحتى الاشجار والاشياء في الخارج ويبدو كل شيئ يهتف فرحاً – وحتى الاشجار والاشياء مع أننا لانستطيع سماعها – أشعر كأنني أريد أن اثب من فراشي وأهتف أيضاً. واذا فعلت ذلك، تصوري ماذا يحدث؟

وقهقهت ميري قهقهة غير مكبوحة.

وقالت: ستأتي المربية راكضة وستأتي السيدة ميدلوك راكضة وسوف تتأكدان أنك جننت وسترسلان في طلب الطبيب.

وقهقه كولن نفسه. واستطاع أن يتخيل كيف سيبدو الجميع– مرعوبين لقفزته مذهولين لرؤيته واقفاً منتصباً

فقال: أتمنى لو يعود أبي الى البيت. أريد أن أخبره بنفسي، أنني دائم التفكير بذلك – غير أننا لانستطيع أن نستمر على هذا أكثر من هذا. لااتحمل البقاء مستلقياً وانا ساكن أتظاهر أنني

أبدو غير ما انا عليه. أتمنى لو لم تكن اليوم ماطرة.

واتهمت الآنسة ميري فكرة هذه المرة:

فقالت بشيء من الغموض: كولن، أتعرف عدد الغرف في هذا البيت؟

اجاب كولن قائلاً: نحو الف، على ماأظن.

فقالت ميري: فيها نحو مئة لم يدخلها أحد. وذات يوم ماطر ذهبت والقيت نظرة في كثير منها. ولم يعرف أحد عن ذلك شيئاً، وكادت السيدة ميدلوك أن تكتشفني. وضللت طريق عودتي وتوقفت في نهاية رواقك. كان ذلك في المرة الثانية عندما سمعتك تبكي.

وقعد كولن على الاريكة.

وقال: مئة غرفة لم يدخلها أحد. يبدو ذلك مثل مسألة الحديقة السرية. أفرحني أننا ذهبنا والقينا نظرة فيها. يمكنك أن تدفعيني في كرسيي ولن يعرف أحد أننا دخلناها.

فقالت ميري: هذا ماكنت أفكر فيه: لن يجروء أحد أن يتبعنا. ثمة ابهاء حيث يمكنك أن تجري، ويمكننا أن نمارس تمارينا. وثمة غرفة هندية صغيرة فيها خزانة مليئة بالافيال العاجية. غرف من كل الصنوف.

فقال كولن: دقي الجرس.

وعندما دخلت المربية أصدر اوامره اليها.

وقال: اريد كرسيي. سنذهب أنا والانسة ميري لالقاء نظرة على ذلك القسم من البيت غير المستعمل. يستطيع جون أن

يدفعني الى بهو الصور لوجود بعض السلالم، ثم يمكنه تركنا وحدنا حتى ارسل في طلبه مرة أخرى.

وفقدت الايام الماطرة الرعب الذي تثيره، في صباح ذلك اليوم. وعندما دفع الخادم الكرسي الى بهو الصور وترك الاثنين معاً تلبية للاوامر، وقف كولن وميري وينظر أحداهما الى الآخر فرحين. وحالما تأكدت ميري أن جون عاد الى مقره في الطابق الاسفل، نزل كولن من كرسيه.

وقال: ساركض من طرف البهو الى الطرف الآخر ثم اقفز وسوف نمارس تمارين بوب هاوارث.

وقام الاثنان بكل تلك الاشياء وكثير غيرها. ونظر الى الصور ووجدا البنت الصغيرة القبيحة في الثوب الاخضر المطرز تحمل ببغاء على اصابع يدها.

وقال كولن: هؤلاء جميعاً.. لابد أنهم أقربائي. عاشوا قبل سنين عديدة. وأعتقد أن صاحبة الببغاء واحدة من عمات عمات عمات عماتي. وهي تشبهك تقريباً ياميري، ليس كما تبدين الآن ولكن كما جئت الى هنا أول مرة. أنت الآن أسمن كثيراً واجمل شكلاً.

فقالت ميري: وأنت كذلك.

وضحك الاثنان. وذهبا الى الغرفة الهندية وتسليا بالفيلة العاجية. ووجدا مخدع المرأة ذا القماش الوردي المطرز، والثقب في الوسادة الذي سببه الفأر، ولكن الفئران كبرت وهربت وصار مكانها خالياً. وشاهدا غرفاً أخرى واكتشفا أموراً أخرى أكثر مما

وجدت ميري في جولتها الاولى. وجدا أروقة جديدة وزوايا وسلالم وصوراً جديدة أعجبتها وأشياء عجيبة قديمة لم يعرفا فائدتها. كان صباحاً ممتعاً حقاً.

وقال كولن: أني مسرور بمجيئنا الى هنا ولم أكن أعرف انني عائش في مثل هذا المكان الكبير القديم والغريب. أنه يعجبني. سوف نتسكع في كل يوم ماطر. سنجد دائماً أشياء غريبة وزوايا جديدة. وجدا في صباح ذلك اليوم اطعمة شهية جيدة عندما عادا الى غرفة كولن وكان من المستحيل عليهما أن يعيدا الطعام ولم يأكلا منه.

وعندما حملت المربية الصينية الى الطابق الاسفل القتها بقوة على خزانة الاواني لكي تثير انتباه الطباخة السيدة لوميس وترى الاطباق والصحون الخالية من الطعام تماماً.

وقالت: أنظري الى هذه! أنه بيت سحري، وهذان الطفلان هما أعظم مافيه من سحر.

وقال جون الخادم القوي: اذا ماواظبا على هذا كل يوم، فسيزول العجب اذا تضاعف وزنه اليوم عما كان عليه قبل شهر.

لاحظت ميري في عصر ذلك اليوم أن شيئاً جديداً قد حدث في غرفة كولن. رأت ذلك أمس ولكنها لم تقل شيئاً لانها ظنت أن التغير قد يكون حدث بالمصادفة. ولم تقل شيئاً اليوم أيضاً ولكنها جلست ونظرت مركزة نظرها الى الصورة فوق المدفئة. استطاعت أن تنظر اليها لان الستارة سحبت جانباً. ذلك هو التغير الذي حصل.

فقال كولن بعد أن حدقت دقائق قليلة : أعرف ماذا تريدين أن تقولي. أنا أعرف دائماً عندما تريدين أن تقولي لي شيئاً. أنت تتساءلين لماذا سحبت الستارة جانباً. سابقيها على هذا الحال.

فتساءلت ميري : لماذا؟

فاجابها : لانها لم تعد تغضبني أن أراها باسمة. استيقظت في ضوء القمر الوضاء قبل ليلتين وشعرت كأن السحر قد ملأ الغرفة وجعل كل شيء بهياً فلم أستطع أن أظل ساكناً. نهضت وتطلعت من النافذة. كان القمر متألقاً تماماً وكانت بقعة من نور القمر على الستارة مما جعلني أذهب اليها وأسحب الحبل.

ونظرت الي كأنها كانت تبتسم لي لانها كانت مسرورة بوقوفي هنا.

وجعلني ذلك أحب النظر اليها. أريد أن أراها باسمة طول الوقت. أظن أنها نوع من الناس الذين فيهم سحر.

فقالت ميري : أنت تشبهها الآن كثيراً بحيث أنني أعتقد أحياناً أنك روحها متمثلة في صبي.

ويبدو أن الفكرة أثرت في كولن. وفكر فيها طويلاً ثم أجاب ملياً.

وقال : لو كنت روحها فان أبي سيحبني كثيراً.

فسألت ميري : أتريده أن يحبك كثيراً؟

فاجاب : كنت أكره أن يكون أبي لايحبني. واذا أحبني فأعتقد أني سأخبره عن السحر. ولعل ذلك سيبهجه كثيراً.

٣٦ ـ هذه امي

كان اعتقادهم راسخاً في العلم. وبعد أن قام كولن بتمرينات الصباح القى عليهم محاضرة.

وشرح لهم قائلاً: أنا أحب القيام بذلك لانني اذا كبرت وقمت بالاكتشافات العلمية، فأنني سألقي محاضرات عنها، أما هذه فهي ممارسة عملية. فأنني الآن أستطيع القاء محاضرات قصيرة لانني صغير، وفضلاً عن ذلك فان بين ويذرستاف سيشعر كأنه في كنيسة وينام.

فقال بين: أحسن شيئ عن القاء المحاضرات أن ينهض المرء ويقول مايعجبه ولن يستطيع أي شخص آخر أن يرد عليه. ولن أطيل محاضرتي أبداً.

ولكن عندما بدأ كولن بالقاء خطبته تحت شجرته، لاحت عينا بين العجوز تلتهمانه وظلتا مركزتين عليه. ونظر اليه متفحصاً

بمحبة. لم تكن المحاضرة قد أعجبته كثيراً كما أعجبه الصبي بساقيه المستقيمتين اللتين تتقويان يوماً بعد يوم، ورأسه المنتصب عالياً، وذقنه الذي كان حاداً وخديه اللذين كانا غائرين وأمتلآ واستدار، وعينيه المشرقتين أشراق عينين تذكرهما لدى شخص آخر. وأحياناً، عندما يشعر كولن بنظرة بين الجادة التي تعني أنه كان متأثراً جداً، فأنه كان يتساءل ماذا كان يفكر، وسأله ذات مرة عندما بدا سليب اللب:

فقال: بماذا تفكر يابين ويذرستاف؟

فاجاب بين: كنت أفكر أنك ازددت ثلاثة أو أربعة باونات في هذا الاسبوع. كنت أنظر الى ربلتي ساقيك والى كتفيك. أتمنى لو أزنك في ميزان.

فقال كولن: هذا فعل السحر وكعك السيدة ساور باي وحليبها والاشياء الاخرى. فأنت ترى أن التجربة العلمية قد نجحت.

تأخر ديكون صباح ذلك اليوم عن موعد سماع المحاضرة. وعندما وصل كان متورداً من الركض وكان وجهه يبدو أكثر تألقاً من المعتاد. ولما كان لديهم تعشيب كثير بعد الامطار، فأنهم بدأوا العمل، لانهم دائماً كانوا يعملون كثيراً بعد سقوط مطر دافئ عميق الغور. كانت الرطوبة الجيدة للزهور كانت جيدة للاعشاب أيضاً، التي تمتد أنصال أوراقها طويلة كالحشائش أو مدورة ولابد من اقتلاعها قبل أن تنبت جذورها. أصبح كولن يجيد التعشيب مثل الآخرين ويستطيع أن يلقي محاضرة وهو

يعمل.

– ينجح السحر، اذا كنت أنت عاملاً. تستطيع أن تشعر به يسري في عظامك وعضلاتك ولكنني سأكتب كتاباً عن السحر: أنني أعده الآن اذ أنني في صدد اكتشاف أشياء جديدة.

بعد قوله ذلك بوقت قصير القى مالجه ووقف على قدميه. وسكت دقائق، ورأوه يفكر بأمر المحاضرات، كما يفعل في أغلب الاحيان. وعندما القى المالج ووقف منتصباً، بدا لميري وديكون كأن فكرة مفاجئة جعلته يفعل ذلك. فمد نفسه الى أعلى قامته ونشر ذراعيه جذلاً وتوهج وجهه واتسعت عيناه بالبهجة، لقد حقق شيئاً أفضل تحقيق.

فصاح: ميري! ديكون! أنظرا الي!

وتوقفا عن التعشيب ونظرا اليه.

وسألهما: هل تتذكرا صباح اليوم الاول الذي جلبتموني فيه الى هنا؟

كان ديكون ينظر اليه ملياً. ربما ساحر حيوانات، فقد رأى اشياء أكثر مما يرى الناس الآخرون، وكان أكثرها اشياء لم يتحدث عنها مطلقاً. ورأى بعضها الآن في هذا الصبي.

فاجاب: أي، نعم، نتذكر.

ونظرت ميري اليه أيضاً ولكنها لم تقل شيئاً.

وقال كولن: في هذه الدقيقة، تذكرت ذلك فوراً– عندما نظرت الى يدي وهي تقلب التربة– فوقفت على قدمي لكي أتبين

ان كان الامر حقيقياً. وهاهو حقيقي ! أنا بخير- أنا بخير!

فقال ديكون: نعم، أنت بخير!

فكرر كولن قوله وقد أحمر وجهه تماماً: أنا بخير! أنا بخير! عرفت ذلك قبلاً بشكل من الاشكال، وكان يأمل فيه ويشعر به ويفكر فيه، ولكن في تلك اللحظة سرى في جسمه شيئ ما سرعة فائقة- شيئ كأنه الثقة والادراك المفعمان بالنشوة. وكان قوياً جداً فلم يسعه الهتاف.

وصاح بغرور وشموخ: سأعيش الى الابد والى الابد! وسوف أكتشف آلاف وآلاف الاشياء. سأكتشف أموراً عن البشر والمخلوقات وكل شيئ ينمو- كما يفعل ديكون- ولن أتوقف عن السحر. أنا بخير! أنا بخير! أشعر- أشعر كأني أريد أن أهتف بشيئ- شيئ يعبر عن الشكر والبهجة! والتفت اليه بين ويذرستاف وقد كان يعمل قرب شجيرة وردة ورمقه بنظرة.

وأقترح قائلاً بصوته الاجش: يمكنك أن تسبح لله وتشكره.

ولم يكن كولن يعرف شيئاً عن ذلك.

فسأله: مامعنى ذلك؟

فأجاب بين: يمكن أن ينشد ديكون ذلك لك.

فقال ديكون بابتسامة الساحرة: هي التي ينشدونها في الكنيسة. وتعتقد أمي أن القبرات تنشدها عندما تحلق في السماء صباحاً.

فأجاب كولن: اذا قالت ذلك، فلابد أنها أغنية لطيفة أنا لم



أذهب يوماً الى كنيسة. فقد كنت دائماً مريضاً جداً. أنشدها ياديكون، اريد أن أسمعها.

كان ديكون بسيطاً، صادقاً في معرفة مايشعر به كولن - أفضل منه. فهم ذلك بشيء من الغريزة الطبيعية وخلع قبعته وتلفت حوله وهو باسم.

وقال لكولن: عليك أن تخلع قبعتك وكذلك أنت يابين - ويجب أن تقفوا كما تعرفون.

خلع كولن قبعته وأشرقت الشمس عليه ودفأت شعره وهو يراقب ديكون عامداً. ونهض بين وكشف عن رأسه، أيضاً بشيء من الحيرة وقليل من الامتعاض البادي على وجهه الهرم كأنه يعرف بالضبط لماذا كان يفعل ذلك الشيء العجيب.

وبرز ديكون من بينهم ووقف تحت الاشجار وشجيرات الورد وراح ينشد بطريقة بسيطة واقعية وبصوت صبي قوي جميل:

حمداً لله مجزي البركات

حمداً لله من جميع المخلوقات

حمداً له رب الارض والسماوات

آمين.

عندما أكمل ديكون كان بين ويذرستاف واقفاً بلا حراك وفي عينيه نظرة مضطربة شاخصة الى كولن. وكان وجه كولن تبدو عليه علائم التفكير والتقدير.

وقال: انها أغنية جميلة جداً. وهي تعجبني. لعلها تعني

ماعني عندما أريد أن أهتف معبراً عن شكري.

ثم توقف وفكر حائراً.

وأكمل قوله: لعلها شيءٌ واحد. كيف اسماء الاشياء المظبوطة؟ أنشدها مرة أخرى ياديكون. لنجربياميري. اريد أن أنشدها أنا أيضاً. أنها أغنيتي. كيف تبدأ؟

«حمداً لله مجرى البركات.»

وأنشدها مرة ثانية ورفع كولن وميري صوتهما متناغمين وعلا صوت كولن جميلاً للغاية– وتنحنح بين ويذرستاف في البيت الثاني بصوت خشن مثير، وصاحبهم في البيت الثالث بصوته القوي الذي بدا وحشاً. وعندما وصلوا كلمة«آمين» لاحظت ميري أن الشيءُ نفسه حدث يوم أكتشف أن كولن لم يكن كسيحاً– ذقنه يرتعش بشدة وهو يحملق وتطرف عيناه لا ارادياً وكان خداه الهرمان الجلديان مبللان.

وقال بصوت أجش: لم أجد معنى في الانشاد سابقاً ولكنني أغير رأي هذه المرة. وأقول أنك ازددت خمسة باونات هذا الاسبوع ياسيد كولن.

وكان كولن ينظر عبر الحديقة الى شيءٌ جلب انتباهه. وتغيرت معالم وجهه وبدت عليه أمارات الجفلة.

فقال مسرعاً: من هذا الآتي الينا؟ من هو؟

دفع الباب المختفي وراء نباتات اللبلاب بلطف وفتح فدخلت أمرأة. وكان دخولها مع آخر بيت من الانشودة وظلت واقفة تستمع وتنظر اليهم، وكان اللبلاب خلفها وانهمر ضوء الشمس

خلال الاشجار وجعل معطفها الازرق الطويل ارقط،.وكان وجهها اللطيف الناضر باسماً عبر النباتات الخضر وكانت أشبه شيئ بصورة رقيقة الالوان في احد كتب، كولن. كانت عيناها رائعتين يشع الحنان منهما، وكأنهما تستوعبان كل شيئ– كلهم حتى بين ويذرستاف و «المخلوقات» وكل زهرة متفتحة عندما دخلت، لم يشعر أي واحد منهم أنها كانت متطفلة قط.

وأشرقت عينا ديكون كالمصابيح.

وهتف وهو يركض فوق العشب: هذه أمي، هي التي أتت!

وراح كولن يسير نحوها أيضاً ومشت ميري معها. وشعر الاثنان أن ضربات قلبهما كانت أسرع.

وصاح ديكون مرة أخرى في منتصف المسافة: هذه أمي! عرفت أنك تريدين رؤيتها فأخبرتها عن مكان الباب. ومد كولن يده بشيئ من الخجل الجليل ولكن عينيه كانتا تلتهمان وجهها.

وقال: أردت أن اراك حتى عندما كنت مريضاً وارى ديكون والحديقة السرية قبلاً أريد أن ارى أحداً أو شيئاً قط.

كان منظر وجهه المرفوع قد ادى الى تبدل مفاجيئ في وجهها الذي تورد وارتعش زوايا فمها وأمتدت غلالة من ضباب أمام عينيها.

وقالت هاتفة بصوت مرتعش: اي! ياأيها الولد العزيز! اي ايها الصبي العزيز!

ولم تقل: ياسيد كولن ولكن «أيها الولد العزيز» فقط. لعلها

كانت تقول ذلك لابنها ديكون بالطريقة نفسها اذا رأت في وجهه شيئاً يؤثر فيها. واحب كولن ذلك منها.

وسألها: هل أنت مندهشة أنني بصحة جيدة؟

فوضعت يدها على كتفه وابتسمت فزال الضباب عن عينيها.

وقالت: اي، نعم! وانت تشبه امك تماما وقد جعلت قلبي يثب من مكانه.

فسألها كولن مرتبكا: هل تظنين ان ذلك سيجعل ابي يحبني؟

فأجابته وقد ربتت على كتفه بلطف وبسرعة: نعم بالتأكيد ايها الولد العزيز. لابد ان يأتي الى البيت – لابد ان يأتي.

واقترب منها بين ويدرستاف وقال: سوزان ساور باى انظري الى ساقي الولد رجاء. كانتا مثل عصي الطبل قبل شهرين – وقد سمعت الناس يقولون انهما مقوستان وانه احنف اي ان رجليه ملتويتان نحو الباطن بحيث تدانت ركبتاه. انظري اليهما الان.

وضحكت سوزان ساور باي ضحكة مريحة.

وقالت: ستصبحان في القريب العاجل قويتين مثل سيقان الصبيان الآخرين. ليلعب ويعمل في الحديقة ويأكل بشهية ويشرب كثيراً من الحليب الجيد ولن يكون في كل يوكشير أحسن من رجليه، والحمد لله على ذلك!

ووضعت كلتا يديها على كتفي ميري ونظرت تتمعن وجهها بحنان أمومي.

وقالت: وأنت أيضاً! لقد كبرت واصبحت مثل أبنتا

اليزأبيث ايليز. أنا متأكدة أنك تشبهين أمك أيضاً. أخبرتني أبنتي مارثا عما قالت السيدة ميدلوك أنها كانت أمرأة جميلة. ستكونين مثل وردة حمراء عندما تكبرين، ياصغيرتي، بارك الله فيك.

ولم تذكر لها أنها قالت، عندما عادت ابنتها في اجازتها ووصفت لها البنت الشاحبة القبيحة، أنها لاتثق بما سمعت عن السيدة ميدلوك. وأضافت قولها: ليس من المعقول أن أمرأة جميلة يمكن أن تكون أماً لمثل هذه الصبية السيئة.

ولم يكن لدى ميري من الوقت لكي تلتفت كثيراً الى مايطرأ على وجهها من تغير. عرفت فقط أنها بدأت مختلفة وأن شعرها أصبح كثيفاً وأنه صار ينمو سريعاً. ولكنها تذكرت سرورها عند النظر الى السيدة الانكليزية– أمها– في الهند وفرحت أن تسمع أنها قد تكون مثلها في يوم من الايام.

وتجولت سوزان ساورباي معهم في الحديقة وأخبروها بقصتها كاملة وأطلعوها على كل شجرة وشجيرة عادت اليها الحياة: مشى كولن الى جانبها وميري الى جانبها الآخر.

وظل الاثنان رافعين رأسيهما يتطلعان الى وجهها الوردي المريح وقد منحهما شعوراً بالبهجة– شعوراً مفعماً بالدفء والاسناد. وبدت كأنها تفهمها كما يفهم ديكون مخلوقاته. وانحنت على الزهور وتحدثت عنها كأنها أطفال. وتبعها. الغراب (اسحم) ونعب مرة أو مرتين ، وحط على كتفها كأنها ديكون وعندما أخبروها عن ابي الحناء ، و عن طيران الصغار اول مرة ضحكة ضحكة امومية رخيمة .

وقالت: اعتقد ان تعليمهم الطيران يشبه تعليم الاطفال المشي . ولكنني اخشى بل اقلق اذا كان لصغاري اجنحة بدل الارجل .

وبما انها كانت امرأة رائعة في طريقتها الريفية اللطيفة ، فقد اخبروها عن السحر .

وبعد ان شرح كولن شيئاً عن الفقراء الهنود سألها: هل تعتقدين بالسحر؟

فاجابت: نعم ياصغيري مع انني لااعرفه بهذا الاسم ، ولكن هل يهم الاسم شيئاً؟ اني متأكدة انهم يدعونه باسم مختلف آخر في فرنسا ، اسم مختلف في المانيا . انه الشيء نفسه الذي يجعل البذرة تنمو والشمس تشرق ، وجعلك ولداً معافى ، انه الخير ، انه الشيء الصالح . الخير الاعظم لايكف عن العمل والبركة . فهو يواصل صنع عوالم بالملايين مثل عالمنا . ولاتكفوا عن الاعتقاد بالخير الاعظم ومعرفة انه يملأ العالم – ادعوه ماتشاءون . كنتم تنشدون له عندما دخلت الحديقة .

فقال كولن: شعرت بالبهجة .

وفتح عينيه الجميلتين وهو ينظر اليها .

ثم اكمل قوله: شعرت بغتة مدى الاختلاف الذي انا فيه . قوة ذراعي وساقي – ومقدرتي على قلب التربة والوقوف والقفز – اردت ان اهتف بشيء مخاطباً اي شيء يسمعني .

فقالت: الاعظم استمع لكم عندما انشوتم تلك التبسيعة .

ذلك الدعاء . انه يسمع كل ماتنشدون . البهجة هي الشيء المهم اي ، ايها الصبي ، ماهمية الاسماء بالنسبة الى صانع البهجة

ثم ربتت مرة اخرى ربتة لطيفة سرايعة على كتفه .

كانت قد ملأت سلة بطعام الصباح المعتاد ، وعندما حانت ساعة الطعام وجلب ديكون السلة من مخبئها ، جلست معهم تحت شجرتهم وراحت تراقبهم يلتهمون طعامهم ضاحكين ، مرتاحين لشهيتهم . وامتلأ قلبها فرحاً وجعلتهم يضحكون بكل شيء لطيف ، وحكت لهم حكايات وعلمتهم كلمات جديدة .

وضحكت هي ايضاً عندما اخبروها عن الصعوبة المتزايدة التي تواجههم من جراء تظاهر كولن انه مايزال عاجزاً شكساً .

واوضح كولن ذلك قائلاً: ترين اننا لا نتمالك أنفسنا عن الضحك طالما كنا معاً. ولايبدو هذا من المرض بشيء. فنحاول أن نكتم ضحكنا، ولكنه ينفجر مرة أخرى فتسوء الامور أكثر من ذي قبل.

وقالت ميري: شيء واحد يراود فكري في أغلب الأحيان ولا أستطيع أن أكبح نفسي عندما أفكر به بغتة. أظل أفكر وأفرض أن وجه كولن سيصبح مثل البدر، مع أنه ليس كذلك الآن، ولكنه يسمن كل يوم قليلاً– وأفرض أنه في صباح يوم سيكون وجهه كذلك– فماذا نفعل!

فقالت سوزان ساورباي: بارك الله فينا جميعاً. أرى أن لديكم تمثيلية جميلة، ولكن لايصح أن تبقوها مدة أطول

سيعود السيد كريفن الى البيت.

فسأل كولن: هل تعتقدين أنه سيعود أصحيح؟

وقهقهت سوزان ساورباي بلطف.

وقالت : أعتقد أنك ستتألم كثيراً اذا عرفت عن ذلك قبل أن تخبره بنفسك. لقد ظللت مستلقياً ليالي مسهداً تصنع الخطط من أجل ذلك.

فقال كولن: لااتحمل أن يخبره أحد غيري. أفكر باشياء وطرق مختلفة كل يوم. وفكرت الآن أني أود أن أذهب راكضاً وادخل غرفته.

فقالت سوزان ساورباي: تلك بداية لطيفة بالنسبة اليه أود أن أرى وجهه، ياصغيري، ياليتني! لابد أن يعود- اجل، لابد أن يعود.

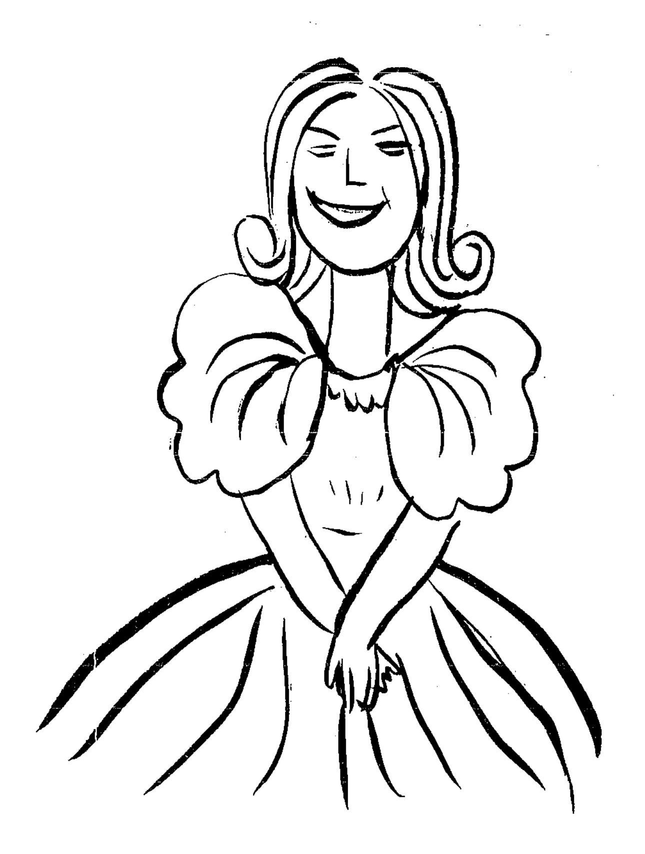
وكان من الاشياء التي تحدثوا عنها زيارتهم الى بيتها فقد خططوا لها وكانوا سيأتون اليه بالعربة بين المروج ويتناولون غذاءهم في الخارج بين الزهور البرية. وسيرون الاطفال الاثني عشر وحديقة ديكون، ولن يعودوا حتى يتعبوا.

ونهضت سوزان ساور باي أخيراً لتذهب الى البيت والى السيدة ميدلوك. وحان الوقت لكولن أن يعود على كرسيه أيضاً. ولكن قبل أن يصعد في كرسيه، وقف قريباً من سوزان وحدق فيها بشيئ من الهيام وتمسك معطفها الازرق بقوة.

وقال: أنت من كنت- من كنت أريده. أتمنى لو أنك أمي- كما أنت أم ديكون!

فانحنت سوزان ساور باي فجأة عليه وضمته بذراعيها الدافئتين الى صدرها تحت معطفها الازرق– كأنه أخو ديكون. وطاف الضباب سريعاً فوق عينيها.

وقالت: «اي، أيها الولد العزيز! أمك أتت في هذه الحديقة نفسها، كما أعتقد، اذ هي لاتستطيع أن تبتعد عنها. ولابد أن يعود أبوك اليك– لابد!



٢٧ ـ في الحديقة

منذ بدء الخليقة، وفي كل قرن من القرون، اكتشف أشياء رائعة. وقد وجدت في القرن الماضي أشياء مدهشة أكثر من أي قرن. وفي قرننا الجديد هذا ستخرج الى النور مئات من الاشياء المذهلة يرفض الناس في البداية أن يصدقوا امكان عمل شيئ جديد غريب— ثم يتم عمله ويتسائل العالم كله لِمَ لم يتم انجازه قبل قرون. واحد الاشياء الجديدة التي أخذ الناس يكتشفونها في القرن الماضي هو أن الافكار— الافكار المجردة— قوية قوة النضائد الكهربائية، نافعة للانسان كنفع نور الشمس أو مضرة له كضرر السم. ان تسلل فكرة حزينة أو ضارة الى فكرك أمر خطير كخطورة السماح لجرثومة الحمى القرمزية بالدخول الى جسمك.

واذا سمحت لها بالبقاء هناك بعد دخولها فانك قد لاتستطيع التغلب عليها مادمت حياً.

ولما كان فكر الآنسة ميري مليئاً بالافكار السيئة عما تكره

والآراء البغيضة عن الناس وعدم سرورها واهتمامها بأي شيء،
فقد كانت طفلة شاحبة الوجه، عليلة، متبرمة وكئيبة. ولكن
الظروف كانت رئيفة بها وان لم تكن هي عارفة بذلك. فبدأت
تدفعها نحو مافيه خيرها. وعندما انشغل فكرها بطيور أبي الحناء
وأكواخ المروج التي تمور بالاطفال، وانشغل أيضاً البستانيين
الشيوخ النكدين الذين يصعب أرضاؤهم وخادمات المنازل
البسيطات الصغيرات، وبالربيع والحدائق السرية تعود الى
الحياة يوماً بعد يوم، وبصبي من المروج وحيواناته، فلم يعد ثمة
مجال للافكار البغيضة التي تؤثر في كبدها وهضمها وتجعلها
صفراء متعبة.

ومادام كولن قد حبس نفسه في غرفته ولم يفكر الا بمخاوفه
وضعفه ومقتة الناس الذين ينظرون اليه ويطيل التفكير ساعات
بحدبته وموته المبكر، فقد أصبح مصاباً بالهستريا والوسواس على
صحته بل أضحى شبه مجنون لايعرف شيئاً عن ضوء الشمس
والربيع، ولايعرف أيضاً انه يمكن تتحسن صحته ويقف على
قدميه اذا ماحاول أن يقوم بذلك. وعندما بدأت أفكار جديدة
جميلة. تطرد الافكار القديمة الكريهة، بدأت الحياة تعود اليه
وصار دمه يجري بعافية في عروقه، وتدفقت القوة فيه كالفيضان.
وكانت تجربته العلمية شيئاً عملياً وبسيطاً تماماً، ولم يكن فيها أي
شيء من السحر قط. يمكن أن تحدث للانسان أشياء أكثر اثارة
للدهشة، فاذا دخلت رأسه أفكار بغيضة أو محبطة
- يائسة- فانه يستطيع أن يطردها، اذا ماتذكر هذا في حينه،



ويحل محلها فكرة مقبولة مفعمة بالشجاعة والتصميم. لا يمكن أن يكون شيئان في مكان واحد.

في المكان الذي ترعى وردة، ياولدي،
لا يمكن أن تنمو الاشواك.

وفي الوقت الذي كانت الحديقة السرية تعود الى الحياة، وكانا طفلان يعودان الى الحياة معها، كان ثمة رجل يتجول في أماكن بعيدة جميلة، في فيوردات النروج ووديان سويسرا وجبالها، رجل أشغل باله عشر سنوات بافكار سود تفطر القلب. لم يكن جريئاً، ولم يحاول أن يضع أفكاراً أخرى في محل الافكار السود. صار يتجول على ضفاف بحيرات زرق ويفكر بتلك الافكار. واستلقى على سفوح الجبال التي تغطيها زهور الجنطيانا من كل جوانبه، وعبير الزهور يملأ الجو، ولكنه كان يفكر بتلك الامور السود. حل به حزن رهيب، يوم كان سعيْداً، وجعل روحه تمتلئ بالقتامة ورفض رفضاً عنيداً أن يسمح لاي بصيص أن يخترقها. هجر بيته ونسي واجباته. وعندما كان ينتقل هنا وهناك، كانت الكآبة مخيمة عليه، فصار منظره يجلب البؤس الى الناس الآخرين لانه كان كمن سمم الهواء المحيط به بالغم والحزن. كان أغلب الغرباء يظنون أنه أما شبه مجنون أو رجلاً يخفي جريمة في نفسه. كان طويلاً متجعد الوجه، محني الكتفين وكان اسمه وعنوانه الذي يسجله في الفنادق: ارجيبالد كريفن، مبسيل ثوايت مينز، بوركشير، انكلترة.

سافر في طول البلدان وعرضها منذ اليوم الذي رأى الانسة

ميري في مكتبته وأخبرها أنها تستطيع أن تأخذ قطعة أرض صغيرة. زار أجمل الاماكن في أوربا، ولكنه لم يمكث في مكان واحد أكثر من أيام قلائل. كان يختار أهدأ الاماكن وأبعدها عزلة. ذهب الى قمم جبال رؤوسها بين السحب، وتطلع الى الجبال الاخرى عندما تشرق الشمس وتمسها بنور يجعلها تبدو كأنما العالم قد ولد تواً.

ولكن لم يبد النور كأنه مس روحه حتى أدرك يوماً شيئاً غريباً قد حدث أول مرة خلال عشر سنوات. كان يتمشى في واد رائع في النمسا، يكاد جماله يكشف الغمة عن الروح. سار طويلاً ولم تنكشف غمته. ولكنه شعر في نهاية المطاف بالتعب فالقى نفسه ليرتاح على بساط من العشب بجانب ساقية. كانت الساقية صغيرة رائعة تجري مرحاً في مسراها الضيق بين خضرة ندية عبقة، زكية الرائحة. كان خريرها أحياناً مثل ضحكة رقيقة وهي تطفح فوق الصخور وحولها. رأى طيوراً تأتي وتغمس مناقيرها لتشرب منها ثم تخفق بأجنحتها وتحلق مبتعدة. كأنها شيء حي، ومع ذلك فان خريرها الرقيق جعل الهدوء يبدو أعمق. وكان الوادي هادئاً جداً.

وعندما جلس ارجيبالد كريفن يحدق في جريان الماء الرائق، شعر بالهدوء يدب في فكره وجسمه، كأنه هدوء الوادي نفسه. وتساءل في نفسه هل سينام، ولكنه لم ينم. جلس وحدق في الماء الذي أنارته الشمس و بدأت عيناه تريان أشياء نامية على حافتها. ورأي مجموعة جميلة من زهور أسمها.. لاتنسى..— رمز

الاخلاص والمحبة– نامية بقرب الساقية بحيث أبتلت أوراقها.

ووجد نفسه ينظر اليها وقد تذكر أنه قد نظر الى مثيلاتها قبل سنوات. صار يفكر والحنان يغمر صدره بذلك الجمال وفتنة الزرقة المنبعثة من مئات الزهور الصغيرة. ولم يكن أن تلك الفكرة البسيطة قد أخذت ببطء. تملأ فكرة– وتملؤه وتملؤه حتى دفعت الاشياء الاخرى برفق جانباً. كانت كأن ربيعاً حلواً، نقياً قد بدأ ينبثق في بركة راكدة ويعلو ثم يعلو حتى جرف المياه المعتمة بعيداً. غير أنه، بطبيعة الحال، لم يفكر بذلك، بل عرف أن الوادي بدا يبدأ أكثر فأكثر وهو جالس يحدق في الزرقة المشرقة الرقيقة. ولم يدر كم طال جلوسه هناك، أو ماذا جرى له، ولكنه في تحرك أخيراً كأنه كان يستيقظ ونهض ببطء. ووقف على بساط العشب، يستنشق نفساً عميقاً، طويلاً، ولطيفاً ومتعجباً من نفسه. بدا كأن شيئاً فيه قد فك قيده وأرسل طليقاً بهدوء شديد.

وقال بما يشبه الهمس وهو يمرر يده فوق جبينه: ماهذا؟ أكاد أشعركأنني– كنت حياً!

أنا لاأعرف شيئاً كثيراً عن عجائب الاشياء غير المكتشفة لاأستطيع أن ابين كيف هذا الشيئ له. ولايعرف غيري أيضاً. ولاهو يعرف شيئاً قط– ولكنه تذكر هذه الساعة الغريبة بعد شهور عندما عاد ميسيلثوايت وعرف بمحض المصادفة في ذلك اليوم بالذات أن كولن قد هتف صائحاً في الحديقة السرية: «ساعيش الى الابد، الى الابد، الى الابد!

ظل هذا الهدوء ملازماً له طوال المساء ونام نوماً هادئاً،

ولكن لم يدم الامر طويلاً. ولم يكن يدري أنه يمكن الاحتفاظ بذلك. وفي الليلة التالية فتحت الابواب مشرعة لافكاره السود، وجاءت اليه تسعى متدفقة بجحافلها. ترك الوادي وعاد الى تجواله، ولكن بدا الامر غريباً عليه- حيث مرت عليه دقائق، وأحياناً نصف ساعة عندما بدا كأن العبء الاسود قد رفع عن كاهله وعرف أنه انسان حي وليس ميتاً. وببطء- ببطء- لايعرف كنهه- كان يعود حياً كما عادت الحديقة.

وبتغيير الصيف الذهبي الى خريف ذهبي أعمق كان يذهب الى بحيرة كومو. ووجد هناك جمال الاحلام. وصار يمضي أيامه فوق الزرقة البلورية للبحيرة أو يتمشى عائداً نحو الخضرة الناعمة الكثيفة فوق التلال ويظل يضرب في الارض حتى يتعب لعله ينام. وفعلا بدأ هذه المرة ينام أفضل نوم، وكفت أحلامه أن تكون مصدر رعب له.

وفكر: لعل جسمي بدأ يصبح أقوى.

حقاً أصبح أقوى غير أن روحه بدأت تقوى تدريجياً أيضاً لقلة ساعات الهدوء عندما أخذت أفكاره تتغير. راح يفكر بميسيلثوايت ويتساءل أن كان لايعود الى بيته. وكان يتساءل بين حين وآخر بشكل يشوبه الغموض عن ابنه وعن شعوره اذا ما ذهب ووقف الى جانب سريره المنقوش ونظر الى الوجه الشاحب النحيل وهو نائم وأهدابه السود تحيط بعينيه المطبقتين بشكل مذهل وجفل مرتداً عن هذه الفكرة.

في يوم من الأيام سار طويلاً فلما عاد القمر بدراً عالياً و...

سابحة في ظلال ارجوانية وفضية.. وكان الهدوء في البحيرة وعلى الشاطئ وفي الغابة رائعاً جداً بحيث لم يذهب الى المغنى (الفيلا) التي يسكن فيها. ونزل الى دكة صغيرة محاطة بتعريشة على حافة الماء وجلس على مقعد واستنشق عطور الليل السماوية. وشعر بالهدوء الغريب يهيمن عليه وأصبح أعمق فأعمق حتى خلد الى النوم.

ولم يعرف متى نام ومتى بدأ يحلم. كان حلمه حقيقياً جداً بحيث لم يشعر بأنه يحلم. وتذكر فيما بعد أنه ظن نفسه مستيقظاً تمام اليقظة. وفكر أنه عندما جلس واستنشق عبير الورود وأصغى الى أرتكام الماء برفق عند قدميه سمع صوتاً ينادي. كان عذباً، نقياً، سعيداً، وبعيداً. بدا بعيداً للغاية ولكنه سمعه بوضوح كأنه الى جانبه.

قال الهذاء: آرجي! آرجي! آرجي!

وجاء مرة أخرى أعذب وأصغر من ذي قبل: آرجي! آرجي! وظن أنه قفز واقفاً على قدميه ولم يجفل.

كان صوتاً حقيقياً وبدا طبيعياً جداً بحيث سمعه. فاجابه: ليلياس! ليلياس! ليلياس! أين أنت؟

وجاءه الجواب كأنه صوت مزمار ذهبي: في الحديقة! في الحديقة!

ثم انتهى الحلم. ولكنه لم يستيقظ. نام نوماً عميقاً وعذباً طوال الليلة الجميلة. وعندما استيقظ أخيراً كان الوقت ضحى مشرقاً وخادم واقف يحدق فيه. كان الخادم ايطالياً وكان معتاداً،

شأن جميع خدم المغنى. أن يتقبل دونما نقاش أي شيء غريب قد يبدر من الزائر الغريب. لايعرف أحد متى يخرج ومتى يعود وأين ينام أو أنه سيتجول في الحديقة أو يستلقي في الزورق في البحيرة ليلاً. كان الرجل يحمل طبقاً فوقه بعض الرسائل وانتظر بهدوء حتى أخذها السيد كريفن.

وعندما انصرف، جلس السيد كريفن لحظات معدودات والرسائل في يده وهو ينظر الى البحيرة. وكان الهدوء الغريب مايزال يلفه. فضلاً عن شيء آخر- اشراقة. كأن الشيء الرهيب الذي حصل لم يقع كما ظن- كأن شيئاً قد تبدل. كان يتذكر الحلم- الحقيقي- الحلم الحقيقي.

وقال متعجباً في نفسه: في الحديقة! في الحديقة! ولكن الباب مقفل والمفتاح مدفون عميقاً.

وعندما نظر الى الرسائل بعد دقائق قليلة رأى أن الرسالة الاخيرة كانت رسالة أنكليزية جاءت من بوركشير. كتب بخط نسائي واضح، ولكنه لم يكن خطاً يعرفه. فتحها ولم يكن يفكر بالكاتبة، ولكن الكلمات الاولى لفتت أنتباهه في الحال.

سيدي العزيز

أنا سوزان ساور باي التي تجرأت يوماً على محادثتك في طريق المروج بشأن الآنسة ميري. واني لاتجرأ الآن مرة أخرى وأرجوك ياسيدي أن تعود الى بيتك. واظن أنك ستكون مسروراً بالعودة واذا سمحت لي ياسيدي وأعذرتني أن أظن أن زوجتك ستطلب منك ذلك لو كانت هنا.

خادمتك المخلصة،

سوزان ساور باي

قرأ السيد كريفن الرسالة مرتين قبل أن يعيدها في ظرفها. وظل يفكر بالحلم.

وقال: ساعود الى ميسيلثوايت. أجل، سأعود في الحال. وسار مخترقاً الحديقة الى المغنى وامر أن يتأهب للعودة الى انكلترة.

بعد أيام قلائل وصل الى بوركشير، ووجد نفسه، في أثناء رحلته الطويلة بالقطار، يفكر بابنه الذي لم يخطر بباله طوال السنوات العشر الماضية بهذه الشاكلة حيث كان يتمنى سابقاً نسيانه أما الآن وبالرغم من أنه لم يقصد التفكير به، فقد انهالت الذكريات عنه باستمرار. تذكر الايام السود عندما هاج كالمجنون لان الام ماتت وعاش الطفل، ورفض أن يراه. وعندما ذهب أخيراً ليلقي عليه نظرة، كان ضعيفاً هزيلاً جداً بحيث أيقن الجميع من موته بعد ايام قلائل. ولكن الايام مرت وعاش ودهش من كان يرعاه، ثم اعتقدوا أنه سيكون مخلوقاً مشوهاً مقعداً.

لم يكن الرجل يقصد أن يكون اباً سيئاً ولكنه لم يكن يشبه الاباء بشيء قط، بالرغم من أنه هيأ الاطباء والحاضنات ووسائل الرفاهية ولكن كان ينتفض من مجرد التفكير بالولد، فدفن نفسه في بؤسه وشقائه، عاد الى ميسيلثوايت بعد غياب سنة واحدة عنها. وكان الصغير البائس قد رفع رأسه الى وجهه بوهن وغير اكتراث بعينيه الواسعتين اللتين تحيط بهما أهداب سود، وتشبهان كثيراً العينين السعيدتين اللتين توله بهما، ولم يستطيع أن يتحمل النظر اليهما فشحب شحوب الموتى. ولم يكد يراه بعد ذلك الا

نادراً وهو نائم، وكان كل مايعرفه عنه أنه مريض عاجز ذو مزاج هستيري شكس شبه مجنون ولا يمكن السيطرة على نوبات غضبه الخطرة عليه الا بتركه على سجيته يفعل مايشاء.

ولم يكن ذلك كله مما هو جدير بالتذكير، غير أنه لما كان القطار ينطلق به خلال الممرات الجبلية والسهول الذهبية، بدا هذا الرجل العائد الى الحياة يفكر بطريقة جديدة وظل يفكر طويلاً وبعمق وهدوء.

وقال في نفسه: لعلي كنت مخطئاً طوال السنوات العشر. عشر سنوات وقت طويل. ولعل الاوان قد فات كثيراً لعمل شئ فات منذ مدة طويلة. بماذا كنت أفكر!

كان ذلك بطبيعة الحال السحر المغلوط- أن يبدأ بالقول: فات الاوان كثيراً. حتى كولن نفسه يمكن أن يقول له ذلك.

ولكنه لم يكن يعرف شيئاً عن السحر- الاسود أو الابيض. عليه، مع ذلك، أن يتعلم هذا. وتساءل فيما اذا كانت سوزان ساورباي قد تجرأت وكتبت اليه بسبب أمومتها التي أدركت أن الصبي قد تدهور كثيراً- وكان في حالة مرضية خطيرة. ولو لم يكن تحت سلطان هذا الهدوء لكان اسوأ من ذي قبل. ولكن الهدوء جلب معه شيئاً من الجرأة والأمل. وبدلاً من الاستسلام لافكار أسوأ فقد وجد نفسه يحاول فعلاً أن يعتقد بأشياء أفضل.

وفكر في نفسه: هل من الممكن أنها ترى أنني يمكن أن أكون قادراً على فعل الخير له والسيطرة عليه؟ ساذهب واراها في طريقي الى ميسيلثوايت.

وأوقف العربة لدى كوخها عندما كانت تسير عبر المروج، وتجمع سبعة أو ثمانية أطفال كانوا يلعبون وانحنوا له سبع أو ثمان انحناءات احترام ودية، مؤدبة وقالوا له أن أمهم ذهبت الى الجانب الآخر من المروج في الصباح الباكر لتساعد أمرأة في ولادتها. وتطوعوا قائلين له: أخونا ديكون كان في مزرعة القصر يعمل في احدى الحدائق حيث يمضي أياماً من كل أسبوع.

وتطلع الى مجموعة الاجسام القوية والوجوه الحمر المدورة، كل واحد يتكلم بطريقته الخاصة، فاستيقظ منتبهاً الى حقيقة كونهم في صحة وعافية، جديرين بالمحبة. وابتسم الى ماقالوا وأخرج من جيبه

جنيهاً ذهبياً وأعطاه الى «أختنا اليزابيث ايلين» أكبرهم عمراً.

وقال: اذا قسمت هذه الى ثمانية أقسام أصاب كل واحد منكم نصف كروان (أي مئة وخمسة وعشرون فلساً)

ثم ساق العربة بين قهقهاتهم وكلامهم وانحناءات أحترامهم، تاركاً أياهم في غمرة بهجتهم يتقافزون فرحاً ويتدافعون بالمرافق خلفه.

وكان مسير العربة عبر روعة المروج أمراً مهدئاً. لماذا جعله ذلك يشعر بالحنين الى وطنه وبيته بعد أن كان موقناً أنه لن يشعر بذلك ابداً— والاحساس بجمال الطبيعة والسماء والزهور الارجوانية المترامية الى مسافات بعيدة، ودفء يغمر القلب كلما اقترب من البيت العظيم العتيق الذي آوى أهله ست مئة سنة؟

وكيف غادره آخر مرة مرتعداً لايريد التفكير بغرفه المقفلة والصبي الراقد فوق سرير بأربعة أعمدة وستائر مطرزة. أمن الممكن أن يجده قد تغير قليلاً نحو الافضل وأنه قد يتغلب على الانكماش من الذعر منه؟ ماأشد صدق ذلك الحلم– وما أعجب وأصفى الصوت الذي أجابه قائلاً: في الحديقة– في الحديقة!

وقال: ساحاول أن أجد المفتاح وأحاول أن أفتح الباب. يجب أن أفعل ذلك مع أنني لاأدري لماذا.

وعندما وصل القصر لاحظ الخدم الذين استقبلوه بالمراسم المعهودة أنه كان يبدو أفضل حالاً وأنه لم يذهب الى الغرفة المنعزلة حيث يسكن، ويقف على خدمته بيجر، بل ذهب الى المكتبة وأرسل في طلب السيدة ميدلوك. أتت اليه بشيء من الانفعال والتطلع والارتباك.

وسألها: كيف حال السيد كولن ياميدلوك؟

فاجابت السيدة ميدلوك: بخير، ياسيدي. أنه– أنه مختلف اذا أردت القول.

فقال: نحو الاسوأ؟

وأحمرت السيدة ميدلوك وحاولت أن توضح له الأمر.

فقالت: حسناً، ياسيدي، أنت ترى أننا لم نستطع أن نجعله يخرج، لا الدكتور كريفن ولا المربية ولا انا أيضاً.

فسألها: ولماذا؟

فاجابته: أقول الحقيقة ياسيدي ان السيد كولن قد يكون أفضل وقد يتبدل الى الاسوأ. شهيته، ياسيدي، شيء يفوق

فهمنا— وسلوكه—

فسألها الرجل وهو يعقد حاجبيه قلقاً: هل أصبح أكثر— غرابة؟

فأجابت: هذا ماحصل ياسيدي. أصبح شديد الغرابة— اذا ما قارنته بما كان عليه. لم يكن يأكل شيئاً، وفجأة بدأ يأكل كثيراً— ثم توقف عن ذلك مرة أخرى بغتة، وصار يعيد الطعام كما أرسل له. ولعلك ياسيدي لاتعرف أنه لم يكن يوافق أن يؤخذ الى خارج البيت. فقد بذلنا جهوداً كثيرة لكي نجعله يخرج في كرسيه ولكنه كان يجعلنا نرتعش مثل ورقة الشجر. وكان يلقي نفسه في حالة غريبة جداً بحيث كان الدكتور كريفن يقول أنه لايمكن أن يتحمل مسؤولية اجباره على الخروج. حسناً ياسيدي، وبدون سابق انذار— وبعد احدى نوبات غضبه الشديدة، أصر فجأة على الخروج يومياً مع الآنسة ميري وديكون ابن سوزان ساورباي، لانه يستطيع أن يدفع كرسيه.

وصار معجباً بكل من الآنسة ميري وديكون الذي جلب حيواناته الاليفة، واذا وفقت ياسيدي، فأنه صار يمكث في خارج البيت من الصباح حتى الليل.

وسألها مرة أخرى: وكيف صار شكله؟

فأجابته: لو انه يتناول طعامه بصورة طبيعية، ياسيدي، لقلت أنه يسمن— ولكننا نخشى أن يكون ذلك نوعاً من الانتفاخ. ومضحك أحياناً بطريقة غريبة عندما يكون وحده مع ميري. لم يكن معتاداً على الضحك قط. وسيأتي الدكتور كريفن

لرؤيتك في الحال. اذا سمحت له. لم يكن في حياته أكثر حيرة.

فسألها السيد كريفن: وابن السيد كولن الآن؟

فأجابت: في الحديقة ياسيدي. أنه في الحديقة دائماً— ولايسمح لاي مخلوق بالاقتراب خشية أن ينظروا اليه.

ولم يكد يسمع كلماتها الاخيرة

وقال: في الحديقة!

وبعد أن صرف السيدة ميدلوك، وقف يكرر ذلك مراراً في الحديقة!

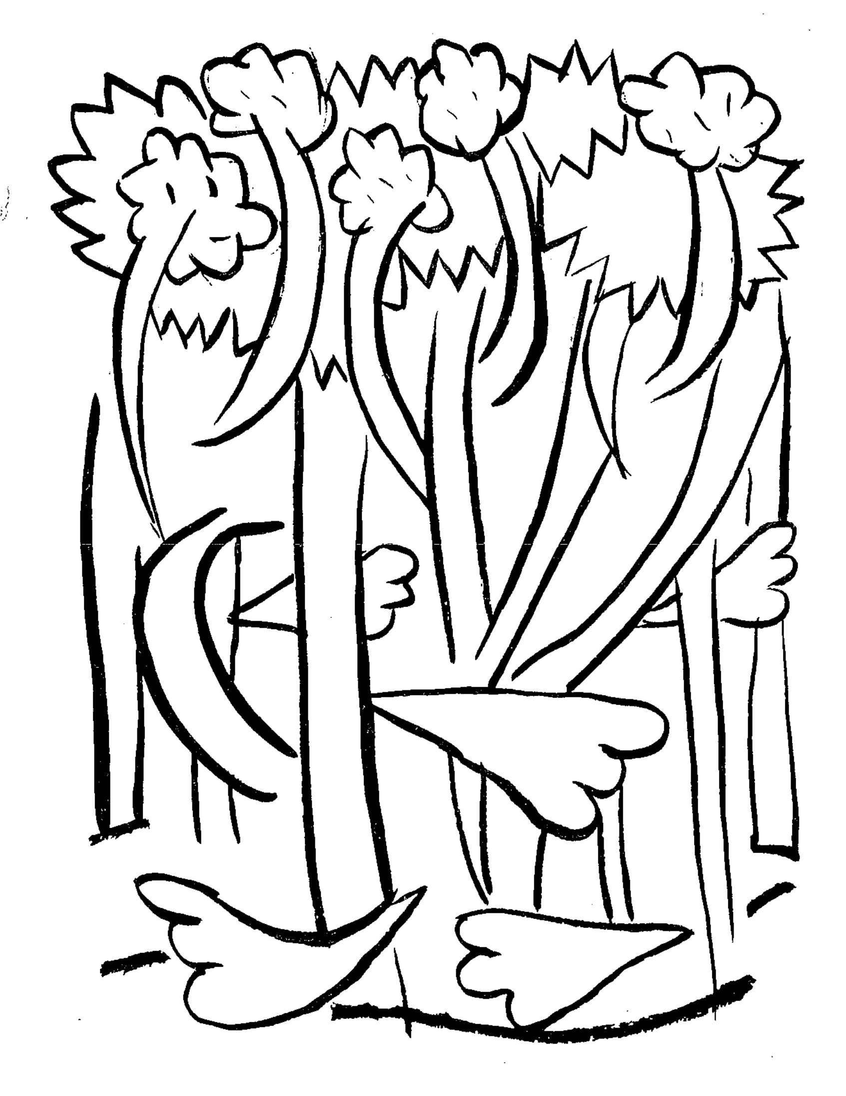
كان عليه أن يبذل جهداً للرجوع الى حيث كان واقفاً، وعندما شعر أنه واقف على الارض مرة أخرى، استدار وخرج من الغرفة. وسار، كما فعلت ميري، ودخل من الباب ومشى بين الشجيرات وأغصان الغاز المزهرة والواح الورود لدى النافورة التي كانت تعمل الآن، وتحيطها زهور الخريف المشرقة. وعبر العشب المقصوص وأستدار الى الممشى الطويل الى جانب الاسوار ذات اللبلاب. ولم يمشِ مسرعاً بل متمهلاً، وكانت عيناه على الممشى.

وشعر كأنه يسحب الى الوراء حيث المكان الذي هجره طويلاً ولايدري لماذا. وعندما اقترب منه، تباطأت خطواته. هو يعرف مكان الباب بالرغم من تدلي اللبلاب عليه— ولكنه لم يعرف بالضبط مكان المفتاح— المفتاح الذي دفنه.

فتوقف وظل ساكناً يتطلع حوله وفي اللحظة التي توقف فيها، تنبه وأصغى— وسأل نفسه أن كان ماشياً في حلم.

كان اللبلاب يتدلى كثيفاً فوق الباب، وكان المفتاح مدفوناً تحت شجيرة ولم يدخل أحد من ذلك الباب عشر سنوات موحشة- ومع ذلك كانت أصوات داخل الحديقة. أصوات ركض، ووقع أقدام تجري في مطاردة تحت الاشجار، أصوات غريبة، واطئة، مكبوتة- صيحات تعجب وفرح مكتوم. بدت كأنها ضحك صغار، ضحك أطفال لم يستطيعوا السيطرة على أنفسهم وهم يحاولون الا يسمعهم أحد ولكنهم بعد لحظة أو لحظتين- وقد تعالى انفعالهم- انفجروا ضاحكين صاخبين. فبالله بماذا كان يحلم، وبالله ماذا يسمع؟ هل فقد صوابه وصار يتصور أنه سمع أشياء غير مألوفة لاذان البشر؟ هل هو ماقصده ذلك الصوت البعيد الواضح؟

ثم حانت اللحظة، تلك اللحظة التي لايمكن السيطرة عليها، عندما نسيت الاصوات أن تكتم نفسها. وصارت الاقدام تجري أسرع فأسرع- واقتربت من باب الحديقة- وكان ثمة تنفس سريع، قوي وقتي وانفجار هتافات ضاحكة لم يمكن السيطرة عليها- وانفتح الباب على مصراعيه بغتة، وارتدت طبقة اللبلاب المتدلية الى الخلف وهي تتأرجح، وانقض صبي منها باقصى سرعته، دون أن يرى الشخص الخارجي، وكاد أن يندفع بين ذراعيه. فمدهما السيد كريفن في الوقت المناسب لينقذ الولد من السقوط نتيجة عدم رؤيته أثناء اندفاعه واصطدامه به، وعندما مسكه وأبعده عنه قليلاً لينظر اليه في دهشة لوجوده هنا. فانقطعت أنفاسه.



كان الولد طويلاً وسيماً، يتوهج بالحياة، وبعث الركض في وجهه لوناً رائعاً، وكان قد القى شعره الكثيف الى ماوراء جبينه ورفع عينين رماديتين غريبتين– عينين مفعمتين بضحك الصبا وتحيط بهما أهداب سود كالحاشية. هما العينان اللتان جعلتا السيد كريفن يقف مبهور الانفاس. وتلعثم في قوله: من– ماذا؟ من؟

لم يكن ذلك ماتوقعه كولن– ولم يكن ماخطط له. لم يفكر بمثل هذا اللقاء قط . أما أن يخرج مندفعاً– فائزاً بالسباق– لعله أفضل. وانتصب الى أعلى قامته. واعتقدت ميري أنه استطاع أن يبدو أطول مما كان يبدو قبلاً– أطول عقدات قليلة، وكانت تركض معه واندفعت راكضة خارج الباب أيضاً

وقال: أبي! أنا كولن. لاتستطيع أن تصدق. لم أعد كما كنت. أنا كولن.

ولم يفهم، كما لم تفهم السيدة ميدلوك، ماذا كان يقصد أبوه بقوله على عجل: في الحديقة! في الحديقة!

فأسرع كولن قائلاً: نعم، أنها الحديقة التي فعلت ذلك– وكذلك ميري وديكون والحيوانات– والسحر. لايدري أحد عن ذلك. فقد احتفظنا به لنخبرك عندما تعود. أنا بخير. أستطيع أن أغلب ميري في الركض. ساكون رياضياً.

قال ذلك مثل ولد معافى تماماً– وأحمر وجهه، وقد تدفقت الكلمات بعضها فوق بعض في لهفته فأرتعش روح السيد كريفن من فرط فرحه المرتاب.

ومد كولن يده ووضعها على ذراع أبيه.

وسأله: الست مسروراً ياأبي؟ الست مسروراً؟ سوف أعيش الى الابد والى الابد والى الابد.

ووضع السيد كريفن يديه على كتفي الولد وثبته. وعرف أنه لم تواته الجرأة حتى أن يحاول الكلام لحظة واحدة.

ولكنه قال أخيراً: خذني الى الحديقة ياولدي. واخبرني كل شيء عنها. وهكذا قاداه اليها.

كانت الحديقة كبراري الخريف في الوانها الذهبية والارجوانية والبنفسجية والقرمزية الملتهبة وعلى جوانبها جميعاً حزم من الزنابق المتأخرة منتصبة معاً– زنابق بيض أو بيض وياقوتية. وتذكر جيداً أنها عندما زرعت أول مرة في مثل هذا الموسم من السنة كانت تكشف عن بهائها متأخرة. وتسلقت الورود الأفلية (المتأخرة) وتدلت في عناقيد، وزادت أشعة الشمس في عمق الوان الاشجار المصفرة مما جعلت المرء يشعر كأنه واقف في هيكل من الذهب. وقف الداخل الجديد صامتاً كما وقف الاطفال عندما جاءوا اليها يوم كانت رمادية اللون. وتلفت حوله.

وقال: ظننت أنها ميتة.

فقال كولن: ظنت ميري كذلك أول الأمر، ولكنها خرجت حية.

ثم جلسوا تحت شجرتهم– جميعهم ماعدا كولن الذي أراد أن يظل واقفاً وهو يروي الحكاية.

كانت أغرب شيء يسمع به ارجيبالد كريفن. وهي تروي

باسلوب صبياني. غموض وسحر وحيوانات برية، ولقاء منتصف الليل العجيب– ومجيئ الربيع– وثورة الكبرياء المهان التي دفعت الراجا الصغير الى الوقوف على قدميه تحدياً لبين ويذر ستاف أمام عينيه.

والصحبة الغريبة، والتمثيل، والسر العظيم يكتم بعناية فائقة. وضحك المستمع حتى فاضت الدموع في عينيه وعندما كف عن الضحك كانت الدموع تجول في عينيه أحياناً. كان الرياضي والمحاضر والمكتشف العلمي مثيراً للضحك، جديراً بالمحبة، ولداً صغيراً في أتم العافية.

وقال في ختام قصته. ولآن لاحاجة أن تبقى سراً بعد هذا. ولعل ذلك سيرعبهم حتى يصابوا بنوبة اذا مارأوني– ولكنني لن أركب في كرسي مرة أخرى. سأعود ماشياً معك ياأبي، الى البيت.

كان بين ويذر ستاف منشغلاً بواجباته وقلما يخرج من الحدائق بسببها، ولكنه وجد بهذه المناسبة عذراً لكي يحمل بعض الخضار الى المطبخ، ولما دعته السيدة ميدلوك الى بهو الخدم ليشرب قدحاً من شراب، ظل واقفاً، وكان ذلك مايرجوه، ليشهد أعظم حادثة يراها قصر ميسيلثوايت في غصون الجيل الراهن.

كانت احدى النوافذ المطلة على الفناء، تشرق أيضاً على ساحة الثيل (العشب المجزوز). وعرفت السيدة ميدلوك أن بين ويذرستاف جاء من الحدائق ولعله رآى سيده، ولقي كولن.

فسألته: هل رأيت أيا منهما ياويدرستاف؟

وأبعد بين القدح عن فمه ومسح شفتيه بظاهر يده.

وأجابها بشيئ من التعالي البسيط: أي نعم رأيت.

فقالت السيدة ميدلوك: كلاهما؟

فرد عليها ويدرستاف: كلاهما. شكراً لك سيدتي، هل لي بقدح آخر من الشراب.

فسألته: معاً؟

وصبت له على عجل قدحاً آخر من الشراب وهي منفعلة.

فغبق بين نصف مافي القدح بجرعة واحدة وأجاب: معاً ياسيدتي.

وعادت تسأله: أين كان السيد كولن؟ كيف كان حاله؟ ماذا أحداهما للآخر؟

فقال بين: لم أسمع ذلك. كنت بعيداً على السلم أتطلع من فوق السور.

ولكن اقول لك هذا. حدثت أشياء في الخارج لاتعرفون بها أنتم الذين في البيت. وماستعرفونه، ستعرفونه في الحال.

وأبتلع في أقل من دقيقتين آخر جرعة في قدحه ولوح به بوقار مشيراً الى النافذة التي تطل من بين الاشجار على قطعة من ساحة الثيل.

وقال: أنظري هنا. أنظري من يأتي عبر العشب.

وعندما تطلعت السيدة ميدلوك رفعت يديها وصرخت صرخة صغيرة جعلت كل من يسمعها من الخدم رجالاً ونساء

ينطلقون عبر البهو ويقفون ناظرين خلال النافذة بعيون تكاد تخرج من رؤوسهم.

جاء فوق الثيل صاحب قصر ميسيلثوايت، وبدا كأن كثيرين منهم لم يروه سابقاً، والى جانبه يمشي بقوة وثبات ابنه كولن مثل أي ولد من أولاد بوركشير مرفوع الرأس طافح العينين بالضحك!





المحتوى

مطبعة سومر هاتف ٤٣ : ٧١٩٩١

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٢٨٦ سنة ١٩٨٧

السعر ٥٠٠ فلس

رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٢٨٦ لسنة ١٩٨٧